

تاریخ الفتح العربی فی لیبیا

تألیف

الطاهر أحمد الزاوی

الطرابلسی

مطبعة الطبعة والنشر
دار المعارف بمصر

2276
99235
389

99235

389

2276.99235.389

Zawł

Tārīkh al-fath

[illegible]

DATE ISSUED

DATE DUE

DATE ISSUED _____

DATE DUE

Princeton University Library



32101 071969966

al-Zāwī, al-Tāhīr Aḥmad

Tārīkh al-fath al-ʿarabī

تاريخ الفتح العربي في ليبيا

تأليف

الطاهر أحمد الزاوي

الطرابلسي

منزلة الطبعة والنشر

دار المعارف بمصر



الاهداء

أهدي كتابي هذا :

إلى كل ليبي يحطم قيود الاستعمار ويطهر ليبيا من المستعمرين .
إلى كل ليبي يعمل على توفير الرخاء وهناءة العيش لليبيا .
إلى كل ليبي يرفع منار العلم في ربوع ليبيا التي حرمت نوره منذ قرون .
إلى كل ليبي يفنى في حب ليبيا ، والعمل على بناء مجدها وتمكين عزها .
الطاهر الزاوي

2276
99235
389

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى جعل العرب خير أمة أخرجت للناس ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحابته وأتباعه الذين جاهدوا فى الله وأخلصوا دينهم لله .

وبعد . فإن من أعجاد العرب ما لا يزال محجوباً بما تراكم عليه من غبار الماضى البعيد ، وتضليل الأوربيين وأذئابهم من أنصار المستعمرين وأصحاب الأغراض الدنيئة والنفوس المريضة .

ولقد كان لهم من أعمال البطولة — فى مشارق الأرض ومغاربها — ما لم يحفظ التاريخ مثله لغيرهم من أمم الدنيا . . ومن هذه الأعجاد وتلك البطولة ذلك الفتح المبين والنصر المؤزر الذى أحرزوه فى الشمال الإفريقى فى السنة الثانية والعشرين من الهجرة وما تلاها من السنين إلى أن استقرت أقدامهم فيه وتم لهم الأمر فى سنة ٨٨ .

ولقد كان لهم فيها عشر جولات فى سبع وستين سنة . وكانت أولى هذه الجولات بقيادة عمرو بن العاص سنة ٢٢ ، وآخرها بقيادة موسى بن نصير سنة ٨٨ هـ وفى هذه المدة ملكوا ما بين الإسكندرية وبحر الظلمات (الاطلنطى) ، وما بين البحر الأبيض وبلاد كاوار (السودان) .

ولقد كانت لهم فى إفريقية ملاحم تشيب الرضيع ، تذرعو فيها بالصبر . فكتب لهم النصر ، وأخلصوا فيها لله فوقاهم شر الهزيمة .

وإن تعجب فعجب أن يفتح العرب إفريقية وهم في تلك القلة ، وهي مشحونة بالروم والبربر تكاد تغص بهم كثرة ، على ما بينهم وبينها من طول المسافة وبعد الشقة ، ولكنه الصبر على المشاق ، وقوة العزيمة التي رباهم عليها القرآن وتعاليم الإسلام ، فكانوا إذا اعتزموا الأمر لا يشنهم عنه ثان . أما الموت وما دونه من المكاره فلا يبالونه ، لأنهم تعلموا من القرآن « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

ومما كان يحز في نفسى أئى حينما كنت اطالع فتح إفريقية في كتاب ما لم نجد فيه من آثار الفتح العربى في طرابلس ما يعطى للقارئ صورة لهذا الوطن العربى وأعمال العرب فيه ، فأدركت أن ما يتعلق منه بطرابلس لا يزال مبعثراً في بطون الكتب ، ويحتاج إلى جمع وتنسيق ، فأردت أن أقوم بهذه المهمة كفاء لما لطرابلس علينا من فضل التربية وحقوق الأمومة ، وقياماً بواجب الوطن وما يتطلبه في حياته الجديدة من تظافر جهود أبنائه على تدعيم نهضته الثقافية . فاعتزمت الأمر ، ورجعت إلى كل كتاب علمت أنه يتصل بالفتح العربى في ليبيا من قريب أو بعيد ، وأخذت منه كل ما يتعلق بليبيا .

ولم يكن في وسعى أن أتجنب - في كثير من المناسبات - الكلام على القيروان وبعض المدن الإفريقية لأن صلة طرابلس - إذ ذاك - بهذه المدن كانت صلة متينة ، صلة التابع بالمتبوع . وتحت هذه الظروف انساق بي الكلام على غير طرابلس مقتصرأ في ذلك على قدر الضرورة .

والمستبغ لتاريخ الفتح العربى في ليبيا ، لا يقع نظره إلا على غزاة تتابعت غزواتهم عليها ، لنشر تعاليم الإسلام تارة ، وللاحكم والسيطرة تارة أخرى ، يتخلل هذا وذاك حروب طاحنة ، وثورات متوالية ، صرفت الليبيين عما يجب عليهم لوطنهم من توفير وسائل العمران ، ونشر المعارف ، والأخذ بنصيب من المدنية لا يقل عن نصيب جارتها تونس ومصر .

ولقد كان لأعمال التخريب التى قامت بها الكاهنة من سنة ٨٢ إلى ٨٤ أكبر الأثر في تأخر وسائل العمران في ليبيا .

وإذا نظرنا إلى ما كانت عليه مدنها زمن الروم وقبيل الفتح العربى نجدها كانت فى حالة انحطاط مادى وأدبى نتيجة لتعسف الروم فى أحكامهم ، وقسوتهم فى جباية الأموال لتوفير ملذاتهم ، وإهمال شأن الإصلاح مما قعد بها عن اللحاق بجاراتها فى مضمار المدنية .

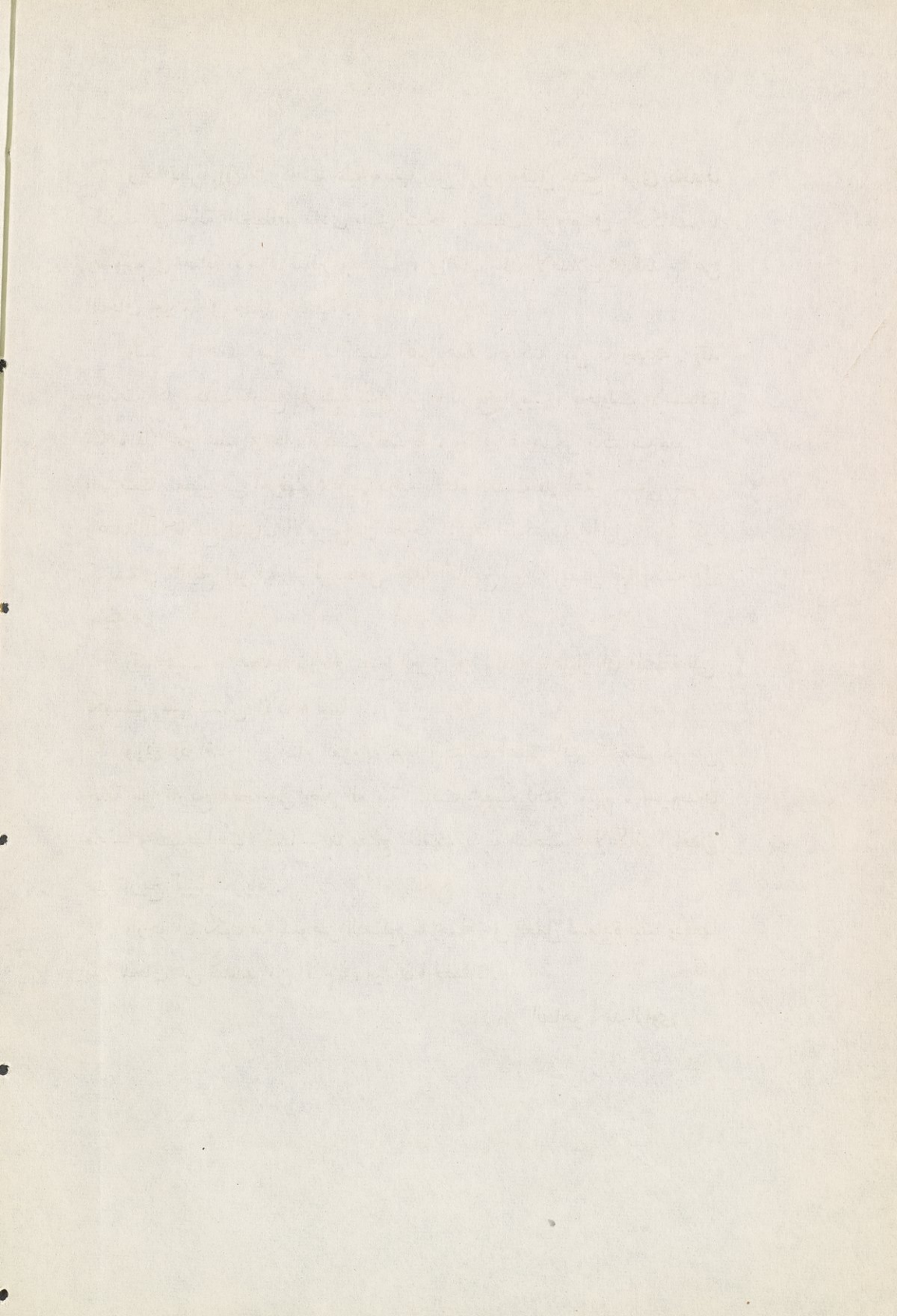
وليس ما جمعته هو كل ما كنت أتمنى جمعه ، ولكنه كل ما وجدته . وقد وجدت كل كتب تاريخ إفريقية تنقل عن « تاريخ الرقيق » فحاولت الاستفادة منه ، فلم أعثر عليه فى دار الكتب المصرية ، ولا فى غيرها من مكتبات مصر ، واستعنت ببعض من أعرفهم ممن لهم دراية بأسماء الكتب فلم أعثر له على خبر . وأعتقد أن تاريخ الشمال الإفريقى فى حاجة إلى هذا الكتاب الجليل . وأن كل كاتب فى تاريخ إفريقية - لم يستعن بهذا التاريخ - لن يصل فيما يكتبه إلى غايته .

وقد سميت ما جمعته « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » باعتبار أن المنطقة التى تكلمت عليها تسمى الآن « ليبيا » .

ولئى إذ أقدم إلى أبناء العروبة هذا الكتاب أعتقد أنى كشفت لهم عن حلقة من تاريخ قطعة من وطن العربية كانت مجهولة لكثير منهم ، وسيجدون فيه - وخصوصاً أبناء ليبيا - ما يفتح أمامهم باب البحث ، لإكمال الناقص من تاريخ ليبيا العزيزة .

وأرجو أن يكون فيه للمواطن الصالح ما يحمله على العمل لسعادة ليبيا ودفعها إلى اللحاق بمن تقدمها من الأمم فى ميدان الحضارة .

الطاهر أحمد الزاوى



التعريف بلوبيا

« لوبيا » بضم اللام وسكون الواو . وبالباء الموحدة والياء المثناة من تحت وألف : مدينة بين الإسكندرية وبرقة . والنسبة إليها لوبى .
وكلمة لوبيا كلمة قديمة تتحدر من الجغرافية القديمة ، وقد هجر استعمالها منذ زمن بعيد .

وقد اختلف فى الجهة التى تطلق عليها كلمة اوبيا . . . فقال أبو الريحان البيرونى : كان اليونانيون يقسمون المعمورة أقساماً ثلاثة ، ويعتبرون أرض مصر مجتمعاً لها ، فما مال عنها وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبيا ، ويحدها من الغرب بحر أوقيانوس المحيط الأخضر . ومن جهة الشمال بحر مصر . ومن جهة الجنوب بحر الحبش . ومن جهة المشرق خليج القلزم ، وهو بحر سوف « أى البردى » . وهذا كله يسمى لوبيا .

وهذا التقسيم لا يجد له مبرراً من التاريخ ، لأن أول عهد اليونان - وهم الإغريق - ببرقة كان فى آخر القرن السابع ق . م ، وذلك أن جماعة من سكان جزيرة ثيرا - وهى إحدى جزر بحر إيجا - ويقال لهم الشيرانيون نسبة إليها ، جاعوا فى هذا التاريخ إلى برقة بعد أن منعهم القرطاجنيون من الإقامة فى شمال إفريقيا ، وبعد عشر سنوات من وجودهم فيها أسسوا مدينة قورين . وفى هذا الوقت كان الفينيقيون يملكون الشمال الإفريقى ، وكان قد ضى على تأسيس قرطاجنة نحو ١٤٠ سنة ، فكيف يصح أن يطلق اليونان اسم لوبيا على أملاك القرطاجنيين ؟ . وإذا قلنا إنهم أطلقوه عليها قبل أن يأتوا إلى برقة فهو أشد بطلاناً وأبعد عن الحقيقة . . . على أن نفوذ اللوبيين لم

يتجاوز برقة ، وكانوا فى نزاع مستمر مع فراعنة مصر . ولما جاء اليونانيون إلى برقة ، وبعد أن بنيت قورين وتوطد ملكهم فيها اضطهدوا اللوبيين وأجلوهم عن لوبيا . وخلف الروم اليونانيين على برقة فكانوا أشد اضطهاداً للوبيين .

والحقيقة التى يؤيدها أكثر المؤرخين — بل كلهم إذا استثنينا ذلك التقسيم الباطل الذى ذكره أبو الريحان البيرونى — أن الأرض التى تسمى لوبيا هى الأرض الواقعة بين حدود مطروح الغربية وحدود برقة الشرقية . وفى هذه المنطقة كانت عاصمة لوبيا ، وفيها كان يسكن اللوبيون ، ومنها كانوا يهاجمون فراعنة مصر ، ويحاولون الاستيلاء على ضفاف وادى النيل .

وقد عدد المقرئزى فى خططه كور مصر ، فذكر من كور الحوف الغربى : كورة الإسكندرية . وكورة مريوط . وكورة لوبيا ومراقبة . . . وذكر فى تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة . . ونقل عن القضاعى ما نصه : « الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقبة . وفى آخر أرض مراقبة تلقى أرض أنطابلس وهى برقة » ١٥ . وفيما ذكره المقرئزى رد واضح على أبى الريحان ، وتحديد الموقع لوبيا ، وأنها من الأراضى المصرية ، وتقع شرقى حدود برقة .

واللوبيون كانوا من الجنس الأسمر ، وقد انقرضوا من هذه المنطقة ولم يبق فيها منهم أحد ، ولا فى غيرها بهذا الاسم . ويسكن الآن هذه المنطقة جماعات من سلالات العرب الخلف كالأولاد على وغيرهم ، ولا يربطهم بهذا الجنس إلا الآدمية . . ولا يوجد فيما بين الإسكندرية والمحيط الإطلى الإنسان واحد معروف النسب إلى هذا الجنس . . . فإطلاق كلمة لوبيا على برقة وطرابلس إطلاق ظلموا به ذلك الشعب العربى الذى ما ينفك ينتسب إلى العرب .

وقد هجر اسم لوبيا منذ عهد اليونان فى قورين . وبعد أن فتحها العرب لم ينطقوا إلا بكلمة أطرابلس أو برقة .

وذكرت دائرة المعارف الإيطالية أن « اسم ليبيا قديم يتحدر من الجغرافية القديمة . وأول من أخرجه إلى الاستعمال العالم الجغرافي « ف مينوتلي » . في كتابه « جغرافية ليبيا » المطبوع في تورينو سنة ١٩٠٣ ليدل به على الولاية التركية التي تشمل طرابلس وبرقة . ثم اتخذته إيطاليا اسماً رسمياً لولاية طرابلس بعد أن أعلنت سيادتها عليها في ٢٤ من يونية سنة ١٩٢٩ . ومن ذلك الحين شاع استعماله في جميع أنحاء العالم ، وشمل طرابلس وبرقة وفزان والواحات التابعة لها » .

هنا ما ذكرته دائرة المعارف الإيطالية . ويفهم منه أن اسم لوبيا كان مهجوراً ، وأنه ما كان يطلق على طرابلس وبرقة ، وبعد أن هجر سنيين طولاً أخرج ليطلق على الولاية التركية التي ما كانت تسمى به . ولم يكن لهم سند تاريخي في هذا الاطلاق ، ولكنه اصطلاح الغرض منه دعاية استعمارية قصد بها التقضاء على الأسماء العربية التي كانت تطلق على هذه المقاطعات الثلاث .

ولما أعلنت الدولة الليبية في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ ، أقرت كلمة ليبيا وأطلقتها على ما أطلقها عليه الايطاليون : على ما بين حدود مصر وتونس ، وما بين البحر الأبيض وحدود السودان ، كما سمت نفسها « الدولة الليبية » .

وقد اعترض كثير من الطرابلسيين على إطلاق كلمة ليبيا على بلادهم ، وعلى تسمية الدولة باسم « الدولة الليبية » ، لأن كلمة ليبيا كلمة دخيلة على العربية ، أحيائها الطليان لأغراض استعمارية كما قدمنا آنفاً .

واقترح المعترضون أن تطلق كلمة طرابلس على ما أطلقت عليه كلمة ليبيا ، وأن تسمى الدولة « الدولة الطرابلسية » .

وكلمة طرابلس هي التي استعملها العرب منذ الفتح الإسلامي وجرى عليها العرف الدولي منذ مئات السنين .

وقد وجدت فكرة إطلاق كلمة طرابلس بدل كلمة ليبيا معارضة شديدة بدعوى أن اسم طرابلس لا يشمل برقة وفزان ، وما كانت برقة وفزان إلا قطعتين من طرابلس ، والاتفاق الذي يجعلنا نقر كلمة ليبيا — وهي الكلمة الاستعمارية

الدخيلة — كفيل بأن يجعلنا نقر كلمة طرابلس ، وهى الكلمة العربية الأصلية .
ولكن قاتل الله السياسة ، فقد أيدت رأى المناصر لكلمة ليبيا وكتب له
النجاح ، وأطلقت على طرابلس وبرقة وفزان .

وتتكون ليبيا من ثلاثة أقسام : طرابلس ، وبرقة ، وفزان ، ومن هذه
الأقسام الثلاثة تتكون أراضى الدولة الليبية .

والدولة الليبية دولة ملكية ، وراثية ، دستورية ، اتحادية ، على طريقة
النظام النمدر إلى الأوربي . ولها حكومة مركزية ، ووزراء ورئيس وزراء .
وفى كل قسم من الأقسام الثلاثة حكومة رئيسها يسمى الوالى ، وإلى جانبه نظار
بعدد ما فى الحكومة المركزية من وزارات ، كل ناظر يوكل إليه النظر فى
شئون الناحية التى يمثلها الوزير فى الحكومة المركزية ، فناظر المعارف يمثل
وزير المعارف فى قسمه المختص به ، وناظر المالية يمثل فى قسمه وزير المالية ،
وهكذا ... ولها مجلس نواب يمثل الأمة على النسبة العددية للأمة بجماء . ولها مجلس
شيوخ يمثل الأمة تمثيلاً ثلاثياً على نسبة متساوية للأقسام الثلاثة التى تتكون
منها الدولة من غير نظر إلى عدد سكان كل قسم على انفراد .

سكان ليبيا القدماء

تعاقبت على هذه المنطقة من ساحل الشمال الإفريقى التى تسمى الآن ليبيا أُمم مختلفة ودول كثيرة . وأقدم هذه الأُمم أمة البربر .

البربر

أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ فى الشمال الأفريقى

قال ابن خلدون : البربر بجيل من الآدميين سكان المغرب من القدم ، ملأوا البسائط والجبال من تلولة وأريافه وضواحيه وأمصاره ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ، ومن الخصاص والشجر ، ومن الأشعار والأوبار . ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة ، لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس . ومكاسيهم الشاء والبقر . والخيول فى الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم . شأنهم فى ذلك شأن العرب .

ومعاش المستضعفين منهم فى الفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعترزين من أهل الانتجاع والإظعان فى نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة . وأكثر أثاثهم من الصوف ويشتعلون المصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم فى الغالب حاسرة ، وربما يتعهدونها بالخلق . ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها ، وهى التى اختصوا لأجلها بهذا الاسم .

وما كان للبربر من الآثار تشهد أخباره كلها بأنهم جيل عزيز على الأيام ،
وأنهم قوم مرهوب جانبيهم ، شديد بأسهم ، كثير جمعهم ، مضاهون للأمم
العالم وأجياله من العرب والفرس والروم . اهـ

وكلمة بربر أطلقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة . فأطلقت
في عهد هوميرو على القبائل المحققة اللغة واللهجة حيثما وجدت . . .
وأطلقت في عهد هيرودوت على الأمم الغربية عن لغة اليونان وحضارتهم . .
وأطلقت في عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما . . . وأطلقها
العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة
ليست مفهومة للعرب ، والعرب يطلقون كلمة بربرة على الأصوات المتجمعة
غير المفهومة ، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى . . . وكانت مواطنهم من
الإسكندرية إلى بحر الظلمات ، ومن البحر الشامي إلى حدود السودان . وهم
في إفريقية — كما قال ابن خلدون — « من أزمدة لا يعرف أولها ولا ما قبلها ^(١) » وكل
ما قيل في تاريخ دخولهم إفريقية هو من قبيل التقريب ، وهو إلى التخمين أقرب .
وأصح ما قيل في أصولهم هو ما قاله ابن خلدون : « والحق الذي لا ينبغي
التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح . وأن اسم
أبيهم مازيغ . . . فلا يقعن في وهمك غير هذا فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه » .
ثم نقل عن جمهرة الأنساب لابن حزم ما نصه : « ادعت طوائف من
البربر أنهم من اليمن ومن حمير ، وبعضهم ينسب إلى بر بن قيس عيلان ،

(١) يقول المؤرخ التونسي الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب : أول من عرف البربر هم قدماء
المصريين في زمان الفراعنة ، وكانوا يعرفونهم باسم « الليبو » المشتق من نعت بلادهم ليبيا وذلك أن البربر
كانوا في سنى الحرب يشنون الغارة على ساحات وادى النيل الخصيبة وهذه الوسيلة احتكوا بالمدينة
المصرية ، واقتبسوا منها بعض أسباب الحضارة وشيئاً من العقائد والتقاليد التي انتشرت من هنالك في
الشمال بأسره .

ويفهم من كلام الأستاذ حسن حسني أن البربر هم الليبيون . وهذا رأى لبعض المؤرخين .
وهناك رأى آخر يقول إن البربر غير الليبيين ، وأنهم أقدم من الليبيين في الشمال الإفريقي .

وهذا كلام باطل لا شك فيه . وما علم النسابون لقيس عيلان ولداً اسمه برّ أصلاً . . . وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرخي اليمن .
وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت ، وأن جالوت من ولد قيس عيلان فأبعد عن الصواب : ذلك لأن قيس عيلان من ولد معد ، ومعد كان معاصراً لبختنصر ، فأخذه أرمياء النبي وذهب به إلى الشام خوفاً عليه من بختنصر حينما تسلط على العرب وكان يقتلهم . وبختنصر هو الذي هدم بيت المقدس بعد ما بناه داود بنحو أربعمائة وخمسين سنة ، وإذا كان جالوت قتله داود بنص القرآن « وقتل داود جالوت » فكيف يكون جالوت المعاصر لداود من ولد قيس عيلان الذي وجد بعد جالوت بنحو أربعمائة وخمسين سنة ؟ قال ابن حزم : هذا في غاية البعد ، وأظنها غفلة من ابن قتيبة وهو .
ثم قال ابن خلدون : ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة ، فإن بين نسابة العرب خلافاً فيهم ، والمشهور أنهم من اليمنية ، وأن إفريقيش لما غزا إفريقية أنزلهم بها .

وذكر ما يزعمه نسابة البربر : أن لواتة من حمير ، وهوارة من كندة من السكاسك ، وزناتة من التبايع ، أو من العمالة فروا أمام بني إسرائيل ، وغمارة وزواوة ومكالاته من حمير . . ثم عقب عليه بقوله : « وهذه كلها مزاعم . والحق الذي شهد به الموطن والعجمة ، أنهم بمعزل عن العرب ، إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة » . . ثم أبدى ابن خلدون رأيه فقال : وعندى أنهم من إخوانهم . والله أعلم — يعني إخوانهم البربر .

والمبائل التي ذكر بعض النسابة أنها من أصول عربية مثل كتامة وصنهاجة لا شك أنها تبررت بطول الزمن في لغتها وزياها وعاداتها ، لأنهم طرأوا على قبائل بربرية هي التي قال فيها ابن خلدون : « لا يعرف أولها ولا ما قبلها » ، فنسبتهم إلى العرب لا تعني أولية البربر في الشمال الإفريقي .

وكل ما جاء بعدهم من أمم إلى الشمال الإفريقي فإنما جاءوا من طريق

الغزو والفتح لا فرق في ذلك بين الفينيقين ، والروم ^(١) والوندال ، والعرب .

ديانة البربر :

كانت ديانتهم قبل الإسلام المجوسية وبعد ظهور المسيحية ^(٢) كانوا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم ، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم مثل حمير أبي القبائل اليمنية ، وإفريقش ابن صيفي من التباغة ، والفينيقيين وغيرهم ، فكان البربر في عهود هؤلاء المتغلبين يدينون بدينهم . وفي حوالي سنة ٥٧٦ م نجح البيزنطيون في قلب عقيدة الكثير منهم ، وأصبحوا مسيحيين .

ويظهر أن حكم هؤلاء المتغلبين كان قاصراً على الأمصار . قال ابن خلدون : وكان للبربر وراء هذه الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد ، وملوك ورؤساء ، وأقيال وأمراء ، لا يرامون بذلك . ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة اهـ .

وقد صبحهم الإسلام وحكام السواحل كلهم من الفرنجة ، وهم المستولون على مدن الساحل الإفريقي كلها .

وكان حكام ساحل إفريقية يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية وكان المتوقس صاحب مصر والإسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له أيضاً . وكذلك صاحب لبة وطرابلس ، وصبراتة وصقلية .

وقد أخذ البربر دين المسيحية قبل الإسلام عن الروم لأنهم كانوا مغلوبين لهم .

(١) جاء الروم إلى إفريقية مرتين : مرة قبل الوندال ومرة بعدهم .

(٢) أول ما ظهرت المسيحية في أوروبا كانت في إيطاليا زمن قسطنطين الأكبر حوالي

وكان الفرنجة هم الذين يلون أمر إفريقية ، ولم يكن للروم فيها شىء من ولاية ، وإنما كانوا جنداً للفرنجة وأعواناً ، ومن حشودهم . وما جاء فى كتب فتح إفريقية من ذكر الروم فن باب التغليب ، لأن العرب قبل فتح إفريقية لم يقاتلوا الفرنجة ، وإنما قاتلوا الروم فى الشام ، وعرفوهم فأطلقوا هذا اللفظ على فرنجة إفريقية^(١) .

وكان هرقل الرومى ملك النصرانية كلها لا فرق بين الرومى والفرنجى ، فظن العرب أن الروم هم الغالبون على أمم النصرانية فغلبوا اسمهم عليها ، ودرجت أخبار فتوحات العرب على ذلك . فجرجير صاحب سببيلة الذى قتل فى الفتح من الفرنجة . وكذلك الأمة التى كانت غالبية على البربر بإفريقية ونازلة مدنها وحصونها كانت من الفرنجة .

وكان جيش جرجير خليطاً من الفرنجة والروم والبربر .

وكلمة فرنجة يقصد منها الفرنسيين . . قال ابن خلدون : هذه الأمة المعروفة بالإفرنجة ، وتسميها العامة بالإفرنسيين نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة ، ما بين جزيرة الأندلس ومضيق قسنطينة ، أخذوا بدين النصرانية من الروم ، واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم ، وأجازوا البحر إلى إفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سببيلة ، وجالولاء ، وقرطاجنة وغيرها من الأمصار ، وغلبوا من كان بها من البربر حتى اتبعوهم على دينهم . . وجاء الفتح العربى فانتزع من أيديهم سائر أمصار إفريقية وإقريطش (جزيرة كريد) ومالطة وصقلية . واجتاز العرب خليج طنجة ، وغلبوا القوط والجلالقة ، والبشكنس ، وملكوا الأندلس ، وخرجوا منها إلى بسائط هؤلاء الفرنجة ، فدوخوها ، فلم تزل فى نفوسهم من ذلك ضغائن ، وكانوا يطمعون فى إرجاع ما غلبوا عليه . وكانت الحروب الصليبية نتيجة لهذه

الرغبة . وكان النصر الذي أحرزه صلاح الدين الأيوبي ثأراً لما أصاب المسلمين من هؤلاء الفرنجة . اهـ ملخصاً من ابن خلدون .

وقد دلت آثارهم ومدنهم الصحراوية القديمة على أنهم كانوا يميلون إلى إنشاء عواصمهم حول الجبال وما ورائها إلى الجنوب خوفاً من غزو أمم الشمال التي كانت تسكن جنوبي أوروبا على الساحل الشمالي للبحر الأبيض .

قال ابن خلدون : كان البربر قبل الإسلام أهل قوة وكثرة في إفريقية والمغرب . وكانوا يعطون الطاعة للفرنجة الذين كانوا يملكون المضواحي كلها . وعلى البربر مناصرة الفرنجة كلما احتاجوا إليهم . ولما دخل المسلمون إفريقية ناصروا جرجير عليهم . ولما قتل المسلمون جرجير تشتت شملهم وتعددت رياستهم . . وكان كُسيمة من أقوى رجالاتهم وأشدهم فالتفوا حوله . وهو من قبيلة أوربة البربرية اهـ .

ونقل ابن خلدون عن ابن أبي زيد أن البربر ارتدوا بإفريقية ثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ، وزحفوا في كلها على المسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير . ولما جاز إلى الأندلس أخذ معه بعضاً من رجالاتهم ليجاهدوا معه واستقروا هناك ، فاستقر الإسلام بالمغرب ، وأذعن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة . ثم سرت فيهم دعوة الخارجية ممن قدموا من العراق ، ووجدت من عامتهم صفاء فاعنتقوها وتعددت طوائفهم فيها وتشعبت طرقها إلى أن رسخت فيهم ، وتطاولت نفوسهم إلى الفتك بالعرب فقتلوا يزيد بن مسلم سنة ١٠٢ .

هواره :

ومن أشهر قبائلهم في طرابلس قبيلة هواره . وهي بطن من البرانس تنسب إلى هوار بن أوربغ بن برنس جلد البرانس . ومن بطون هواره غريان ،

وورفل ، وسراته وسلاته ، ومجريس .. (وسلاته ، وغريان ، ومجريس أبناء هوار) .
وكانت مواطنهم زمن الفتح حول طرابلس إلى ما يقارب سرت .
وإلى قصر ميمون من ناحية الجنوب . . وما زال وادى ميمون معروفاً إلى الآن
في أراضي ورفلة ، وبه آثار قصور ما زالت موجودة إلى الآن . . وكانوا طواعن
وأهلين . ومنهم من رحل إلى بلاد السودان ، وما زالوا يقال لهم هكار ، قلبت
العجمة واوها كافاً أعجمية تخرج بين الكاف والقاف العربيتين . وكان لهواة
ذكر في الردة ، وكانوا متعصبين للخوارج ، ثم اعتنقوا مذهب الإباضية
واستقروا عليه . . ثم غلبتهم العرب على أمرهم ، وتوزعتهم فيمن توزعوا للخدمة ،
وتملكوهم تملك العبيد للجباية منهم . . قال ابن خلدون : ثم جرت عليهم الدول
أذيالها ، وأناخت عليهم بكلاكلها ، ومنهم أوزاع في مصر متفرقون ، أوطنوها
أكرة وشاوية^(١) .

نفوسة :

ومن أشهر قبائلهم في طرابلس قبيلة نفوسة . وهي من البرابر البتر ، تنسب
إلى نفوس بن زحيك بن مادغيس ، وهو مادغيس الأبر جد البرابر البتر .
وكانت من أكبر قبائل البربر . ومن بطونها بنو زمور ، وبنو مكسورة .
وما طوسة . وكانت بطونهم بجهات طرابلس وما إليها — وما زالت جماعات منهم
كثيرة تسكن الجبل المعروف بهم إلى الآن (جبل نفوسة) وكانت مدينة
صبرة (صبراته) في مواطنهم وتنسب إليهم .

لواته :

ومن أشهر قبائلهم لواته . وكانت زمن الفتح العربي تسكن برقة . وهي من

(١) الاكرة : الذين يؤجرون أنفسهم للخدمة . والشاوية : الرعاة

أكبر بطون البربر البتر ينسبون إلى لُؤ الأصغر ، ابن لُؤ الأكبر ، ولو الأصغر هو نفزاو . والبربر إذا أرادوا العدموم في الجمع زادوا الألف والتاء فقالوا لُؤات ، فلما عربته العرب حملوه على الأفراد وألحقوا به الهاء^(١) .

زواغة :

ومن قبائلهم زواغة ، وهم من البرابر البتر ، وهم أوزاع في القبائل ، ومنهم جماعة بنواحي طرابلس . ومدينة زواغة ما زالت تعرف بهذا الاسم ، وهي غربي صبراتة بنحو عشرة كم . وقد خربت ولم يبق منها إلا أطلالها . ويسكن تلك الجهة الآن جماعات من العرب .

لحمية :

ومن قبائلهم لحمية ، وهي من البرابر البتر . وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط . ولما انتشر مذهب الإباضية في إفريقية . أخذوا به . . ولما البلاد المعروفة في طرابلس بين زنزور والزاوية مسماة باسمهم ، لأن جماعة منهم كانت تسكنها .

الفينيقيون

أمة عربية قديمة من الأصل السامي ، اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية . وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام . ومن أشهر مدنها صيدا ، وصور ، وطرابلس الشام ، وبيروت . وكانوا يترددون على الشمال الإفريقي

(١) من ابن خلدون

منذ القرن الثاني عشر ق م . وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كثيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التي تروج فيها . وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة في الدرجة الأولى من شئون حياتهم . ولا يبعد أن يكونوا هم النذين جاءوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية^(١) .

ولما مات ملكهم معطجين^(٢) ترك بنته عليصار وولده بيجماليون ، وكانت رغبته أن يشتركا في الملك بعده ، ولكن الأهالي ولوا عليهم بيجماليون ، وتركوا عليصار وكانت تسمى «ديدو» ، وكانت متزوجة من «طيخاربعل» رئيس حزب الأشراف ، فقتله أخوها «بيجماليون» بعد مدة من توليه الملك ، فاستأعت «ديدو» من عمل أخيها ، فثارت عليه لتخلعه من الملك ، ولكنه تغلب عليها فركبت البحر هاربة ، وأخذت معها جماعة من أكابر قومها حتى وصلت الشمال الإفريقي ، فسميت «ديدو الهربانة» .

قرطاجنة :

ولما وصلت «ديدو» الشمال الإفريقي نزلت إلى البر ، واشترت من البربر قطعة أرض ، وبنت عليها مدينة «قرطاجنة» (سنة ٨٤٠ ق م)^(٣) . ومعناها المدينة الجديدة . وهي من أعظم المدن التي عرفت في الشمال الإفريقي . . وتطلق قرطاجنة على ثلاث مدن : قرطاجنة إفريقية وهي أعظمها ، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق ، وقرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير بالأندلس .

(١) خلاصة تاريخ تونس

(٢) يقال إن هذا هو الملك الذي قال الله فيه «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا»

(٣) وقيل بنيت سنة ٨٨٠ ق م . وذكر بعض المؤرخين أنها بنيت في عهد بعاث ملك

يهودا سنة ٨٤٦ ق م . . .

نظام الحكم فيها :

وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهورى ، وكان يدير شؤون الحكم مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار . وكان لهم رئيسان ينتخبان فى كل سنة ، وديانتهم الوثنية ، وأكبر آلهتهم « بعل » .
ولما استقر ملك الفينيقيين فى شمالى إفريقيا ، وقوى سلطانهم فيها أخذوا يفكرون فى توسيع نفوذهم طمعاً فى الاستيلاء على البلاد كلها .. وفى سنة (٤٨٠ ق م) صاروا يغيرون على القبائل البربرية التى كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم ، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات ، كما شمل ساحل أوربا الجنوبي إلى جبل طارق الذى كان يسمى إذ ذاك أعمدة هرقل .

الروم

من الأمم التى سكنت الشمال الإفريقى الروم . وقد جاء فى كتاب « المسالك والممالك » : أول ما دخل البربر إفريقيا ملأوا سهولها وجبالها ، واضطر أهلها — وكانوا من الروم — إلى الجلاء إلى صقلية .. وهذا يفيد أن الروم وجدوا فى الشمال الإفريقى قبل البربر . ولا يستبعد هذا لقربهم من الشمال الإفريقى ، وإذا صح هذا فهو فى تاريخ غير معلوم البداية ولا النهاية ، لأن تاريخ وجود البربر فى إفريقيا غير معلوم البداية .. وإذا كان التاريخ لم يعين لنا فى هذا الدور زمن وجود الروم فى إفريقيا ، فقد عينه لنا فى عودتهم على أثر تغلبهم على القرطاجنيين . وذلك أن القرطاجنيين لما ملكوا إيطاليا الجنوبية أساءوا معاملة أهلها واستبدوا بهم ، فلم يطبقوا صبراً على هذا الاستبداد فحاربوهم ، ودامت الحرب بينهم أكثر من مائة سنة ، فقد وقعت بين الروم والقرطاجنيين

ثلاث حروب^(١) في المدة ما بين سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ ق م .
 الحرب الأولى ابتدأت من سنة ٢٦٤ ، وانتهت سنة ٢٤١ ق م . انهزم
 فيها الجيش الرومي بإفريقية . . وانهزم فيها الجيش القرطاجني بصقلية .
 الحرب الثانية ابتدأت سنة ٢١٨ ، وانتهت سنة ٢٠٢ ق م . انتصر فيها
 « حنبعل » القائد القرطاجني بإيطاليا في واقعة « كان^(٢) » ، وقتل فيها من
 الروم ما يربو على سبعين ألفا . وكانت سنة ٢١٦ ق م . وكان حنبعل من
 أكبر قواد القرطاجنيين ، وكاد يقضى في هذه المعركة على روما لولا تقاعس
 دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء . . .
 وانتصر عليه الروم في واقعة « جاما^(٣) » سنة ٢٠٢ ق م . ففر إلى الشام ومات
 بأنطاكية .

الحرب الثالثة ابتدأت سنة ١٤٩ وانتهت سنة ١٤٦ ق م ، ورجحت فيها
 كفة الروم على القرطاجنيين ، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم ،
 وانتهم البربر فرصة رجحان كفة الروم فانضموا إليهم بزعماء ما كسن البربري ،
 وكان ذلك نتيجة لما قاسوه من ظلم القرطاجنيين واستبدادهم بهم . . وكانت
 هذه الحرب القاضية على القرطاجنيين ، فملك الروم قرطاجنة ، وخربوها
 وأحرقوها بالنار ، وأصبحت أثراً بعد عين ، وكان ذلك سنة ١٤٦ ق م . .
 وزال ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة . واستولى الروم
 على جميع البلدان التي كانت تابعة لقرطاجنة ومن ضمنها طرابلس . . وهذا
 أول عهد الروم بالشمال الإفريقي فيما حدد التاريخ زمنه .

(١) تقسيم هذه الحروب منقول من خلاصة تاريخ تونس للعلامة حسن حسني عبد الوهاب
 التونسي .

(٢) بلدة غربي إيطاليا كانت تابعة لها . والآن تابعة لفرنسا وتقع في جنوبها .

(٣) قرية قرب مدينة الكاف غربي المملكة التونسية ، ويسمى الروم زاما .

الوندال

هم من الأصل الجرمانى «الألمان» ، زحفوا فى القرن الرابع الميلادى على أسبانيا فاحتلوها وأقامو بها دولة عظيمة ، وكانوا يسكنون فيما وراء جبل طارق الذى كان يسمى إذ ذاك «أعمدة هرقل» .

وسبب احتلالهم قرطاجنة أن ملك روما كانت تنوب عنه فى حكم إفريقية امرأة يقال لها «إيلاليديا» ومقر حكمها قرطاجنة ، وكان «بونيفاس» أحد ولاية الروم على إفريقية يطعن عليها ويهزأ بحكمها ، ولم تطق صبراً على معاكسته إياها . وفى سنة ٤٢٩ م^(١) أرادت أن تنتقم منه ، فشق عصا الطاعة على روما سنة ٤٢٧ م ، والتجأ إلى الوندال فى أسبانيا واستنجد عليها بملكهم «جنسريك» ، فلبى طلبه ، واجتاز من أسبانيا إلى المغرب ، واحتل مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى إلى أن احتل قرطاجنة سنة ٤٣٥ م^(٢) ، وقضى على ملك روما فى إفريقية^(٣) ، وجعل قرطاجنة عاصمة لمملكته الجديدة ، وأصبح الشمال الإفريقى كله ممتلكات وندالية بعد أن كانت رومية . وأحسن الوندال معاملة البربر فكانوا عوناً لهم على غيرهم .

واستفحل أمر «الوندال» فاحتلوا روما سنة ٤٥٥ م . وأطلقوا أيدي الجند فيها ١٥ يوماً فذهبوا كل ما فيها من ذخائر نفيسة . وعبثوا بالنظام الرومى فى إفريقية حتى قضوا على آثاره فيها .

وبعد أن مات «جنسريك» ملك الوندال سنة ٤٧٧ م تولى بعده ابنه «هنريق» ، وكان قاسياً على الكاثوليك . وفى سنة ٤٨٣ م قبض على خمسة آلاف من

(١) وقيل سنة ٤٢٧ م

(٢) وقيل سنة ٤٣٩ م

(٣) وفى أيام حكمهم الأول أيام قسطنطين الأكبر سنة ٣٣٠ م انتشرت الديانة المسيحية فى أوروبا وما اتصل بها

رهبانهم ، وشردهم في الصحراء ، واغتصب أموالهم وكنائسهم . وفي سنة ٥٢٣ م تولى على الوندال « هلدريك » ، وكان ضعيف الإرادة ، منحل العزيمة ، فخلعوه وولوا مكانه « جليمير » .

الروم مرة ثانية :

ولما خلع « هلدريك » استنجد بيوسنتيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه وكانت فرصة اغتصبها يوسنتيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما ، فأنجده وأعلن الحرب على الوندال . وهاجم « بيليساريوس » القائد الرومي قرطاجنة سنة ٥٣٤ م ، وأسر ملك الوندال « جليمير » واسترد جميع البلاد التي كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة « القسطنطينية » وزالت دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة . وأسس الروم على أطلال قرطاجنة الفينيقية قرطاجنة رومية ، وتألقوا في عمارتها وحضارتها ما شاء لهم الفن والعلم . وقد جلبوا إليها الماء من عين زغوان جنوبي تونس بنحو تسعين كم في ساقية بنيت على قناطر وحنايا وسدود ، أتقن صنعها على شكل هندسي في غاية القوة والإتقان ، يعملون بالمنخفض حتى يصل إلى المستوى المطلوب ، وينزلون بالمرتفع إلى حيث المستوى المطلوب .

وقد عنى الروم بتعمير إفريقية فجلبوا الماء إلى قرطاجنة وحفروا الآبار والصهاريج والمآجل وادخروا فيها ماء المطر للانتفاع به في الصيف ، وأسسوا فيها مدناً كثيرة ، وحسنوا مواصلاتها فأنشأوا طرقاً كثيرة ، ومنها طريق كان يصل بين طرابلس وعنابة ببلاد الجزائر ويمر بأكثر مدن الساحل .

وقد بلغ عدد سكان إفريقية في هذا العهد أربعة ملايين من النفوس ، وكان سكان قرطاجنة وحدها لا يقل عن خمسين ألفاً .

وقد عتوا بفن النحت فكان لهم السبق في صنع التماثيل الحجرية ، يدل

على هذا ما كشف عليه الحفر في مدينتي لبدة وصبراتة ، ومنها ما زال ماثلاً إلى اليوم في كبرزة .

ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل في الروم بسنة تقليده الضعيف للقوى ، واستحسان المغلوب ما عاياه الغالب من عادات وتقاليد ، ونسى بعضهم قوميتهم وعاداتهم ، وأصبحوا روما في كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم وبين الروم . وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب في الدولة ، فإن «سبتيم سيفاروس» - وهو بربرى الأصل - انتخبه الجنده إمبراطوراً لعرش الروم سنة ١٩٣ م ، ومات محارباً بإنجلترا سنة ٢١١ م وخلفه ابنه .

وكان هذا الاندماج في بربر السواحل وما قاربها ، أما البربر الذين يسكنون الجبال وما وراءها فقلبه احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم ، ولم يتأثروا بعادات الروم ، ولذلك نراهم كثيراً ما قاوموا الروم وحاولوا إجلاءهم عن وطنهم ، ولم يتركوا فرصة للثورة إلا ثاروا عليهم للتخلص من حكمهم .

وفي كل مرة احتلت فيها قرطاجنة كان السبب المباشر في التغلب عليها هو اختلاف الرؤساء ، وجور الحاكمين ، وتدمير السكان من الذل الذي كانوا يلاقونه من الطبقة الحاكمة .

وكانت طرابلس دائماً تابعة لقرطاجنة ، ومحط أساطيل الدول التي تغلبت عليها في هذه الحقب الطويلة والأزمان البعيدة ، وكانت قبل الفتح الإسلامي عامرة بالأشجار والبساتين والمزارع ، وصهاريج المياه ، والسدود التي في مجارى الأنهار لحبس المياه للانتفاع بها في الصيف ، والفساق ، والآبار المحفورة في الأرض ، والمآجل ، وما زالت آثار هذا العمران موجودة إلى الآن .

وبقيت إفريقية تحت ملوك الروم بالقسطنطينية إلى أن فتحها العرب سنة ٦٤٧ م فأجلوهم عنها . . ولأجل هذا نرى الطليان يقولون إن طرابلس بلدنا ، ولقد كذبوا على التاريخ وخالفوا الحقيقة ، فإن بلادهم الأصلية

هى روما وما حولها من بلاد شمال البحر الأبيض المتوسط . وإنما جاءوا إلى طرابلس فاتحين وأخذوها بالقوة من الفينيقيين والوندال ، كما أخذها منهم العرب فى الفتح الإسلامى بالقوة .

وكان من أهم أسباب انهيار الدولة الرومية هو ما سرى فيها من أنواع الترف والانحلال الخلقى والاختلافات الطائفية . وهذه العوامل ما فشت فى أمة إلا أدال الله منها ، وأزالتها من الوجود ، واستبدل بها أمة صالحة للبقاء ، وقد كانت هذه الأمة هى الأمة العربية والحمد لله .

فتح برقة (١)

كانت برقة قبل الفتح الإسلامي تابعة للإسكندرية تحت حكم الروم وكانت أخبار فتح العرب في مصر والإسكندرية قد انتشرت في كل البلاد المجاورة لهما . وقد اشتملت هذه الأخبار على ما أبداه العرب من شجاعة في مقاتلة العدو ، وعلى ما أظهروه من عدالة في أحكامهم ، ومساواة بين الناس في الحقوق ، واحترام معابد المسيحيين واليهود وأملاكهم وأعراضهم ، فكانت هذه الأخبار — من حيث شجاعة العرب وإقدامهم — مرهبة لسكان برقة ، ومثبطة لعزائمهم ، ومن حيث عدالتهم وحسن معاملتهم مطمئنة لنفوسهم ، وباعثاً للرجبة في التمتع بالحرية الإسلامية التي كانت مفقودة عندهم أيام الروم .

* * *

انتهى عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية في النصف الأخير من سبتمبر سنة ٦٤٢ م (٢) الموافق لذي القعدة سنة ٢١ هـ ، وسار بجيشه إلى برقة لفتحها ، فلم يحاربه أهلها ، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتبعوا بما فيه من حرية وعدالة — على حرب لا قلعة لهم عليها ، وطلبوا من عمرو الصلح فصالحهم على ثلاثة عشر ألف دينار فرعوني يدفعونها إليه جزية في كل سنة ، فكانوا يرسلونها إليه بدون أن يحجوه إلى جاني خراج يرسله إليهم .

(١) برقة : بفتح الباء والقاف غير مضافة . وهذا هو الفتح الأول في إفريقية

(٢) فتحت الإسكندرية عنوة . وجاء في كتاب عمرو يصفها إلى عمر بن الخطاب قوله : « إن فيها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى ، وأربعين ألف يهودي يؤدون الخراج » فرد عليه عمر بأن يمنع النهب ، ويحفظ غناها لبيت المال ونشر الإسلام ، (الوافي في المسألة الشرقية)

وجاء في رواية هذا الصلح : « على أن يبيعوا من أولادهم في جزيتهم » .
 ويفهم من هذه العبارة أن عمراً شرط عليهم ذلك في حالة العجز عن
 الدفع . . وهذا أمر غير مألوف عند العرب في فتوحاتهم . ولم يؤثر عن عمرو
 ولا غيره من قادة العرب أنهم شرطوا على المصالحين بيع أولادهم في دفع الجزية .
 ويظهر أن البربر هم الذين اشترطوه على أنفسهم تأكيداً للالتزام الوفاء ولو أدى
 ذلك إلى بيع أولادهم . وإلى هذا الرأي ذهب صاحب « فتح العرب
 للمغرب » . وذكر أن مثل هذا الالتزام كان متعارفاً في تلك العصور
 فقام نقل عن المستشرق « ديل روى » : « أن أهل كورسيكة كانوا يبيعون
 أبناءهم ليستطيعوا دفع الضرائب للحكومة البيزنطية » . ويظهر من هذا أن بيع
 الأولاد كان أمراً عادياً حتى سهل على البربر أن يشترطوه على أنفسهم لعمرو
 وكتب في الوثيقة على أنه التزام منهم لا شرطاً عليهم . وهذا هو ما يتفق مع
 ما اعتاده العرب في فتوحاتهم كلها .

والذي يتفق مع المنطق المعقول أن الذي يهزم العرب إنما هو دفع الجزية .
 أما الطرق التي يتوصل بها المصالحون إلى تحصيلها فهي موكولة إليهم .
 وتم فتح برقة سنة ٢١ هـ . وفي بعض الروايات أن برقة فتحت سنة ٢٢ هـ .
 وقد يكون هذا التاريخ أقرب إلى الصحة لأنه من المعقول أن يبقى عمرو في
 الإسكندرية بعد التغلب عليها حتى تستقر الأمور ويأمن الثورة . وإذا قُدرنا
 أن المسافة بين الإسكندرية وبرقة لا تقل عن عشرين يوماً على أقل تقدير
 اتضح لنا أن المدة الباقية من شهر ذي القعدة وذى الحجة لا تكفي لاستقرار
 الأمور في الإسكندرية ، لذلك يبدو أن القول بفتحها سنة ٢٢ هـ أقرب إلى
 الصحة .

وكانت « برقة قبل الفتح الإسلامي تسمى « أنطابلس » وهي كلمة رومية
 معناها بالعربية « خمس مدن » وهذه المدن هي : « طوشيرا » ، وسميت فيما
 بعد « أوسينولى » . واسمها عند العرب الآن طوكرة . . و « سيرين » ، أو

قورين . واسمها الآن قرنة ، أو شحات . . « وبرنيق » . وقد بنيت على بعض أنقاضها بنى غازى . . « وأبولونيا » ، واسمها الآن سوسة . . « وبارش » ، وسميت فيما بعد أبطلونيائيس ، واسمها الآن المرج . . . وهى مدن قديمة أسسها اليونان فى أزمان مختلفة وكانت موجودة قبل الفتح الإسلامى ، وكان لها شأن فى التاريخ القديم ، وما زالت معروفة إلى الآن ، وقد أدخل العرب على بعض الأسماء شيئاً من التغيير ليسهل عليهم النطق بها .

وقد خرب العرب أسوار هذه المدن لأغراض حربية وهى الخوف من ارتداد أهلها ومحاربة العرب من وراء الأسوار . ولهذا الغرض نفسه رأينا فى هذا العصر الحديث أن الفرنجة كلما احتلوا بلداً من بلاد العرب ، فأول ما يضعون أيديهم على الحصون وعلى المواقع الحربية ، وكل ما يمكن التحصن به من هجومهم ، ووضعوا فيه من الجند والمدافع ما يمكنهم من صد أى هجوم عربى . وإذا كان المستعمرون الآن عندهم من الجيوش ما يمكن توزيعه على القلاع والحصون ، ومع ذلك فأول ما يبادرون بالاستيلاء على الحصون ومواقع الدفاع ، فإن العرب لم تكن جيوشهم فى بادئ الأمر من الكثرة بحيث تمكنهم من هذا ، لذلك كانوا يضطرون إلى هدم أسوار المدن التى كانوا يفتحونها ، ثم يتركونها ويذهبون إلى غيرها .

وفكرة هدم أسوار المدن المحتلة وحصونها فكرة حربية قديمة يعتبرها الغزاة من أقوى أسلحة الهجوم ، كما أن إقامة الحصون والأسوار يعتبرها المدافعون من أقوى أسلحة الدفاع . وما زالت هذه التمرة متبعة الآن فى عصر الذرة والطائرات . وفى هذا الدور من فتوحات العرب لم يتخذوا عاصمة فى برقة ، بل ولا فى غيرها . وفى القرن الثامن م بنوا مدينة المرج وجعلوها عاصمة برقة ، وما زالت إلى الآن عاصمة الجبل الأخضر ، وهى تقع فى الجنوب الشرقى من مدينة بنى غازى بنحو مائة كم . وكان من عادات العرب أنهم يبنون عواصم البلاد التى يفتحونها بعيدة عن البحر خوفاً من غزو الفرنجة ، وأيضاً لأنها تكون أقرب

لأهل النجعة منهم إلى مراعى حيواناتهم ومنابت زروعهم .
وأطلق العرب كلمة القيروان على قورين . ومن أجل هذا رأينا الطليان كثيراً ما يطلقون كلمة قيروان على هذه الناحية ، كما أطلقوا كلمة برقة على ما يشمل قصور حسان في سرت . وقد استقرت الأمور على أن يكون الحد الفاصل بين برقة وطرابلس هو المقطاع أو عين الكبريت حيث بنى الطليان قوساً هناك وجعلوه حياً فاصلاً بين طرابلس وبرقة .

وعاصمة برقة الآن بنى غازى ، وقد بنيت على جزء من مدينة برنيق القديمة . ومن أشهر مدن برقة - بعد بنى غازى - درنة ، وهى مدينة على الطراز العربى ، بنيت على مكان مدينة درنيس القديمة . وكانت غير مسورة ، وبعد الاحتلال الإيطالى أحاطوها بسور من الناحية الغربية .

ويشقها نهر يجرى ماؤه دائماً من الجنوب إلى الشمال ويتبدى جريانه من وادى الضحاك بقرب الظاهر الأحمر وكلما انحدر إلى الشمال أضيفت إليه عيون أخرى إلى أن يمر بعين منصور قرب المدينة ، وهى من أكبر العيون التى تملكها هذا النهر .

ويوزع ماؤه على بساتين وبيوت المدينة ، وما من بيت إلا وبه بستان يحتوى على كثير من أشجار الفاكهة من البرتقال والعنب ، ويضرب المثل برمانها وموزها فى الجودة . . وأكثر سكان المدينة من أصول طرابلسية هاجروا إليها من طرابلس ، وما زالوا ينتسبون إلى أسرهم الطرابلسية : مصراته ، وورفلة ، وتاجورة وغيرها .

وقد اشتهرت أراضي برقة بالخصب منذ القدم ، وإذا قدر لها من الأيدي العامة ما يكفي لإصلاحها فستكون مصدراً للثروة لا ينضب .

فتح زويلة^(١)

زويلة مدينة من مدن فزان القديمة ، وتقع في الجنوب الشرقي من مرزق بنحو ١٥٠ كم ، وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقي بنحو ٧٧٠ كم ويعبر عنها بعض المؤرخين بزويلة السودان احترازاً عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بقرب تونس . : وكانت زمن الفتح الإسلامي عاصمة فزان بدل مرزق . . وسميت زويلة بعد الفتح الإسلامي بلاء الأشراف ، كما سميت زويلة بني خطاب ، لأن بني خطاب البرابرة أقاموا فيها ، وأسسوا فيها حكومة ، وسيأتي الكلام عليها . وبقر زويلة من الجهة الشرقية كثير من قبور الشهداء الذين استشهدوا في فتحها . ويسمى بها السكان قبور الصحابة . ولما كان عمرو بن العاص في برقة ، وقبل أن يتوجه إلى طرابلس ، أرسل إليها جيشاً من المسلمين بقيادة عقبة بن نافع ، فسار في الجنوب الغربي حتى وصلها وتم فتحها على يديه سنة ٢٢ هـ ، وفرض على أهلها ٣٠٠ رأس من العبيد . قال في (المسالك والممالك) : « إنها ليست بجزية ولا خراج » .

وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة يخبره بأنه قد ولي عقبة بن نافع المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن ما بين زويلة وبرقة أصبح سلباً ، وقد حصنت طاعتهم ، وأدى مسلمهم الصداقة ، وأقر معاهداهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينها وبين برقة ما رأى أنهم يطيقونه وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصداقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء يأخذوا

(١) بفتح الزاى وكسر الواو .

الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر أو نصف العشر^(١) ، ومن أهل الصلح ما صالحهم عليه .

وليس في جواب عمرو ما يدعو إلى الشك الذي وقع فيه صاحب «فتح العرب للمغرب» لأن عمرا كان عنده من الوقت ما يمكنه من تطبيق نظام الزكاة في برقة ، وبعد فتح زويلة أصبح ما بينها وبين برقة سلباً . وفرض عليهم عقبة ما يطبقونه وهو ثلاثمائة رأس من العبيد . وقد طبق في كل بلد ما يتفق مع وضعها مما جاء في كتاب عمرو ، فلا داعي للشك ، ولا يوجد ما يمنع الحقيقة .

سار عمرو إلى طرابلس على طريق الساحل ، وهو آمن أن يؤتى من الجنوب لوجود عقبة في الجنوب ، كما أمن عقبة أن يؤتى من الخلف أو الشمال لوجود عمرو في الشمال . وقد خلف كل منهما برقة ، وقد عقبوا معها الصلح وأصبحوا معها في أمان . وهي خطة حربية حكيمة دلت على مهارة عمرو وعلمه بقيادة الحروب .

ويظهر أن عقبة لم يمر في طريقه إلى زويلة ببلاد وادن ، لأنه سيأتي أن عمراً أرسل إلى ودان بـسّر بن أبي أرتاة لفتحها . . إذاً فمن المحقق أن عقبة أغدّ في السير إلى زويلة وخلف بلاد ودان عن يمينه ، وأن عمراً لم يأمره بفتحها حتى اضطر عمرو إلى أن يرسل إليها بعثاً آخر وهو يحاصر طرابلس لئلا تكون شوكة في ظهره ، ولئلا تقطع الطريق على عقبة إذا رجع من فتح زويلة . وسار عمرو إلى طرابلس ، وفي طريقه إليها مر بسّرت ففتحها .

(١) الزرع الذي يسقى بالآلات وفي سقيه مشقة زكاته نصف العشر ، والزرع الذي يسقى بالمطر ، أو بما لا مشقة فيه فزكاته العشر .

مدينة سرت

سرت بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن^(١) . وهي تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو ٤ كم . وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٥٥٤ كم ، وكانت محاطة بسور من التراب . وهي غير سرت المعروفة الآن ، لأن سرت هذه أنشئت في العهد التركي ١٣٠٣ هـ .

وقد ذكر العياشي في رحلته ما يقرب من تحديد مكانها فقال :

مررنا بالزعفران ، وهو أحساء على ساحل البحر ماؤها عذب ، وإلى جنوبه كثبان من الرمل الأحمر تظهر من بعيد ، ومن وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت وهي ثلاثة قصور يخزن فيها العرب ما ثقل حمله . ١ هـ .

والمفهوم من كلام العياشي أنها تسامت الزعفران من الجنوب . والزعفران ما زال معروفاً إلى الآن سنة ١٣٧٣ ورحلة العياشي كانت سنة ١٠٧٢ وعاد منها سنة ١٠٧٤ .

ونقل في حقائق الأخبار عن البكري أن سكان مدينة سرت (القداماء) ، كانت لهم رطانة يتفاهمون بها ، ليست بعربية ولا قبطية ، ولا بربرية ، ولا عجمية وقد تكون هذه اللهجة سودانية سرت إليهم من السودان لكثرة الاتصال بهم بسبب التجارة .

(١) يبتدئ امتداد خليج سرت من مدينة مصراته ، إلى الجنوب حتى بويرات الحسون . ثم يتجه شرقاً إلى العقيلة على مسافة ٥٨٥ كم من مصراته ثم يتقوس إلى الشمال حتى مدينة بنى غازى ، مسافة ٢٨٥ كم ومدينة بنى غازى في الشرق تقابلها مدينة مصراته في الغرب ، ويقع خليج سرت جنوبى الخط الاعتبارى الذى يصل بين المدينتين

فتح مدينة سرت

مر بها عمرو في طريقه إلى طرابلس ففتحها ، ولم يجد عناء في فتحها ، ولم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحاً ، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر ، فاكتفى منها المسلمون بالاستسلام ، وساروا في طريقهم إلى طرابلس ، ومروا في طريقهم إليها ببلدة .

بلدة (١)

كانت منطقة بلدة موطناً لجماعات بشرية في عصور ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك ، بعض حجارة وجدت على ضفاف وادي الرملة ، وقد أسس بها الفينيقيون المراكز الأولى للبلدة وصبراته .

ولدت مدينة عظيمة من مدن الشمال الإفريقي الكبرى ، أسسها الفينيقيون في أوائل القرن العاشر ق م . عند بداية استعمارهم إفريقية . وهذا التاريخ يقرب من تاريخ إنشاء قرطاجنة . وكانت معروفة عند القرطاجنيين باسم « لبكى » ، وقد حرفها اليونانيون إلى « لبشس » . وبقيت هذه الكلمة مستعملة إلى القرن الثالث ق م . ثم حرفت في اللغة اليونانية من « لبشس » إلى « لبس » بسهولة النطق في اللغة اليونانية بكلمة « لبس » عن « لبشس » . . وبما أن « لبس » اسم لمدينة في « بيزاشينا » (٢) خافوا أن يحصل التباس بين المدينتين ، فأضافوا إلى لبس الإفريقية كلمة « مانيا » ، فصارت « لبس مانيا » ومعناها لبنة العظيمة ، أو لبنة الكبيرة .

(١) ملخص مما ترجمه ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشقي من دائرة المعارف الإيطالية

(٢) لعلها من البلاد اليونانية

وقد استطاع الفينيقيون أن يحدروا البلاد بسرعة نظراً لخصوبة أرضها ، واعتمادال مناخها وصلاحيته للسكنى ، ولأن لها ميناء مأموناً وصالحاً للملاحة ولوقوعها على نهريْن كعام^(١) ، الذى يقع شرقها بقليل . . وبما زاد فى سرعة عمرانها العلاقات الطيبة التى نشأت بين السكان والفينيقيين نتيجة لحسن معاملتهم لهم^(٢) . وذكر هيرودوت واقعة كبيرة وقعت عند مصب « شنبس » وادى عين كعام . ويستنبط بعض المؤرخين أن هذه الواقعة كان لها أثر سيئ فى تأخر لبدة وتدهور حضارتها . . وقام اعتراها الانحطاط فى أواخر القرن السادس ق م وفى هذا الوقت حاولت عصابة من اليونان برياسة الإسبرطى ديور أن تنشئ مستعمرة عند مصب نهر « شنبس » نهر عين كعام ، منتبهة فرصة ما اعترى لبدة من التأخر والانحطاط ، وقد تم لها ما أرادت .

وكانت تقصده إلى أن تحل محل الفينيقيين فى هذه المنطقة . ولكن القرطاجنيين خافوا تسرب نفوذ اليونان غربى سرت فلم يلبثوا أن هاجموها وخربوا مستعمرتها وطردوها هى ومن معها ، ولم يمكنوها من الرجوع مرة أخرى . واستولوا على لبدة وما حولها ، وأعادوا إليها ما فقدت من عمرانها وحضاراتها^(٣) .

وتوطد ملك القرطاجنيين فيما بين سرت الكبير وسرت الصغير ، وأطلق على هذه المنطقة اسم « أمبوريا » ، وصارت جزءاً من أملاك الأمبراطورية القرطاجنية ، وبقيت لبدة المركز الرئيسى للمنطقة فيما بين السرتين ، وتتمتع باستقلال داخلى . . وبقيت تحت حكم القرطاجنيين إلى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد .

وفى أوائل هذا القرن أصبحت تابعة للنوميديين فى الفترة ما بين الحريين

(١) كان يسمى نهر « شنبس »

(٢) لم نطلع على ما كان بينها وبين المدن الإفريقية من علاقات .

(٣) يظهر أن اليونانيين جاءوا إلى لبدة من برقة ، وقد ترتب على تغلب القرطاجنيين على اليونان أن أقيمت الحدود بين مملكة قرطاجنة واليونان فى برقة .

القرطاجنيين الثانية سنة ٢١٨ ، والثالثة سنة ١٤٩ . وكانت تبعيتها للنوميديين شكلية لأنها كانت مقصورة على دفع الجزية .

وفي سنة ١١١ ق م أرسلت وفداً إلى روما طالبة صداقتها والتحالف معها للتخلص من حكم النوميديين . وفي سنة ١٠٧ ق م . أمدها روما بأربع كتائب من الجنود لمحاربة النوميديين . ويظهر أنها لم يمكنها التغلب عليهم ، وبقيت تحت سيادتهم الإسمية متمعة باستقلالها الداخلي إلى أن احتلها الروم سنة ٤٢ ق م ، وانتهى حكم النوميديين .

وبدخولها تحت الروم صارت جزءاً من إفريقية . هذا بالنسبة للسواحل أما البوادر فبقيت تحت سلطة حاكم من نوميديا حتى أوائل القرن الثالث م حيث أقيم خط دفاع ضد سكان الجنوب ، وسموه « ليمس تريبوليتانوس » .

وقد تعرضت لبدة لغارات الجرمنيين فيما بين سنتي ٢٤ و ١٧ ق م ، واستعانوا بقبائل أخرى من الجنوب ، وذلك بسبب نزاع قام بينها وبين « أويا » طرابلس الآن بسبب اختطاف الماشية ، والتعدي على بعض الأشخاص ، فاستنجدت « أويا » ، طرابلس بالجرمنيين وبعض قبائل الجنوب ، فحفنوا لنجدتها ، وهاجموا لبدة فغلبوا عليها ، وخرّبوا ضواحيها ، واضطر السكان إلى الاحتماء بأسوار المدينة حتى أدركهم « فاليريو فيستو » بجيشه وطردهم الجرمنيين ، وأعاد إلى المدينة طمأنينتها وما فقدته من أهمية كانت تتمتع بها كمحطة للقوافل التي كانت تصل ساحل البحر الأبيض بالجنوب والسودان .

وفي سنة ١٤٦ م ظهر في لبدة « ستيميو سيفير » وهو من إحدى الأسر الكريمة فيها ، فتولى عرشها ، فعنى بشؤونها ، ونشر فيها العلم والأمن ، وأمعن في مطاردة المعتدين عليها من قبائل الجنوب حتى أقصاهم عنها . وعنى برفقها الداخلي ، فوفر لها سبل الحياة الصالحة بما أنشأ فيها من وسائل العمران والتقدم . . وتقديراً لأعمال هذا الرجل المصلح واعترافاً بإخلاصه أطلق السكان على أنفسهم اسم الستيميين تيمناً باسم ستيميو ، واشتهروا بذلك .

وفي القرن الثالث الميلادي - زمن الإمبراطور سيثيروس سيبتييموس ، من سنة ١٩٣ إلى ٢١١ م . وزمن ألكسندر سيثيروس^(١) من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٣٥ م ، بلغت لبدة مبلغاً عظيماً في الحضارة والتقدم العمراني . وفي هذا العصر كان سكانها خليطاً من القرطاجنيين والروم واليونان والليبيين ، وبلغ عددهم ثمانين ألفاً . وكانت أويا « طرابلس » في هذا العهد لم تبلغ شاواً يمكنها من مزاحمة لبدة في النفوذ والسلطان .

وفي القرن الرابع أصدر دقيانوس أمره بإعطاء أويا لقب ولاية . وكانت لبدة لها الصدارة ، فأخذت أويا تزاحمها في صدارتها ومكانتها .

وفيما بين سنتي ٣٦٣ ، ٣٦٦ من القرن الرابع م . اعتدى الاسطريانيون على ولاية لبدة فألقوا بها أضراراً بالغة^(٢) ، وخصوصاً بالمدينة حتى ساءت أحوالها وأخذت في الانحطاط حتى طمع فيها الوندال .

وفي سنة ٤٥٥ م احتلها الوندال^(٣) ، ولكنهم لم يعنوا بها وتركوها للفوضى ، وامتدت إليها يد النهب والسلب من القبائل البربرية المقيمة في المدينة وحولها ، وأكبرها قبيلة «لواته»^(٤) . وفي هذه الفترة أصيبت بفيضان كبير من وادي عين كعام فتحطم الجسور والأسوار ، وكان له أسوأ الأثر في شل الأيدي العاملة ، وتسرب اليأس إلى النفوس من القدرة على الإصلاح . فأهمل شأنها ، وزحفت الرمال عليها ، ودبت روح التمرد في القبائل القاطنة حولها . ولم تأت سنة ٥٣٣ م

(١) ولد في طرابلس ، وعنى برق المدن الثلاث ، فكانت تأتيا القوافل المشحونة بالهراج والذهب ، وخشب الأبانوس ، وريش النعام والعبيد . وكانت هذه البضائع تصدر من موانئ المدن الثلاث إلى أسواق روما وجنوبي أوربا . وكان زيتونها خير ما ينتج في حوض البحر الأبيض المتوسط . (٢) وفي بعض الكتب أن قبيلة بربرية خربت أويا سنة ٣٧٠ م ، وهذا يوافق زمن احتلال الروم الأول لقرطاجنة .

(٣) يلاحظ أن الوندال احتلوا قرطاجنة سنة ٤٣٥ م . وجاء في كتاب جوزيف كاكيا عن طرابلس : أن الوندال احتلوا قرطاجنة سنة ٤٢٩ م ، وهذا يخالف ما نقلناه عن دائرة المعارف الإيطالية . واحتلوا صقلية سنة ٤٤٠ م ، وروما سنة ٤٥٥ م ، ومالطة سنة ٤٥٦ م .

(٤) كان الوندال ولواتة كل منهما يناصر الآخر .

حتى حولت هذه القبائل الفوضوية المدينة إلى خراب ، وطمع البيزنطيون في احتلالها .

وفي سنة ٥٣٣ م احتل البيزنطيون لبدة . وكان احتلالهم لها بداية عهد جديد لعمرائها واسترداد بعض ما فقدت من حضارتها واتخذت مقراً للحاكم العسكري . وقد أصلح جوستينيان كثيراً مما امتدت إليه أيدي الفساد في العهد الذي قبله . وأدخل عليها الروم من فنون العمارة والزخرفة ما زاد في ضخامتها وجعلها . يشهد بذلك ما اكتشف من آثارها الجميلة زمن الاحتلال الإيطالي من سنة ١٩١١ إلى أواخر سنة ١٩٤٢ .

ولكن اللواتين دأبوا على الثورة والتخريب ، ولم يخضعوا لما أقيم في لبدة من حكم وانتهى الأمر بانسحاب حاكم البلد « سيرجو » منها .

وبعد جوستينيان أخذت البلاد في الانحطاط ، والسير إلى الخراب بخطى واسعة .

وفي سنة ٦٤٣ م وصلت إليها طلائع العرب الأولى للفتح الإسلامي ، فلم تجد في لبدة من العمران إلا بقايا من قصورها العظيمة ودورها الفخمة ، وإلا بقايا من السكان خليطاً من أجناس متعددة يعيشون فيما بقي من خرائب دورها وقصورها . وقد مر بهم العرب الفاتحون في ذهابهم وإيابهم ، فلم يكن لهم معهم شأن ، نتيجة لما هم فيه من ضعف واستكانة ، وفقر مدقع .

وقد أتت الكاهنة على ما بقي فيها قابلاً للإصلاح ، كما أتت على عمران غيرها من مدن إفريقية .

وتقع لبدة شرق مدينة طرابلس بنحو تسعين كم ، وقد أكل البحر جزءاً كبيراً منها . وبنيت مدينة الخمس في أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأنقاضها .

ولما بنى مراد أغا جامعته الذي بتاجورة نقل إليه منها أعمدة الرخام التي أقامه عليها . وكثيراً ما نقلت منها أعمدة الرخام للجوامع .

فتح لبدة

مر بها المسلمون فوجدوها خراباً مهتمة ، وحواليها قليل من السكان خليطاً
من البربر والروم ، ولم ينقل أحد من المؤرخين أنهم وجدوا فيها أى مقاومة .
وواصلوا سيرهم إلى طرابلس .

طرابلس الغرب نبذة من تاريخها القديم

طرابلس مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال ، أو قرطاجنية .
وفي حوالى سنة ٧٩٥ ق م ، شمل النفوذ القرطاجنى ما بين خليج قابس
وخليج سرت ، وأسسوا موانى صبراته ، وأويا ، وليتس مانيا ، وربطت هذه
المنطقة مع إفريقية بطرق القوافل ، ومع قرطاجنة بطريق ساحلى يبلغ طوله
٥١٢ ميلا .

والثابت أنها أنشئت بعد صبراته ولبدة ، ولم يعين أحد زمن إنشائها وكانت
أقل منهما أهمية ، وكانت تسمى « أويا ^(١) » .
وفما بين سنتى ٢٤ ، ١٧ ق م حصلت فتنة بين لبدة « وأويا » طرابلس
بسبب نهب بعض الماشية ، فأرسلت لبدة رسلا إلى « أويا » ، طرابلس للتفاهم
وإزالة الخلاف ، فاعتمدوا عليهم ، وازدادت الفتنة حتى انقلبت إلى حرب بين
الطرفين .

وكان الجرمتيون إذ ذاك يسكنون فزان ، وكان لسكان أويا صلة بهم
فاستنجدت أويا بالجرميتين وبعض سكان الجنوب على لبدة ، فأنجدها
وهاجموا لبدة فتغلبوا عليها ، وخرّبوا ضواحيها ، والتجأ السكان إلى المدينة ،

(١) ذكر بعض المؤرخين أن اسمها « أوايات » ويظهر أنه اسم بربرى حرفه الروم إلى
« أوا » ، وأن أوا كانت مدينة قديمة ، فخربت وبنيت على أنقاضها مدينة طرابلس الآن .
وذكرت فى دائرة المعارف الإيطالية باسم « أويا » فكتبناها كما جاءت فيها . . . وذكر فى بعض
المصادر أن اسمها « أناس » ولا أعلم مبلغ صحته .

فدافع عنها « فاليريوفيستو » وطرد الجرمنيتين^(١) .

وفي أوائل القرن الثالث الميلادى أقيم خط دفاعى ضد الهجوم من قبائل الجنوب وسمى هذا الخط « ليمس تريبوليتانوس » ، ومنذ ذلك الحين أطلق اسم « تريبوليتانوس » على المنطقة الواقعة بين السرتين : السرت الكبير وهو خليج سرت ، والسرت الصغير وهو خليج قابس . .

وكلمة « تريبوليتانوس » تفيد معنى « إقليم المدن الثلاث » ، وهى لبلدة ، وطرابلس ، وصبراتة . ومع طول الزمن وكثرة الاستعمال اختصرت إلى تريبولى ، ومعناها أيضاً المدن الثلاث ، لأن كلمة « ترى » معناها ثلاثة ، وكلمة « بولى » معناها مدينة .

ومما يدل على أن كلمة تريبولى تشمل الإقليم كله أن الطليان بعد احتلالهم طرابلس سنة ١٩١١ ، كانوا يسمون كل مدينة باسمها ، فيقولون لبّيس ، وصبراتة ، وأويا .

وكانت أويا فى منتصف القرن الثالث الميلادى مركزاً دينياً مسيحياً .

وفى العهد الرومى ، وقبل عهد دقيانوس كان نظام الحكم فى المنطقة الواقعة بين السرتين أن يكون فيها نائب للملك ، وحارس على أموال الإمبراطورية . وفى القرن الرابع الميلادى أصدر دقيانوس أمره بإعطاء « أويا » طرابلس ، لقب ولاية وأصبحت عاصمة المنطقة كلها . ومن ذلك الحين أخذت تزاحم

(١) الجرمنيتون : سكان جرما عاصمة فزان إذ ذاك ، وما زالت آثارها موجودة (انظر فزان) وقد أطلقت دائرة المعارف الإيطالية على الجرمنيتين كلمة بربر ، ولا ندرى هل هم من البربر حقيقة ، لأن البربر كانوا موجودين فى إفريقية إذ ذاك ، أو لأنهم كانوا يطلقون كلمة بربر على القبائل الهمجية فأطلقت عليهم همجيتهم

ويلاحظ أن الصلة بين طرابلس وفزان كانت موجودة من قبل الميلاد ، وقد تطورت هذه الصلة مع الزمن حتى أصبحت فزان تابعة لطرابلس . واستمرت هذه التبعية زمناً طويلاً قبل العهد التركى ، وطول العهد التركى ، وأيام الاحتلال الإيطالى . وهذا مما يدحض أكاذيب الفرنسيين من أن فزان تعتبر امتداداً للقطر التونسى فهى تابعة لتونس . وهذا كذب على التاريخ ، وإخفاء للحقيقة لإشباع الرغبة الاستعمارية التى أنست المستعمرين كل صفات الإنسانية التى تميزهم عن البهائم ووحوش الصحراء .

لبدة فيما كان لها من الصدارة ، وما كانت تمتاز به من الأهمية التجارية والعمرانية . وقد شجع « أويا » طرابلس ، على هذه المزاحمة ما أحاط بلبدة من ظروف التأخر والانحطاط بسبب ثورات بربر لواته وأنصارهم . وفي زمن دقيانوس كان لهذه المنطقة حكومة إقليمية مستقلة لها حاكم مدني وحاكم عسكري .

* * *

ذكرنا فيما تقدم أن الفينيقيون هم أول من أسس مدينة طرابلس في زمن غير معين ، إلا أنهم لم يحيطوها بسور . ولما احتل الروم الشمال الإفريقي ، وتولى أسفاروس قيصر (أحد قياصرة الروم) أحاطها بسور من الشرق ، والغرب والجنوب (١) . . . وعلى الرغم من أنها إحدى المدن الثلاث التي أطلق عليها الروم كلمة تريبولي فإنها لم يكن لها من أبهة المدن وعظمتها ما كان للبدة ، وصبراته ، لا في الاتساع ، ولا في ضخامة البناء ، ولا في الزخرفة والفن المعماري . وكانت في زمن قرطاجنة مشمولة بنفوذها دائماً ، وكل دولة تستولى على قرطاجنة تستولى على طرابلس .

وكانت طرابلس زمن الفتح الإسلامي تابعة لدولة الروم بالقسطنطينية التي كانت تسمى بيزنطية (٢) ، وكانت ولاية واحدة مع برقة تابعة لمصر . . ويقول بعض المؤرخين إنها كانت تابعة لجرجير حاكم سبيطلة . ولكن مؤخراً واحداً ممن اطلعت على كتبهم لم يذكر أن جرجير حاول الدفاع عنها من غزو العرب بأي وسيلة ، بل ولا عن صبراته وشروس . وانتهى عمرو بن العاص من فتح منطقة تريبولي كلها ، وجرجير قابع في سبيطلة لم يحرك ساكناً وهذا يدل على أنها لم تكن تابعة له ، وإنما كانت تابعة لنفوذ مصر كما قدمنا .

(١) أكله هرثمة بن أعين من الشمال سنة ١٧٩ هـ

(٢) انقسمت دولة الروم سنة ٣٩٥ م إلى قسمين : غربية وعاصمتها روما ، وشرقية وعاصمتها

بيزنطة (القسطنطينية)

وفي زمن الفتح الإسلامي كان أكثر سكان المدينة الروم الذين نسميهم
الآن الطليان ، أما خارج السور إلى فزان فكان يسكنه قبيلة هواره ، وغيرها
من قبائل البربر ، وتسكن نفوسه الجبل ، وتسكن لواتة برقة وسرت مما جعلهم
يغيرون على لبدّة .

فتح طرابلس

لما انتهى عمرو من فتح برقة سار في طريقه إلى أن وصل طرابلس ، ولما وصلها ، قال ابن عبد الحكم : نزل على القبة التي على الشرف من شرقيها . ولا شك أن ابن عبد الحكم يقصد قبة الشيخ عبد الله الشعاب المعروفة الآن ، لأن الشيخ الشعاب توفي سنة ٢٤٣ هـ . وابن عبد الحكم ألف كتابه في النصف الأول من القرن الثالث ، وتوفي سنة ٢٥٧ بعد وفاة الشيخ الشعاب بأربع عشرة سنة ، فمن المعقول أنه روى عن أخبره بوجود القبة في مكان مرتفع كما هو الواقع ، فنقل هذه الرواية الصحيحة كما هو مشهور عنه في دقة النقل .

ولما حاصرها المسلمون امتنع أهلها عن التسليم ، وتحصنوا داخل السور . ويقول صاحب البيان المغرب : إن سكانها استنجدوا بسكان جبل نفوسة ، لأنهم اعتنقوا النصرانية تبعاً للروم النادين كانوا يحكمونهم . ولو صح هذا الاستنجد لوجد العرب مقاومة من قبيلة نفوسة التي جاءت من الجبل لنجدة من بداخل السور ، ولكن واحداً من المؤرخين لم يذكر أن العرب وجدوا أي مقاومة خارج السور ، مما يبعث الشك في هذه الرواية . ولعل جماعة من بربر نفوسة كانوا داخل السور وقت حصار المدينة ، فاعتبرهم بعض المؤرخين نجدة . وقد كان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوروه ، كما لم يقدرُوا أن يقتحموا أبوابه .

وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق ، والغرب ، والجنوب ، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر .

وبقى المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرُون منها على شيء ، وكانت

رسلهم تغدو وتروح حول السور عليهم يحدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة فلم يجدوا . . . وفي ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف ، أو للصيد كما يقول ابن عبد الحكم ، وكانوا مسلحين بسيوفهم ورماحهم ، وساروا حتى وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل بالبحر لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا ، وقد يكون البحر في حالة جزر مما زاد في اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر ، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة ، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة ، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة ، وقد أعمالوا سيوفهم في رقاب الروم ، وعلت أصواتهم بالتهايل والتكبير^(١) ، وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم ، وتكاثروا المسلمون ، وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم يسعهم إلا الفرار ، وتدافعوا في الطرقات المؤدية إلى السفن التي كانت راسية على شاطئ المدينة ناجين بأنفسهم إلى عرض البحر ، واستولى المسلمون على المدينة وغنموا كل ما فيها ، وكانت غنائم كثيرة ، باعها عمرو وفرق ثمنها على المسلمين .

ولم يبد الروم أى مقاومة لا خارج السور ولا داخله . وقد أصابهم من الخوف والذعر - حينما اقتحم العرب عليهم المدينة - ما دل على انهيار قواهم وعدم استعدادهم للحرب ، وعلى أنهم كانوا في حالة ضعف وانحلال لا تقبل عن الحال التي كان عليها أهل برقة ، نتيجة لاضطهاد البيزنطيين ، وفساد حكمهم وقسوتهم في جباية الأموال حتى أصبحوا في حال فقر مدقع .

وقد استغرب صاحب « فتح العرب للمغرب » كيف يمكن لهذا النفر القليل من المسلمين أن يقتحموا مدينة على أهلها ، وقال إنها اشتبهت على من رواها بقصة فتح بابليون في مصر .

(١) كان المسلمون إذا اختلطوا بالعدو وقت الحرب هللا وكبروا : أى قالوا الله أكبر ، يقصدون إرهاب العدو بهذه الكلمة المقدسة .

ومن رأى أن القصة لا غرابة فيها ، ولا تستدعى الطعن فى راويها . فقد ذكر ابن عبد الحكم أنه « خرج رجل من بنى مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيدا فى سبعة نفر » ، وذكر قصة لا تخرج عما ذكرنا . وأكثر المؤرخين ذكر القصة بدون لفظ المدبلجى . وذكر بعضهم أن المدبلجى ومن معه لم يدخلوا المدينة وحدهم بل ندبوا معهم جماعة . وهذا ينفى ما تخيله المؤلف من الغرابة ، وقد أجمعوا على أن العرب دخلوا المدينة من غير أبوابها ولم يذكروا كيف دخلوها إلا ابن عبد الحكم والذين تابعوه على رواية القصة بذكر المدبلجى أو بدونه . والذي يعرف طبيعة الأرض من الناحية التى دخل منها العرب ، ومن الناحية التى كان يعسكر فيها جيشهم ، وبعد مسافتها على السور لا يستغرب ذلك ، فإن الجهة التى دخل منها العرب تؤدى إلى مرتفع من الأرض يقرب من ارتفاع السور إذ ذاك وهو يقع بجوار كنيسة قديمة ، وما زال مرتفعاً إلى الآن . والعرب كانوا يعسكرون على مرتفع من الأرض خارج السور يقرب من ارتفاع السور على مسافة منه لا تزيد على كيلومتر تقريباً ، يضاف إلى هذا ما استولى على نفوس الروم من الخوف والفرع ، وما يشعرون به من الضعف وعدم القدرة على المقاومة ، فبمجرد أن اقتحم العرب المدينة ، وصعدوا إلى المكان المرتفع الذى أشرنا إليه ، وعلت أصوات النصر من العرب ، وأصوات الخوف من الروم سمعهم من كانوا خارج السور ، فأسرعوا إليهم ، وطبيعة الأرض إذ ذاك لا تنافى سماع الصوت ، وقد لا تنافى الرؤية أيضاً .. ولو اطلع صاحب « فتح العرب للمغرب » على طبيعة الأرض لما وجد فى الأمر غرابة ، ولعلم أن هناك فرقاً كبيراً بين سور طرابلس إذ ذاك وحصن بابلون ، وبين قوة الأقباط فى مصر وقوة الروم فى طرابلس . ولعل هذه الغرابة سرت إليه من تشككات المستشرقين فإنه كثيراً ما يروى عنهم فى كتابه هذا .

ولما تم استيلاء العرب على المدينة أمنوا من بقى فيها ، وكفلوا لهم أموالهم ومنعوا التعدى على أعراضهم ومعابدهم وأنفسهم .

ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما اقتحموا عليهم المدينة ، مما يدل على أنهم كانوا في حكم المستسلمين . . ويقال إن المسلمين بنوا فيها مسجداً ، وأن مسجد أحمد باشا بنى على أنقاضه .
وقبل أن يغادرها المسلمون هدموا سورها ، لأنهم يخافون من انتقاص الروم عليهم وتحصنهم بالسور ، خصوصاً وأن المسلمين كانوا قليلين بالنسبة للروم وأنصارهم ، وكان العرب حديثي عهد بالبلاد ، وكانت عاصمة المسلمين التي يأتيهم منها المدد بعيدة وهي إذ ذاك المدينة المنورة .
وكل هذه مبررات لتخريب الحصون وهدم الأسوار . . وتم فتح طرابلس سنة ٢٢ هـ .

صبراته^(١)

مدينة قديمة ، تقع غربي مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط . . أنشأها الفنيقيون حوالي سنة ٩٠٠ أو ٨٠٠ ق م . وهي من أعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي . وكانت أكبر من طرابلس ، وأعظم منها عمراناً ومدنية ، وأروج تجارة . وكانت مركزاً من أهم المراكز التجارية الفينيقية في إفريقية لسهولة مينائها ، وارتباطها بالدواخل بواسطة الطرق التجارية وكانت تحت نفوذ قرطاجنة .

وقد اتخذت لها موقفاً ودياً مع الروم في حروبهم مع القرطاجنيين . وكانت هي وأويا ولبدة لإقليماً واحداً هو إقليم طرابلس الآن ، وفي ذلك العهد كان يطلق عليه كلمة تريبولي ، إلا أنها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الداخلي . وفي بداية القرن الثاني الميلادي تحسن مركزها السياسي ، وأصبح لها حق سلك النقود ، ونالت قسطاً كبيراً من الازدهار والتقدم . ولم يدم هذا الازدهار طويلاً .

(١) ملخص مما ترجمه لنا ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتي من دائرة المعارف الإيطالية

وفي القرن الثالث الميلادي أدركتها الشيخوخة ودخلت في دور الانحطاط
وفي القرن الرابع كثرت فيها الثورات الداخلية ، وامتدت أيدي الثوار إلى السلب
والنهب ، وصارت بحال من الضعف لفتت إليها أنظار الوندال فاحتلوها
حوالي منتصف القرن الخامس م. فدمروها . ثم احتلها البيزنطيون في القرن السادس
الميلادي . وفي حوالي النصف منه أمكنهم أن يعيدوا إليها شيئاً من الرخاء
والطمأنينة ، وأعادوا بناء أسوارها ولكن على محيط أصغر وأصاحوا كثيراً مما
أفسده الوندال ، وأضافوا إليها من فن العمارة الشيء الكثير . وقد كشف الطليان
عن بعض آثارها بعد أن احتلوا طرابلس سنة ١٩١١ ، فظهر فيها من آثار
الفن وأبهة المدنية ما يبهر العقول .

وقد زرتها في نوفمبر سنة ١٩٥٠ وشاهدت ما كشف الحفر عنه من تماثيل
آدمية^(١) وحيوانية ما زالت في غاية الإبداع والإتقان . ووجدت فيها مقادير
كبيرة من الفسيفساء ما زالت محتفظة بنضارتها وألوانها الزاهية ، كما كشف
الحفر فيها عن ملهى ما زال محتفظاً بمدرجاته ومسرحه ، وغرفة المطلة عليه ،
وفيه كثير من الأجزاء لا تحتاج إلى إصلاح .

وقد بنى الطليان مكاناً في وسط آثار المدينة التي ما تزال قائمة في كل مكان
منها ووضعوا فيه ما عثروا عليه من صور وتماثيل آدمية وحيوانية ، وكل ما كان
صالحاً للبقاء . ووضعوا فيه ما عثروا عليه من فسيفساء ، ونسجوها تنسيقاً فنياً
رائعاً غاية في الجمال والروعة . وإنك لتجد تماثيل الإنسان منحوتاً من الرخام
ما زال محتفظاً بجميع أجزائه حتى يتجعد شعره وطوايا ملابسه ، وحتى بمميزات
الذكورة والأنوثة .

(١) توجد مثل هذه التماثيل في كرزة - مكان في بادية أولاد أبي سيف ومن أملاكهم - ما زالت
متأسكة الأجزاء ومحتفظة بمميزاتهما . وتسميها العامة المساخيط، ويعلمون ذلك بأنهم كانوا يعصون الله
كثيراً فسخطهم ، يعني بدل صورهم من آدمية إلى حجرية . . ومن بين أصنام كرزة صنم كان البربر
في جاهليتهم يتبركون به .

وتقع مدينة زواغة غربى صبراتة بنحو عشرة كم ، وهى مدينة بربرية كانت تسكنها قبيلة زواغة البربرية . وهى غير موجودة الآن وليس فيها من الآثار ما يلفت النظر ، وما زالت تعرف إلى الآن بهذا الاسم . ولم يأت ذكر لمدينة زواغة فى الفتح الإسلامى لأنها كانت تابعة لمدينة صبراتة . ويظهر أن سكانها استسلموا حينما رأوا ما حل بصبراتة .

فتح صبراتة

لا شك أن أخبار حصار العرب لطرابلس وصلت إلى صبراتة ، وليس من المعقول أن يبقى العرب محاصرين لطرابلس نحو شهر ، ولا تصل أخبارهم إليها ، خصوصاً لما بينها وبين طرابلس من الروابط . . ويظهر أنه لما طال حصار العرب لطرابلس ظن أهل صبراتة أنهم لا يقدرّون على فتحها ، فاستكانوا لهذا الظن وأمنوا . وإذا عمّز العرب عن فتح طرابلس - فى ظنهم - فهم عاجزون عن فتح صبراتة من باب أولى ، لأن سورها أقوى من سور طرابلس وسكانها أكثر من سكان طرابلس ، فلم يهتموا لأمر العرب كثيراً ، ولم يعملوا على وقاية مدينتهم من إغارة المسلمين . وبغير هذا التخمين لا يمكن أن يفسر كيف أخذوا على غرة ، وقد علموا بوصول العرب إلى طرابلس وحصارهم لها وقد نقل ابن غلبون ما يؤيد هذا الرأى .

ولما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخليل بالإسراع بالمسير إلى صبراتة لفتحها ، وبقي هو فى طرابلس للإشراف على أمورها ، وأسرعت الخليل فى المسير برياسة عبد الله بن الزبير فصباحوها من ليلتهم على غرة . فوجدوا أبواب السور مفتوحة ، وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى . فاقتحموها عليهم بالقوة ، وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ولم يهرب منهم أحد كما وقع فى طرابلس . ويقول التيجانى : ولم ينج منها إلا من ركب البحر إلى صقلية ، وقد هدم

سورها خوفاً من تحصن الروم به مرة ثانية ، واستولى المسلمون عليها ، وغنموا كل ما فيها ، وكان شيئاً كثيراً ، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم وبالنصر الجديد الذي أحرزوه على الروم ، فحضر إلى صبراته . وبعد أن تم استيلاؤهم عليها رتبوا من أمورها ما أمكنهم ترتيبه . وقد خربوا سورها للأسباب التي ذكرناها آنفاً . ثم ارتحلوا عنها قاصدين مدينة شروس بجبل نفوسة .

ولم يتأثر مركزها التجارى بالفتح العربى ، فبقيت محتفظة به . وكانت تسمى بالسوق القديم إلى أن نقل عبد الرحمن بن حبيب السوق منها إلى طرابلس سنة ١٣١ هـ .

جبل نفوسة

هو سلسلة جبال صخرية تمتد من الغرب إلى الشرق ، وهو جزء من سلسلة جبال أطلس التي تبتدئ من بحر الظلمات ، وتمر بمراكش ، والجزائر وتونس ، وطرابلس ، وتنتهى إلى جبال قُماطة ، وهى الهضاب التي تسمى « النقازة » غربى مدينة الخمس بقليل . وكان جبل نفوسة ، وما زال إلى الآن ، موطن البربر ، ومحل إقامتهم الدائمة ، وممتلكاتهم الخاصة .

وبعد أن استقر العرب في إفريقية شاركوا البربر في سكنائه وأنشأوا فيه كثيراً من القرى الخاصة بهم . وتجد في سفوحه الشمالية والجنوبية كثيراً من الأراضي الخصبة والمراعى الفسيحة .

وفيه عيون جارية : عين الترك في غريان . وعين الرومية في يفرن . وعين الريانية ، وعين الرابطة . والعين الزرقاء . وعين أم القرب « ننتالة » وهى تختلف في اندفاع الماء منها قوة وضعفها . وأكثرها نفعا للزراعة عين الرابطة ، وعين الرومية في يفرن . وسمى جبل نفوسة باسم قبيلة نفوسة البربرية التي كانت

وما زالت تسكنه ، وهى من أكبر قبائل البربر . ونفوسه بفتح أوله وضم الفاء مخففة .

مدينة شروس

• ويقال لها شروس - بمهملتين - وهى من أكبر عواصم البربر القديمة فى جبل نفوسة التى كانت موجودة زمن الفتح . وما زالت خرائبها إلى اليوم . وكانت إحدى عاصمتى الجبل . وكانت تحتوى على نحو ٣٠٠ قرية . والعاصمة الأخرى هى جادو على ما نقله الحموى وغيره .

ولما انتهى العرب من فتح صبراته ساروا إلى شروس لفتحها . وما زالوا بها حتى فتحوها . . ولا ندرى هل فتحت صلحا أو عنوة لأننا لم نر أحداً ذكر ذلك . وقبل أن يغادرها عمرو بن العاص كتب إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب فى المدينة المنورة يستأذنه فى فتح إفريقية بعد أن فتح الله عليه أطرابلس وهذا نص كتابه :

« إن الله قد فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » .

فلم يوافق الخليفة . ورد عليه بكتاب هذا نصه :

« لا ، إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت » .

ولما كان عمرو فى مصر اتفق مع المقوقس أن يخبره بكل ما يحدث بعده فى مصر . وبعد أن انتهى عمرو من فتح شروس وقبل أن يرتحل عنها أتاه كتاب من المقوقس فى مصر يخبره فيه بأن الروم يريدون نكث العهد ، ونقض ما كان بينهم وبينه ، فعاد عمرو إلى مصر قبل مقتل عمر بن الخطاب الذى كان فى ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٣ ، وترك عقبة فى زويلة . ويقول صاحب فتح العرب للمغرب إن عمراً ترك عقبة فى برقة . . وهذا يعين أن عقبة أتم فتح زويلة فى سنة ٢٣ ووصل إلى برقة قبل مقتل عمر بن الخطاب .

ويظهر أن عمرًا رجع هو وكل من معه من العرب ، لأنه لم يذكر أحد أن عمرًا ترك من ينوب عنه في طرابلس ، أو في صبراته ، أو في شروس ، كما لم يذكر أحد أن عقبة ترك من ينوب عنه من العرب في زويلة .
ويفهم من كتاب عمرو بن العاص أنه أول من سمي أطرابلس بهذا الاسم ، لأنه كتب كتابه على إثر الفتح وقبل أن يغادر شروس .

حدود طرابلس

تقدم أن تريبوليتانوس التي اختصرت مع مرور الزمن وكثرة الاستعمال إلى تريبولي ، كانت تطلق على المنطقة التي تقع بين خليج سرت وخليج قابس . .
أما بعد الفتح الإسلامي ، وبعد أن عرب العرب كلمة تريبولي إلى أطرابلس ، فكانت حدودها تمتد إلى ما وراء صفاقس غرباً كما حصل أيام طورغود باشا ، وإلى ما وراء سرت شرقاً كما حصل في زمن الفاطميين وغيرهم ، وتارة تنقص عن هذا ، وذلك تبع قوة النفوذ السياسي وضعفه .
وفي العهد التركي ، حينما أدركت الشيخوخة دولة آل عثمان امتدت أيدي المستعمرين إلى ممتلكاتها ، فما لم يمكنهم الاستيلاء عليه اقتطعوا أطرافه وانتقصوا حدوده .

ولما احتل الفرنسيون تونس سنة ١٨٨١ توسعوا في حدودها الشرقية على حساب الأراضي الطرابلسية ، وحصل أخذ ورد بين الدولتين كاد ينقلب إلى نزاع .
وقد اتفق الترك والفرنساويون على إقامة الحدود في مكان غربي قصر بوكماش بنحو ١١ كم ، ونصبت هناك أعمدة من البناء ، عند خط الطول ١١° ، ثم يصعد في الجنوب ماراً بوسط ذهيمية غربي نالوت ، ومنها إلى غربي غدامس ، ثم ينحرف إلى الغرب جنوبي الحدود التونسية إلى حدود الجزائر الشرقية ثم يستقيم في الجنوب ماراً غربي غات حتى ينتهي إلى حدود السودان

فى خط العرض ٢٣° وهو حدود ليبيا الجنوبية . وتنتهى حدود طرابلس شرقاً إلى العقيلة بقرب عين الكبريت . . وقد بنى الطليان هناك قوساً^(١) يعتبر الحد الفاصل بين برقة وطرابلس ، ويمر فى مسامطة العقيلة جنوباً إلى حدود السودان فى خط العرض ٢٣° ، وهو حد ليبيا الجنوبي . . . ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط .

وهذا التحديد أقره الطليان بمقتضى الأمر الملكى الصادر فى ١٢ يناير سنة ١٩١٣ ، وفى هذا التاريخ كانت طرابلس بحدودها المذكورة تحت إدارة واحدة . وفى إبريل سنة ١٩٣٧ قسمها الطليان إلى ثلاث مديريات : طرابلس ، ومصراته ، وهون ، وتعتبر هون مركز المنطقة الجنوبية ، وتسمى المنطقة العسكرية ؛ وتشمل غات ، وفزان ، وغدامس ، ومايسامت غدامس شرقاً إلى حدود الحفرة الشرقية . ولما فتحها العرب عربوا كلمة تريبول إلى أطرابلس ، وهو تعريب قريب من الأصل ، مع تحريف بسيط ، لأن كلمة تريبول فى اللغة الإيطالية القديمة كان يلحق بها السنين فى آخرها .

وأول مصدر عربى ذكرت فيه كلمة « أطرابلس » هو جواب عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب الذى ذكرناه آنفاً . ولكثرة الاستعمال تركت الهمزة وصار ينطق بها طرابلس بضم الباء واللام ، أو بضم الباء وسكون اللام .

(١) حصل نزاع فيما بين سنة ٣١٣ ، و ٣١٠ ق م بين اليونانيين فى برقة ، والقرطاجنيين غربى خليج سرت على الحد الفاصل بين الأراضى اليونانية والأراضى القرطاجنية ، ثم اتفقوا على أن يعين كل من الطرفين عدائين من جانبه ، يقوم اليونانيون من مدينة قورين (قرنه) متجهين إلى الغرب ، ويقوم القرطاجنيون من مدينة قرطاجنة متجهين إلى الشرق وحيث يلتقى الفريقان تقام الحدود ، وقد التقوا فى مكان القوس الذى بناه الطليان حداً فاصلاً بين برقة وطرابلس .

وقد اتهم اليونانيون القرطاجنيين بأنهم قاموا بالعدو قبل الموعد المتفق عليه ، واشتروا لرضاهم بإقامة الحد حيث التقوا أن يدفن القرطاجنيون أنفسهم أحياء فى مكان الالتقاء ، أو يتركوا يعدون إلى المكان الذى يريدونه ويدفنون أنفسهم فيه أحياء ويكون الحد الفاصل ، فرضى القرطاجنيون أن يدفنوا أنفسهم أحياء حيث التقوا باليونانيين ويكون الحد الفاصل ، فدفعوا أنفسهم أحياء فى المنطقة التى أقيم فيها القوس الآن ، واعتبر هذا العمل منهم تضحية كبرى فى سبيل إعزاز الوطن وتوسيع حدوده .

وقد غلب إطلاق كلمة طرابلس منذ أوائل عهد العرب بإفريقية على المدينة المعروفة الآن ، وذلك بسبب ما أصاب لبدة من خراب قبل الفتح الإسلامي شمل جميع أجزائها ، وبما أصيبت به صبراته أيضاً من انحطاط وتأخر آل إلى خراب شامل أيام حكم الكاهنة البربرية . . . وقد يطلق لفظ طرابلس ويراد به الإقليم كله إذا دلت القرينة على ذلك .

ودان

كلمة ودان مأخوذة من الود وهو المحبة . وهى مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية . ويتبعها زلة ، وهون ، وسوكنة وما جاورها . ويطلق على الكل بلاد ودان . وكانت ودان زمن الفتح الإسلامي هى العاصمة . وكان عليها سور ، وقد تهدم ولم يبق منه الآن إلا آثاره . وقد امتد عمرانها خارج السور . وتقع ودان وهون^(١) وسوكنة على خط طوله نحو ستين كيلومتراً يبتدىء من الشرق بودان ، وينتهى من الغرب إلى سوكنة مع انحراف سوكنة إلى الجنوب قليلاً . . . وتقع زلة فى الجنوب الشرقى من ودان بنحو ١٦٠ كم . . . وتقع ودان فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٧٦٩ كم ، وإلى جنوبى سرت بنحو ٢٨٠ كم .

(١) هون . يظهر لى أنها سميت بهذا الاسم لوجود بنى الهون فيها . وبنو الهون قبيلة عربية تنتسب إلى الهون بن خزيمه بن مدركة بن اليباس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ولا شك أن قبائل وأفخاذا كثيرة من العرب دخلت إفريقية فلا يبعد أن يكون بنو الهون وجدوا فى هذه الناحية فسميت باسمهم

فتح ودان

ولما كان عمرو بن العاص محاصراً مدينة طرابلس بعث إليها جيشاً بقيادة بسير بن أبي أرطاة^(١)، ففتحها سنة ٥٢٣هـ، وفرض على أهلها غرامة قدرها ٣٦٠ رأساً من الرقيق. وبعد أن غادرهم بسير ارتدوا وبقوا على ردتهم إلى أن فتحهم عقبة بن نافع سنة ٥٤٩هـ.

يؤخذ مما تقدم أن البلاد الطرابلسية التي تم فتحها بقيادة عمرو ابن العاص هي بلاد الساحل من برقة إلى صبراتة، ومن بلاد الجنوب شروس، وزويلة، وودان، وهون، وسوكنة. واستغرقت أعمال الفتح فيها من سنة ٢١ إلى سنة ٥٢٣هـ. وكل هذه البلاد فتحت عنوة (بالحرب) إلا برقة وزويلة فلنهما فتحتا صلحاً.

(١) وقيل بشير العامري. واسم أبي أرطاة عمير وكان بسير من المتحمسين لنصرة معاوية. وحضر معركة صفين في عسكر الشام ضد علي بن أبي طالب. وحضر فتوح الشام. وقاد الجيوش في البر والبحر واشترك في فتح إفريقية. وكان شجاعاً. وفيه كثير من قسوة البداوة. وقاد الحملة التي انتهت بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة، وكوفئ عليها من معاوية بولاية البصرة. وقد أوقع بآل بيت النبوة كثيراً من القتل والتشريد. قال صاحب مروج الذهب: حتى خذلهم الأخاديد. وقتل ولدي عبيد الله بن عباس وهما صغيران على يدي أمهما، ففقدت عقلها، وهامت على وجهها، وقد دعا عليه على بأن يطيل الله عمره ويذهب عقابه. فكان كذلك. ولم تصح له صحبة.

الفتح الثانى

انتهى الدور الأول من فتح طرابلس . وبعد رجوع عمرو إلى مصر بقليل توفى عمر بن الخطاب يوم ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٣ ، وأسندت الخلافة بعده إلى عثمان غرة المحرم سنة ٢٤ الموافق ٧ من نوفمبر سنة ٦٤٤ م .

وكان حادث قتل عمر سبباً فى شغل المسلمين بعض الوقت . ولم يطل الأمر بسكان طرابلس حتى نقضوا ما عاهدوا عليه عمراً ، وارتد عن الإسلام من كان أسلم منهم ، وانقطعت صلة العرب بطرابلس نحو خمس سنوات وتنوسيت أعمالهم فيها ، وأصبحت وكأن لم يدخلوها فاتحين .

وفى سنة ٢٥ ولى عثمان على مصر عبد الله بن أبى سرح — أخاه من الرضاع — وقد كان وجوده فى مصر مدعاة للتفكير فى شأن إفريقية فأخذ يرسل إليها خيله غازية مستطلعة ليقف على ما فيها من قوة ، وعلى ما تركه فتح العرب فى نفوس أهلها من أثر . فكانت هذه البعوث الغازية تغدو وتروح محملة بالغنائم من غير أن تلقى مقاومة تذكر . وكانت هذه البعوث من الكثرة بحيث عبر عنها بعض المؤرخين بكلمة (جيش) وذكر فيها عتبة بن نافع ، وأنها كانت سنة ٢٥ . ومن المرجح أن يكون فيها عتبة . لأنه بقى فى برقة حينما رجع عمرو إلى مصر ، ولأنه تقدمت له خبرة ببرقة وبعض الجهات الجنوبية من طرابلس ، فكانت هذه البعوث لا تستغنى عن خبرته ، خصوصاً وهو فى طريقها جيئة وذهوباً . وأنه ليخيل لقارئ أخبار هذه البعوث أنها غزوات مستقلة ، وما هى إلا للاستطلاع والاختبار . وكانت تأتى بأخبار مطمئنة ، ومشجعة على التفكير فى الاستعداد للفتح ثانية . . وقد أرسل ابن أبى سرح بأخبار هذه

البعوث إلى عثمان بالمدينة مشفوعة برغبته في الإذن له بفتح إفريقية . فانشرحت نفس عثمان للأمر ، ولكنه أبى أن يعتزمه إلا بعد استشارة كبار الصحابة ، فاستشار علياً ، وطلحة ، والزبير ، والعباس ، فأشاروا كلهم بغزوها . فاعتزم عثمان الأمر ، وكتب إلى عبد الله بن أبي سرح بالموافقة . وتسامع الناس بما اعتزمه خليفة المسلمين فتوافدوا على المدينة من كل صوب ، واشترك في هذه الغزوة أكثر قبائل العرب الضاربة حول المدينة ، وانضم إليها جمع غفير من الصحابة وأبنائهم . فخرج عبد الله بن الزبير في جماعة من بني أسد بن عبد العزى . ومروان بن الحكم في جماعة من بني أمية . والمسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود في جماعة من بني زهرة . وعبد الرحمن بن أبي بكر في جماعة من قومه بني تميم . وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخوه عاصم ، وعبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب في جماعة من قومهم بني عدى . وعبد الله بن عمرو بن العاص في جماعة من قومه بني سهم . والسائب بن عامر ، وبسر بن أبي أرتاة في جماعة من قومهما بني عامر . وخرج من جبهة ستمائة ، ومن أسلم ثلاثمائة . ومن مزينة ثمانمائة . ومن بني سليم أربعمائة وخمسون . . ومن بني الدليل وضمرة ، وغفار ، وعبد مناف خمسمائة . وخرج من غطفان وفزارة ، ومصر سبعمائة . ١ هـ من طبقات علماء إفريقية .

ويقول النويري : « إن عثمان أعان الجيش بألف بعير من ماله ، وحمل على خيل ، وفرق السلاح ، وأمر للناس بأعطياتهم ، وكان ذلك في المحرم سنة ٢٧ . وخطب في الناس ، ورغبهم في الجهاد ، وقال لهم : « لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه واستودعتكم الله (١) » .

ووصل جيش المدينة إلى مصر ، وانضم إليه من كانوا في انتظاره ممن

جمعهم عبد الله بن أبي سرح ، واجتمع من هؤلاء وأولئك جيش لا يقل عن عشرين ألف مقاتل . وبعد أن استكمل الجيش عدته سار إلى إفريقية بقيادة عبد الله بن أبي سرح . وهذه الغزوة تسمى غزوة العبادلة .

غزوة العبادلة

تسمى هذه الغزوة غزوة العبادلة ، ويسمى الجيش بجيش العبادلة ، لأنه اجتمع فيه سبعة من كبار الصحابة كل منهم اسمه عبد الله ، وهم : عبد الله بن عباس^(١) ، وعبد الله بن أبي سرح^(٢) . وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر بن الخطاب^(٣) . وعبد الله بن عمرو بن العاص^(٤) . وعبد الله بن الزبير^(٥) . وعبد الله بن مسعود . ولما وصلوا برقة وجدوا فيها عقبة بن نافع ،

(١) كنيته أبو الفضل ، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولد بالشعب قبل الهجرة . وتوفي النبي وهو ابن ١٥ سنة . ودعا له فقال « اللهم علمه الكتاب والحكمة » فكان أعلم الناس بمعاني القرآن وناسخه ومنسوخه

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أبو يحيى القرشي العامري ، أرضعت أمه عثمان بن عفان فهو أخوه من الرضاع ، له صحبة وكان يكتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يغير فيما يمليه عليه النبي ، فأهدر دمه ، فخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً عن الإسلام ، فاستأنم له عثمان يوم الفتح ، وقبل النبي إسلامه . وكان يفر من مقابلة النبي حياء منه ، فشكا ذلك عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « الإسلام يجب ما كان قبلك » فكان بعد ذلك يجلس مع رسول الله ص ويسلم عليه . وولد عثمان مصر سنة ٢٥ فشكاه أهلها وأخرجوه منها . وولد عثمان على إفريقية وفتحها سنة ٢٧ . ولم يبايع لعل ولا لمعاوية . . وكان دعا الله أن يميتة وهو في الصلاة فصل الصبح وسلم على يمينه ، وفاضت روحه قبل أن يسلم على شماله . وكانت وفاته بمسقلان سنة ٣٦ . ودفن بها في مقابر قریش .

(٣) كنيته أبو عبد الرحمن ، أسلم بإسلام أبيه ، وشهد بدرًا واحدًا . وكان عمره يوم بدر ١٢ سنة . غزا إفريقية مرتين : الأولى مع عبد الله بن أبي سرح ، والثانية مع معاوية بن حديج . وكادت معه في إفريقية أم ولد توفيت بإفريقية ، وكان له منها أولاد

(٤) كنيته أبو محمد ، ولد قبل الهجرة بسبع سنين ، وبين أبيه في العمر ١٣ سنة . شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح سنة ٢٧ وتوفي سنة ٦٥ عن ٧٢ سنة

(٥) ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً ، وهو أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة . وهو أول من كسا الكعبة الديباج . وهو الذي قتل جرير . قتله الحجاج بن يوسف وصلبه بمكة في ١٨ من ج. خ سنة ٧٣ .

فانضم إليهم هو ومن معه من المسلمين .

وتوجه الجيش إلى إفريقية ، وكان - وهو في طريقه - يرسل الطلائع في كل وجه ، فكانت تأتي بالبقر والشاء وعلف الدواب . ولما وصلوا إلى طرابلس مرت إحدى طلائع المسلمين بها ، فأروا مراكب راسية على الساحل خارج السور فشدوا عليها ، فأسروا أهلها - وكانوا مائة - وغنموا ما في المراكب ، وكان ذلك على مرءاً من أهل المدينة ، فلم يتعرضوا لهم . قال في رياض النفوس : « وتحصن أهل طرابلس ولم يتعرضوا لنا ولم نهجمهم ، وأخذنا ما في السفن فكانت هذه أول غنيمة أصيبت » ، ولما لحق بهم عبد الله بن أبي سرح سلموا له الأسرى فقتلهم . لأنهم نقضوا عهد عمرو بن العاص ، وارتد من كان أسلم منهم .

وكانت طرابلس إذ ذاك تابعة لجرجير^(١) حاكم سبيطة . واكتفى ابن أبي سرح من طرابلس بهذه الغنيمة ، ولم يفتحها ، واستمر في طريقه إلى سبيطة هكذا يقول صاحب فتح العرب للمغرب ، وهو يوافق ما جاء في رياض النفوس . وذكر غيرهما أنه فتحها . وهذه الرواية معقولة لأنه يبعد أن يتركها شوكة في ظهره ، وهو يعلم أنها نقضت عهدها وارتد من أسلم من أهلها ، وقد يستغلها الروم لمهاجمته من الخلف .

تقدم المسلمون من طرابلس إلى إفريقية ، وكانت عاصمتها إذ ذاك قرطاجنة ونزلوا بقرب السبخة المجاورة لمكان مدينة القيروان الآن ، وتوجه تفكيرهم إلى فتح سبيطة ، وهي العاصمة الثانية بعد قرطاجنة ، وكان جرجير يقيم بها . . . وجرجير هذا بطريق معين من قبل ملك الروم هرقل الذي كان يقيم في القسطنطينية عاصمة ملكه إذ ذاك ، وكانت تسمى بيرنطة . وكان نفوذ جرجير^(٢) يمتد من طرابلس إلى طنجة بالنيابة عن هرقل . . . ويقال إن جرجير خلع

(١) تقدم أنها هي وبرقة كانتا تابعتين لمصر . ولعل أهل طرابلس بعد أن غادرهم عمرو أيقنوا أن صلتهم بمصر غير ممكنة ، وغير مجددة ، فسعوا في تحسين علاقتهم بحاكم سبيطة وانضموا إلى حكمه

(٢) اسمه الأصلي غريغور ، وحرفه العرب إلى جرجير

طاعة هرقل ، وضرب العملة باسمه ، وادعى الملك في إفريقية لنفسه ، وكان هذا بتحريض من البابا مارتن الذى قبض عليه قسطنطين فيما بعد وأنزل به عقاباً شديداً .

لم يتقدم جرجير بطالب الصلح من العرب ، بل عمد إلى تعبئة جيوشه وحشد المقاتلين ، ووقفه في وجه العرب ، فلم يكن للعرب بد من اتخاذ مثل هذه الترتيبات والاستعداد للقاء الروم في أى وقت . فما لبث الفريقان غير قليل حتى نشبت المعركة بينهما ، وتوالى المعارك فكانت طاحنة ، وأبلى العرب فيها بلاء مكنهم من إحراز النصر ، ورجحت كفة المعركة إلى جانبهم ، وظهر الضعف في صفوف جرجير ، فرأى من الخير له أن ينجح إلى الصلح بعد أن رأى بواحر الهزيمة ، وتقدم إلى ابن أبى سرح بطاب الصلح على مال يؤدونه له ويرتحل العرب عن بلادهم ، فاتفقوا على أن يدفع الروم ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار للعرب ، فدفعوها لهم ، وارتحل العرب عن إفريقية .

وكان طلب جرجير للصلح فرصة انتهزها ابن أبى سرح خوفاً من أن يتكاثر عليه الروم والبربر ، وهو في قلة من المسلمين ، وقد تأثر جيشه من تلك المعارك الطاحنة التى ما كانت القوة فيها متكافئة ، ولكن قوة إيمان العرب ، وتفانيهم في نشر الدعوة الإسلامية هو الذى كان دائماً سبباً في إحرازهم النصر في مثل هذه المعارك وأشد منها . ولم يخف على ابن أبى سرح بعد مركز المسلمين الذى يأتهم منه المدد ، فلو رفض الصلح — وهو في تلك القلة — لما أمن أن يجمع الروم والبربر جمعهم ، فينقضوا عليهم ، وإذا ذاك قد لا يفوز العرب بالنصر . فقبل ابن أبى سرح الصلح كان تطبيقاً لسياسة حكيمة أملت الظروف ، واقتضاها قول الله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

أسرع ابن أبى سرح — بعد عقد الصلح مع الروم — بالرجوع إلى مصر سنة ٢٨ (١) بعد أن مكثوا في إفريقية سنة وثلاثة أشهر ، ولم يستخلف بها أحداً

ولم يبن بها معسكراً .

ولا شك أن هذه الغزوة كانت أقوى أثراً وأبعد مدى من غزوة عمرو التي سبقتها ، بما امتازت به من التوغل في الأراضى الإفريقية التي أكسب العرب علماً بحالة السكان الاجتماعية ، ومن الصدام العنيف الذي كانت نتيجته معرفة قوة الروم المادية وروحهم المعنوية ، ومعرفة الروابط بين الروم والبربر ، ومكنتهم من دراسة إفريقية عن كذب ، فكانت بمثابة مقدمة لما تلاها من غزو وفتح .

الفتح الثالث

عبد الله بن أبي سرح^(١)

رجع ابن أبي سرح ومن معه من العرب إلى الشرق ، وتركوا إفريقية على ما صالحهم عليه جرجير ، وعلى ما أخذوه عليه من عهود . ولكن جرجير لم يلبث أن نقض العهد وخان الموثيق . وقد وصلت أخباره إلى المسلمين في الشرق فأخذوا يفكرون في فتح إفريقية مرة ثالثة .

وفي سنة ٢٩ أرسل إليها عثمان جيشاً بقيادة عبد الله بن أبي سرح . ولم تكذب أخبارهم تصل إلى جرجير حتى أخذ يستعد للقائهم ، فجمع جمعاً كثيرة من الروم والبربر قرابة مائة وعشرين ألفاً .

ووصل المسلمون إلى إفريقية^(٢) فوجدوا جرجير على استعداد للقائهم في سببلة وهي مدينة مسورة تبعد عن القيروان سبعين ميلاً .

(١) اختلفت كتب التاريخ في تعيين هذه الغزوة بين سنوات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ أما تاريخ ٢٦ فلا يصح لأن أول غزوات ابن أبي سرح كانت سنة ٢٧ فكيف تقع الثانية في ٢٦ . وأما تاريخ ٢٧ فهو الذي جعل بعض الكتاب يقول باتحاد الغزوتين . ولكن حينما يعن القارئ النظر في تفاصيلهما لا يسهه إلا أن يحكم بتعددتهما لأنه بينما نرى أن الغزوة الأولى انتهت إلى صلح عقده جرجير نفسه مع العرب ، إذا بنا نرى أن الغزوة الثانية كانت فيها معارك طاحنة ، وذكرت فيها قصة بنت جرجير ، وقتل فيها جرجير ، وانتهت بصلح مع أعيان البلاد بعد قتل جرجير . إذاً فلا بد من اختيار التاريخ الثالث الذي اختاره ابن خلدون وهو سنة ٢٩ وقد ثبت أن ابن أبي سرح حارب في إفريقية أكثر من مرة ، مما يؤكد أن سبب اختلاف تواريخ الغزوات هو تعددها . والقول بتعدد الغزوتين هو الذي يتفق مع ما اشتملنا عليه من تفصيل . وتباين الروايات يدل على تعددها . والقول بأن تعدد التواريخ شك من الرواة في الواقعة الواحدة لا دليل عليه

(٢) لم نر من المؤرخين من تعرض لأخبار طرابلس في هذه الغزوة ويظهر أنها بقيت على عهدها في الغزوة الأولى ، فلم تتعرض لهجوم العرب في هذه الغزوة

وبما أني اخترت الرأي التماثل بتعد غزوات ابن أبي سرح في إفريقية أذكر ما جاء في رياض النفوس في غزوة ابن أبي سرح الثانية من رواية الواقدي عن ربيعة الديلي قال : « . . . ثم تمادينا إلى إفريقية ، وجعلنا نضرب في كل جهة . وأقمنا أياماً تجرى بيننا وبين جرجير — ملكهم — الرسل ندعوه إلى الإسلام ، فكلما دعواناه إلى الإسلام نخر . ثم استطال وقال : لا أفعل هذا أبداً . فقلنا له : فتخرج الجزية في كل عام ، فقال : لو سألتوني درهماً لم أفعل . فبهت الناس للتماثل . وعبأ عبد الله بن سعد الناس ميمنة وميسرة وقلباً » .

وعبأ جرجير جيوشه ، وكانت نحرو مائة وعشرين ألفاً . ودارت المعارك الأولى لم ينل فيها من العرب ، فأراد أن يغري بهم الروم ، فأخرج ابنته أمام الجيوش ونادى في عسكره : من قتل أمير العرب زوجته ابنتي هذه ، فسمع بذلك عبد الله بن أبي سرح فنادى في المسلمين : « وحى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته وما معها ^(١) » . والتحم القتال حتى ظن الناس أنه القضاء ، وصبر المجاهدون فانهزم جرجير وجيشه ، واندفع العرب نحوه يتسابقون إلى قتله ، فرأت ابنة جرجير المسلمين يتدافعون بسيوفهم في زحام شديد ، — وكانت تطل على المعركة — فقالت ما لهم يتزاحمون ؟ ، فقالوا لما يتزاحمون على قتل أبيك .

وذكر في رياض النفوس أن ابنة جرجير أشرفت على العرب في عسكرهم ، فاستقبلتهم فقالت لأبيها : لا تسرع بالقتل في هؤلاء وأنجليهم ، فقال لها : قد أنجليتهم .

واشتدت المعركة وكانت قاسية وطاحنة ، فانهز عبد الله بن الزبير غرة من جرجير فقتله . وذكر في دول الإسلام من رواية عبد الله بن الزبير هذه القصة فقال : هجم علينا جرجير في مائة وعشرين ألفاً ، واختلف الجند على ابن أبي سرح

(١) كان هذا النداء بعد أن أشار عليه به عبد الله بن الزبير

وخافوا العدو ، وأحاط بنا العدو ، وكنا عشرين ألفا ، فرأيت أنا غرة من جرجير ، بصرت به خلف جيوشه على برذون أشهب معه جاريتان تظلان عليه بريش الطواويس ، وبينه وبين عسكره فلاة من الأرض ، فأتيت أميرنا ابن أبي سرح فندب لي فرساناً فأخذت منهم ثلاثين وقتلت لهم اثبتوا هنا ، وحملت على جرجير ، وقتلت احموا لي ظهري ، رخرقت إلى جرجير وهو يظن أني رسول إليه ، فلما دنوت منه عرف الشر ، فوثب على برذونه وساق مولياً ، فأدركته فطعنته فسقط ، ثم ضربته بالسيف ونصبت رأسه على رمحي وكبرت . وقد ركب المسلمون فحملوا ، وركبنا أكتاف العدو وتمزقوا . وسبقت خيول المسلمين إلى باب الحصن ، فحالوا بينهم وبين الدخول فيه ، وقتلوا أنجادهم وفرسانهم . ودارت الدائرة على الروم والبربر ، وكثر فيهم القتل والسبي ، واستولى العرب على ما في المعركة ، وجمعت الغنائم فكانت شيئاً لا يحصى كثرة . ووقعت ابنة جرجير في الأسر وقالت : لقد رأيت النبي قتل والدي ، ولما عرض عليها المجاهدون تعرفت على ابن الزبير .

وفي ابن أبي سرح بوعده فأعطى بنت جرجير لابن الزبير وأرسل السرايا في طول البلاد وعرضها لإخضاع الروم والبربر ، فما ذهب مذهباً إلا رجعت سالمة غانمة . وكانت هذه المعركة سبباً في كسر شوكة الروم والبربر وذهاب ملك جرجير ، فاجأوا إلى الحصون ، ورهبوا جانب العرب .

ولما رأى رؤساء أهل المدن والقرى ما حل بهم من هزيمة ، ورأوا أن العرب ما زالوا يغيرون ويفتخون ، وأيقنوا بعجزهم عن مقاومتهم طلبوا من ابن أبي سرح صلحاً على مال يؤدونه ويرحل عنهم ، فقبل منهم ، وعقد معهم صلحاً جاء فيه : « إن ما غنمه المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أخذوه بعد الصلح ردوه^(١) » ،

(١) يلاحظ أن الصلح في الغزوة الأولى كان مع جرجير نفسه، وكان على ألفي ألف وخمسمائة ألف وفي هذه الغزوة كان الصلح مع الأعيان بعد قتل جرجير ، وكان على ثلاثمائة قنطار من الذهب . وقال في رياض النفوس . كان الصلح - في الغزوة الثانية - على مائة ألف رطل من الذهب وهذا مما يدل على تعدد الغزوات كما قلنا

واتفقوا على ثلاثمائة قنطار من الذهب ، فقبضها ابن أبي سرح ورحل عنهم .
وبعد انتهاء المعركة ، وقبل أن يرحل ابن أبي سرح أرسل عبد الله بن الزبير
بخبز الفتح إلى عثمان بالمدينة يبشره بما أفاء الله على المسلمين من النصر والغنيمة ،
وأخذ ابن الزبير معه بنت جرجير . وقد ساءها أن تكون مسبية في يد العرب ،
فألقت بنفسها من على جمل في أثناء الطريق فماتت .

وقد أوصى ابن أبي سرح ابن الزبير أن يبلغ عثمان أن يرسل إليه سفناً في
البحر لي شحن فيها الغنائم .

وسافر ابن أبي سرح إلى المشرق ومعه من الغنائم شيء لا يحصى كثرة ،
ووافته السفن التي طلبها من عثمان في طرابلس ، فشحن فيها ما يمكن شحنه
وسار هو وأصحابه على طريق البر . وقد بلغ سهم الرجل ألف دينار ، وبلغ
سهم الفارس ثلاثة آلاف . . . ولئن دل مجيء سفن العرب إلى طرابلس على
شيء فإنما يدل على ضعف دولة الروم وتقلص نفوذها وانهايار قواها أمام
ضربات العرب حتى في إفريقية . وقد خيمت على عقولهم صولة العرب ، وهيمنت
على نفوسهم ، فكانت مقاومتهم بعد هذه المعركة تسير من ضعيف إلى أضعف .
وكان هذا الفتح قاصراً على السواحل فيما بين جبل نفوسة^(١) والبحر ،
أما غدامس فلم تفتح إلا في سنة ٤٢ هـ في سرية عقبة ، وبقيت ودان على ردتها
حتى فتحها هي وغدامس عقبة بن نافع سنة ٤٩ وسيأتي خبرهما .

وكان من بين أسرى هذه المعركة وزمار بن صقلاب البربري ، جد
الحزرونيين ، وأمير مغراوة وزناتة^(٢) . ولما وصل إلى عثمان بالمدينة أسلم على
يديه ، فأطلقه وعقد له على قومه ، ولذلك كانت زناتة تناصر دعوة الأمويين ،
بخلاف صنهاجة فإنها كانت تناصر دعوة العباسيين .

(١) لم يذكر أحد موقف سكان جبل نفوسة من هذه الغزوة . ويظهر أن من فيه من البربر
استكانوا وأفسحوا الطريق للعرب يذهبون حيث شاءوا ، كما رضى العرب منهم بهذا الموقف فتركهم

(٢) قال ابن خلدون : وقد أسرى في زمن ابن أبي سرح وزمار إلخ . وذكر غيره هذا المعنى ،
وعلل به مناصرة زناتة لدعوة الأمويين ، ومخالفة صنهاجة لها ومناصرتها دعوة العباسيين

وصول الخبر إلى هرقل :

أسف هرقل كثيراً حينما بلغه - وهو بالقسطنطينية - خبر قتل جرجير وهزيمة الروم والبربر ، ومصالحة رؤساء المدن والقرى للمسلمين على تلك المئات من قناطير الذهب ، فأرسل إليهم بطريقاً نائباً عنه يقال له « أوليمه » ليطلبهم بالخراج الذى كانوا يؤدونه إليه فى كل سنة ، ونزل بقرطاجنة . ولما طلب من الناس ما أمره به هرقل امتنعوا وقالوا إن ما بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب .

وقد حصل خلاف كبير بين « أوليمه » نائب هرقل ، وبين « حباحيه » حاكم البلد الذى أقيم بعد قتل جرجير ، ورجع البطريق مطروداً ولم يحصل على شيء . لم يول ابن أبى سرح أحداً على إفريقية بعد أن رحل عنها ، وتركها كما تركها فى المرة الأولى مكتفياً بعهود الصلح وتقديم الطاعة . وكذلك كان العرب يفعلون قبل أن تستقر أقدامهم فى إفريقية ، وقبل أن يتخذوا منها موطناً لهم ، فكانوا يكتفون بدفع الغرامة ، بتقديم الطاعة سواء أكانت بطريق الصلح ، أم بطريق القهر والغلبة ، لأنهم ما كانوا يأمنون غدر الروم وقتلهم من يولونه عليهم .

ويقول ابن خلدون إن جرجير كان من الفرنجة ، وكان نائباً عن هرقل فى إفريقية لأن هرقل كان ملك النصرانية كلها لا فرق بين الروم وغيرهم ، والأهم التى كانت متغلبة على البربر ، وكانت تملك مدنها وقراها إنما هى من الفرنجة ، وما يوجد من الروم فى إفريقية إنما هم جند للفرنجة . ولما كان العرب لم يقاتلوا من الأمم النصرانية إلا الروم فى الشام غلبوا لفظ الروم على غيرهم . وما يذكر فى كتب فتح إفريقية من لفظ الروم إنما هو من قبيل التغليب . وكان البربر فى إفريقية قبيل الفتح تحت حكم الفرنجة ، وعلى دين النصرانية .

الفتح الرابع

غزوة معاوية ابن حديج الأولى

ما كانت إفريقية تستقر على حال ، ولا تقيم على عهد إاريثما يرتحل عنها جيش المسلمين فتنتقض عهدها ، ويرتد من أسلم من أهلها ، وتناصب العرب العداء وتعود إلى ما كانت عليه .

وقد اختلفت روايات المؤرخين في غزوات معاوية بن حديج ، فنقل المالكي صاحب رياض النفوس عن أبي العرب « أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات : أما الأولى فسنة ٣٤ في خلافة عثمان ^(١) . وأما الثانية فسنة أربعين . وأما الثالثة فسنة خمسين » وهو يوافق رواية ابن عبد الحكم في أنها ثلاث غزوات . ويحدد هذه الغزوة بأنها كانت قبل مقتل عثمان . وفي أن الثانية كانت سنة ٤٠ وهذا غير صحيح لأن تعيينه كان من قبل معاوية ، ومعاوية في هذه السنة كان مشغولا بحرب على " ، ولم يتول الخلافة إلا بعد أن تنازل له عليها الحسن بن علي سنة ٤١ ، ويظهر أنها كانت سنة ٤٥ كما ذكر ابن خلدون وقد اخترت هذا القول ، والثالثة كانت سنة ٥٠ ، وهذه ذكرها صاحب نزهة الأنظار وذكر بعض أعماله في القيروان ، وفتح جلّولاء . واتفقت رواية صاحب معالم الإيمان ومحمد بن يوسف الوراق أنها ثلاثة ، وأن الأولى كانت سنة ٣٤ قبل مقتل عثمان . وذكر بعض المؤرخين واقعة جلّولاء في غزوة سنة ٣٤ . وذكرها بعضهم في غزوة سنة ٤٠ . وبعضهم ذكرها في غزوة

(١) قال في طبقات علماء إفريقية : وهذه الغزوة لا يعرفها كثير من الناس

سنة ٥٠ وكلهم متفقون على تفاصيل معركة جلّولا وما وقع فيها . وقال ابن خلدون إن معاوية بن حديج أرسل إلى إفريقية سنة ٤٥ . وقال التيجاني في رحلته : كان ابن حديج والياً على إفريقية من قبل عمرو بن العاص .
هنا ما أمكنني جمعه فيما يتعلق بغزوات ابن حديج في إفريقية وقد اخترت الرأي القائل بالتعدد فذكرتها متعددة .

مرت على إفريقية نحو ست سنوات بعد رجوع ابن أبي سرح نقض الروم فيها عهودهم مع العرب ، وناصرهم العداء ، وارتد من أسلم إلى نصرانيته . وقد شغل عنها العرب كل هذه المدة بإصلاح ما ظهر من بوادر فتنة عثمان وبما لابسها من آثار سيئة نتيجة لانتقاد طريقة الحكم التي اتبعها عثمان . وبالرغم على ظهور هذه البوادر فقد عني عثمان بأمر إفريقية ، ووجه إليها أبا نعيم معاوية بن حديج سنة ٣٤ لفتحها ، ومعه جيش من العرب فيه كثير من الصحابة والتابعين من المهاجرين والأنصار .

ومر ابن حديج في طريقة بركة ، وكان بها عقبة بن نافع فأخذه معه ونقول بعض المصادر إن عمرو بن العاص لما رجع إلى مصر سنة ٢٣ ترك عقبة في بركة والياً على ما فتح من إفريقية ، وقد مروا في طريقهم بطرابلس فلم تبد أي مقاومة فيما اطلعت عليه من كتب .

أما سرت فيظهر أنها لقربها من بركة تأثرت بها ، فهي منذ أن فتحها عمرو لم تبد نشاطاً عدائياً لا ضد ابن أبي سرح في غزواته ، ولا ضد ابن حديج ، وأصبحت مسالمة كما سالت بركة .

وأخبار هذه الغزوة مقتضبة ، حتى قال في طبقات علماء إفريقية إن هذه الغزوة لا يعرفها كثير من الناس . ولم نعر لها على تفصيل أكثر .

الفتح الخامس

غزوة معاوية بن حديج الثانية

وكانت المدة بين غزوتي ابن حديج حوالى عشر سنوات شغل فيها المسلمون بفتنة عثمان وحروب على ومعاوية ، وانقطعت فيها بعوث المسلمين عن إفريقية ولم يفكروا فى شأنها

وقد انتهر الروم والبربر فرصة انشغال المسلمين بهذه الفتنة فنقضوا عهودهم ، وارتمد بعضهم ، وثبت بعضهم على إسلامه ، وحصلت ألفة بين من أسلم من البربر وبين من بقى فى إفريقية من غزاة العرب وحافظوا على إسلامهم ولأول مرة نسمع فيها أن جماعة من المسلمين استقروا فى إفريقية ، وهى بادرة تدل على اضمحلال شأن الروم ، وهى كذلك أول خطوة فى استقرار الإسلام فى إفريقية ، ومزاحمته للمسيحية فى دورها ومناطق نفوذها .

وما كادت الخلافة تفضى إلى معاوية بتنازل الحسن بن على له عنها فى ربيع الأول سنة ٤١ ، وبمبايعة المسلمين إياه بالخلافة^(١) فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ، وما كادت أمور المسلمين فى المدينة والحجاز تأخذ فى الاستقرار حتى أخذ معاوية يفكر فى فتح إفريقية ، فاختار لها معاوية بن حديج

(١) معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء دولة بنى أمية . وهى أول دولة إسلامية قامت على وجه الأرض بعد عهد النبوة والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم . وتوفى معاوية فى رجب سنة ٦٠ ودفن بالشام .. وتولى هذه الخلافة من بنى أمية أربعة عشر خليفة ، آخرهم مروان بن محمد بن مروان الأول . ومدة ملكها فى الشام اثنتان وتسعون سنة

لسابقة خبرته بها ، وأرسله إليها على رأس جيش من المسلمين سنة ٤٥ (١) وليس بصحيح ما قيل إنه أرسله إليها سنة ٤٠ لأنه في هذه السنة لم يتول خلافة المسلمين ، وأيضاً فإنه كان مشغولاً بمحاربة على .

سار ابن حديج إلى إفريقية ، ومر في طريقه بطرابلس ، فلم تبدأ أى مقاومة ويظهر أن قتل جرجير كان له أثر سيئ على نفوس الروم والبربر جعلهم لا يفكرون فيما وراء سببيلة وما حولها . وزاد في سوء حالهم الفتنة التى نشبت بينهم وبين هرقل بسبب طردهم مندوبه « أولية » لهذا تغافلوا عن طرابلس ولم يحاولوا الرجوع إليها ، وهذا ما شجع أهل طرابلس على الاحتفاظ بعهدهم مع العرب ، ولم يبدوا ضد ابن حديج أى مقاومة فانتهر ابن حديج مسلمتهم وولى عليهم من قبله رويفع بن ثابت ، وبذلك أمن انتفاضهم ، كما أمن طريق الرجعة فيما لو اضطر إلى الرجوع . وسار في طريقه إلى أن وصل القيروان وكانت غير مسكونة فبنى فيها مساكن ، وحفر آباراً كثيرة كانت تعرف بآبار حديج إلى منتصف المائة الثانية بعد الألف من الهجرة ، وفتح بنزرت وغنم فيها غنائم كثيرة . . . وقد عزله معاوية ابن أبى سفيان عن إفريقية ، ورجع إلى مصر سنة ٤٨ وولى بدله عقبة بن نافع . ثم سار معاوية إلى سببيلة ، وسبقته أخباره ، وبلغ قيصر الروم خبر هذا الغزو فأرسل نجدة إلى قرطاجنة على طريق البحر ، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب أنجم فهزموهم .

واستعد الروم للقائه فى جلّولا . ليكون دفاعهم عن سببيلة فى مواقع بعيدة عنها ، وهناك جمعوا جيشاً لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل ، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة ، ولم يلبثوا أن رجحت كفة العرب على الروم ، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها ، وحاول العرب اقتحامها عليهم فلم يقدروا . وجرح عامتهم واستشهد كثير منهم ، فتركوها ، ورجعوا عنها مرغمين .

(١) قدر بعض المؤرخين هذا الجيش بنحو عشرة آلاف . وكان من بينهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين .

انهدام سور جلولا (١)

كان انهدام سور جلولا كرامة من الله أكرم بها أولئك النفر من العرب الذين باعوا أنفسهم في الله وأخلصوا دينهم لله ، فبينما هم راجعون ، وقبل أن يتعدوا كثيراً انهدم سور جلولا من تلقاء نفسه ، وبدون سبب ، بعد أن وقفوا أمامه أياماً لا يقدرّون منه على شيء ، وقد تنبه بعضهم إلى ما ثار منه من غبار ، فلما تبينوا الأمر علموا أن السور انهدم ، فرجوا مسرعين ودخلوا المدينة عنوة ، وفر من الروم من نجى من القتل والأسر ، وغنموا كل ما حوته المدينة ، فكان كثيراً ، وكثيراً جداً . وقسمت الغنيمة على المقاتلين فكان سهم الراجل ٢٠٠ دينار ، وسهم الفارس ٦٠٠ دينار . . . وانتشرت خيل المسلمين في طول البلاد وعرضها ، وذهب السكان جانبهم وقدموا لهم الطاعة ، وأصبح الروم أشد ما يكونون جزءاً من هذه الضربات المتتالية التي أنزلها بهم العرب . . . ويقول صاحب المؤنس : « وفي هذه الغزوة فتح عبد الله بن الزبير مدينة سوسة وأبلى فيها بلاء حسناً » .

رويفع بن ثابت الأنصاري :

هو رويفع بن ثابت ، بن السكن ، بن عدى ، بن حارثة (٢) الأنصاري ، من بني مالك بن النجار ، صحابي ، وكان يسكن مصر . . . ولاه ابن حديج على طرابلس سنة ٤٦ . وغزا جربة من طرابلس وفتحها سنة ٤٧ ، وأمر أصحابه بأن لا يأتوا السبايا إلا بعد الاستبراء وقال لهم : إن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) جلولا - بفتح الجيم وتشديد اللام - اسم للمدينة كانت تبعد عن القيروان بأربعة وعشرين ميلاً تقريباً وهي الآن خراب . ويعرف مكانها بعين جلولا (خلاصة)

(٢) وقيل خارجة

قال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره » .
 ونهاهم عن استعمال دواب الغنيمة وأمتعتها إلا بعد القسم ورجع من عامه ،
 وتوفي ببرقة وهو أمير عليها سنة ٥٣ زمن ولاية مسلمة بن مخلد على مصر وإفريقية
 قبل معاوية بن أبي سفيان .

وكان قبر رويغ قد درس وانمحت معالمه ، وعلى غير قصد عثر إنسان
 على حجر مكتوب عليه : « هذا قبر رويغ بن ثابت الأنصاري صاحب رسول
 الله صلى الله عليه وسلم » ، فنذ ذلك أصبح معروفاً في برقة لا يختلف فيه اثنان
 تلمس عنده الرحمت بفضل صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم . وكان له جهاد
 في إفريقية وحضر فتح مصر .

سياسة الغزو :

لقد مر على العرب منذ أن غزوا إفريقية إلى آخر غزوات ابن حديج ست
 وعشرون سنة لم يمكنهم الاستقرار في إفريقية ، وإنما كانوا يكتفون من الروم
 بعقد الأمان ودفع الجزية أو الغرامة الحربية ويرحلون عن البلاد ، لأن أساليب
 حياتهم ما كانت تساعد على الإقامة في طرابلس أو في غيرها من البلاد
 الإفريقية . ذلك لأن سكان إفريقية كانوا كثيرين لا يحصون عدداً ، وكانوا
 يدينون بغير دين العرب ، وكانوا يعتبرون العرب غزاة فاتحين يجب عليهم
 أن يطردوهم عن بلادهم ، والعرب يعلمون هذا منهم ، لذلك ما كانوا يأمنون
 على أنفسهم من غدرهم ، خصوصاً وأن نجدة العرب كانت تأتيهم من مصر
 والشام والمدينة وهي بعيدة عنهم .

كان الروم لا يفون بالعهد ولا يحترمون المواثيق ، فكانوا كلما ارتحل العرب
 عنهم نقضوا عهودهم ، ومنعوا ما كانوا يؤدونه وارتد من أسلم منهم .

والمسلمون ما غزوا إفريقية لأجل المال ، أو لأجل التحكم في رقاب الناس ،

لأن الله فتح عليهم الشام ومصر والعراق قبل فتح إفريقية ، وفي هذه الأقطار من أسباب رخاء العيش ومنابع الثروة ما فيه الكفاية وفوق الكفاية ، ولكنهم غزوا إفريقية لنشر الإسلام وفضائله ، وتخليص البشرية من مظالم الروم ، ونشر العدالة والمساواة بين الناس ، ولذلك كانوا يكررون الغزو على إفريقية كلما نقض الروم عهودهم لتحقيق هذه الأغراض السامية مهما كلفهم الأمر من صعب وبذل أرواح . . . لهذا كان العرب يجاهدون ، ومن أجله كانوا يعملون . ولكن المستشرقين مثل كودل ، ودل ، وفورنل ممن كتبوا في تاريخ إفريقية لا يستسيغون أن يقال عن العرب إلا أنهم سلابون نهابون ، ولقد أكثروا في كتبهم عن فتح إفريقية من هذه المثالب ، ولنا فيما أجمعت عليه كتب التاريخ العربية ما يفند افتراءاتهم علينا . ولن نقول لهم أكثر مما قاله الله تعالى في أمثالهم : « قل موتوا بغيظكم » .

سرية عقبة :

يؤخذ من كلام ابن الأثير أنه كانت لعقبة جولة صحراوية فيما بين سنة ٤١ وسنة ٤٣ ، وصل فيها إلى غدامس ، فبدأ بإخضاع لواته في برقة ، ثم أخضع هواه ، وهم سكان سرت وما وراءها إلى الجنوب وإلى جبل نفوسة ، ووصل إلى غدامس ففتحها سنة ٤٢^(١) وفتح ما حولها من الواحات^(٢) ، ورجع إلى مصر سنة ٤٣ فوجد عمرو بن العاص في مرض موته وتوفي عمرو في شوال سنة ٤٣ ، وإذا صحت أخبار هذه السرية فإنها كانت في الفترة التي بين غزوتي ابن حديج .

(١) هذه رواية المؤنس

(٢) أقرب الواحات إلى غدامس هي درج ، وسيناون .

الفتح السادس

عقبة بن نافع

عقبة بن نافع الفهري ، من بني فهر ، بطن من بطون قريش . بطل من أبطال العرب ، جاهد فوق ، وحارب الكفار فأبلى ، حضر فتح مصر ، ودخل إفريقية فاتحاً عدة مرات ، قائداً تارة ، ومن أفراد المجاهدين تارة أخرى ، ووليها لمعاوية ، ولابنه يزيد . وهو الذي أسس مدينة القيروان ، وبني مسجدها الجامع وبه عرف ، وبني دار الإمارة قبلي الجامع . . . وفي أيامه أخذت قواعد الإسلام ترسو في إفريقية ، وتعاليمه تنتشر بين البربر ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، فأخذوا يعتنقونه ، وكان لهم منه أنصار . ويقال إن له صحة . . . وبسبب إخلاصه للإسلام وجهاده في سبيل الله أظهر الله على يديه الكرامات ، كما وقع له في ماء الفرس ووادي القيروان . وكان مجاب الدعوة ولد قبل الهجرة بسنة ، واستشهد في إفريقية سنة ٦٣ . شكر الله له وأكرم مثواه .

* * *

تقدم في ص ٢٣ أن عمرو بن العاص أرسل عقبة إلى زويلة سنة ٢٢ ، ففتحها وكان موفقاً ، وبعد رجوع عمرو من إفريقية عينه والياً على ما فتح منها ، وبقي في برقة . وشجاعة عقبة وكفايته في الحروب لا ينكرها عليه أحد . وفي المدة التي بقي فيها في برقة اكتسب خبرة بأحوال إفريقية وسكانها ، وعلى الأخص البربر لاختلاطه بهم في برقة ، فكانت هذه المميزات كفيلة بتوجيه نظر معاوية إلى اختياره لفتح إفريقية ، فأرسله عقب ابن حديج سنة ٤٩ .

وإذا علمنا أن ابن حديج رجع من عزونه الثانية في أوائل سنة ٤٨ هـ .
علمنا أن بين هاتين الغزوتين سنة أو ما يقاربها .

وقد ذكر ابن الحكم والبكري أن هذه الغزوة كانت سنة ٤٦ ، وعنهما نقلت ما ورد من تفاصيل أعماله في فتح فزان وغيرها ، وبناء القيروان . . .
ويظهر أن هذا التاريخ فيه شيء من التحريف ، فإن معاوية بن حديج كان في إفريقية سنة ٤٦ ورجع منها في أوائل سنة ٤٨ وهو معين عليها من قبل معاوية ،
وبعد أن يعين معاوية عقبة قبل رجوع ابن حديج ، فلا يبعد أن يكون الكاتب أراد أن يكتب ٤٩ فكتب ٤٦ ، وبين الرقمين شبه قريب جداً . فالظاهر أن غزوة عقبة هذه كانت سنة ٤٩ كما ذكره بعض المؤرخين ، وعليه فيكون دخوله إفريقية وبداية بناء القيروان سنة ٥٠ . . وعلى كل من الروايتين فإن عقبة كان في القيروان سنة ٥٠ . وقول صاحب نزهة الأنظار إن ابن حديج غزا إفريقية سنة خمسين لا يتفق مع الحقيقة .

سار عقبة إلى إفريقية في جيش من المسلمين ، وكان ابتداء مسيره من برقة لأنه كان مقبلاً بها . . . وفي معجم البلدان أن عقبة أضاف من أسلم من البربر إلى الجيش الذي أرسله إليه معاوية ، وسار حتى وصل إلى سرت فنزل بمكان يقال له مغمداس^(١) . وهو مكان غربي مدينة سرت القديمة في منتصف الطريق بينها وبين قصور حسان . هكذا ذكره البكري في كتابه « المغرب » ، وذكر أيضاً أن به صنماً ، وإلى جوار الصنم قصر بناه الأعرابي عامل سرت للعبيدين . . . وذكر بعض الكتب أن هذا القصر كان يعرف بقصر العبادي . وهو غير معروف الآن . ويشبه أن يكون قصر « بوهادي » الموحدة الآن بقاياها بقرب سرت الجديدة .

(١) جاء ذكر مغمداس في تاريخ البكري ، ونزهة الأنظار ، وسير الشاخي ، ورحلة العياشي . وقد اشتبه على كثير من المؤرخين فذكروه - غلطاً - باسم غدامس

وهذا ما أمكننا علمه عن تلك الآثار الدارسة التي يشبه أن يطبق على الحقيقة التي حال بيننا وبينها ألف وثلاثمائة وثلاث وعشرون سنة .

وقد بلغ عقبة أن بلاد ودان نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أبي أرتاة سنة ٢٣ ، وارتد من أسلم منهم على يديه ، فترك جيشه بمغمداس في أرض سرت ، وأتاب عنه في رياسة الجيش زهير بن قيس البلوى ، وعمر بن على القرشي ، وسار إليها في أربعمائة فارس ، وأربعمائة جمل ، على كل جمل قربتان لحمل الماء . ولما وصل إليها أبي أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً ، وقبض على ملكهم ففقطع أذنه جزاء له على نقض العهد ، وقال له : إذا مسست أذنك تذكرت فلا تحارب العرب ، وفرض عليه ثلاثمائة وستين رأساً من العبيد ، وأغرمه ما كان فرضه عليه بسر بن أبي أرتاة سنة ٢٣ .

ولما استتب لعقبة الأمر في بلاد ودان سار إلى جزيمة ، وهي العاصمة إذ ذاك لبلاد فزان ، وسميت جزيمة باسم أمة الجرمنت ، وهي أمة قديمة كانت تسكن فزان^(١) فلما دنا منها نزل غير بعيد ، ودعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا ، وقدم ملكهم الطاعة ، وفرض عليهم ٣٦٠ رأساً من العبيد ، واستمر عقبة في فتح بلاد فزان حتى أتى على آخرها ، ونشر فيها من تعاليم الإسلام ما اتسع له وقته ، وهذه أول مرة دخل فيها العرب بلاد فزان فاتحين .

ولما انتهى من فتح بلاد فزان لم يقتصر عليها ، فسأل أهلها هل من أحد وراءكم ؟ فقالوا له وراءنا قصر جاوان ، أوخاوار ، وهو عاصمة بلاد كاوار ، فسار إليه خمسة عشر يوماً ، فلما وصله دعا أهله إلى الإسلام فأبوا ، فطلب منهم

الجزية فامتنعوا واعتصموا بحصنهم ، فحاربهم ، وأقام على حصارهم شهراً فلم يقدر على فتحه ، فتركه وتقدم في الجنوب لفتح بقية بلاد كاوار ، ففتحها حتى أتى على آخرها ، وقبض على ملكهم وقطع إصبعه وقال له : إذا نظرت إلى إصبعك تذكرت فلا تحارب العرب ، وفرض عليه ثلاثمائة وستين رأساً من العبيد . . . وكان في نيته أن يتقدم إلى الجنوب وراء بلاد كاوار ، فسأل أهلها : هل وراءكم من أحد ؟ فقالوا لا نعلم أحداً ، فرجع . . . وفي رجوعه مر بقصر خاوار الذي كان استعصى عليه فتحه ، فوجد أهله ما زالوا معتصمين به ، فلم يتعرض له ، وتجاوزه بنحو ثلاث مراحل ، حتى ظن أهله أنه لا يرجع إليهم ، فاستأنوا وفتحوا أبواب الحصن . . . ونزل عقبة في مكان سمى بعد ذلك ماء الفرس^(١) ، وكان قبل ذلك قفراً لا ماء فيه . . . وسبب هذه التسمية أن عقبة وأصحابه نفد ما عندهم من الماء وعطشوا هم وحيواناتهم حتى قاربوا الهلاك . . . ومن عادات المسلمين إذا اشتد بهم الكرب لأى نازلة من نوازل الدهر لجأوا إلى الله بالصلاة والدعاء ، يستنزلون رحمته في تفريج ما نزل بهم ، فصلى عقبة وأصحابه ، ورفعوا أيديهم إلى السماء طالبين من الله أن يسقيهم — وكان عقبة مجاب الدعوة — وإذا بفرس عقبة تنبش الأرض برجلها حتى ينبع الماء من محل النبش فكرعت فيه ، فرأها عقبة تمص الماء ، فنادى في أصحابه أن احفروا الأرض ، فحفروا سبعين حسيماً فنبع الماء منها كلها ، فشربوا وسقوا حيواناتهم ، وأكرمهم الله بسبب إخلاصهم وجهادهم في سبيل الله ، ومن ذلك الوقت سمى هذا المكان ماء الفرس .

وقد استبشر عقبة بهذا الحادث ، فاعتزم الرجوع إلى قصر جاوان فربما أكرمهم الله بفتحها ، فلم يلبث بعد أن استراح قليلاً حتى رجع إليه هو وأصحابه ، وقد أيقن ساكنوه أن عقبة تركهم وذهب إلى سبيله ، فما شعروا حتى صبحهم

(١) جاءت قصة ماء الفرس في المؤنس وغيره

على غرة ، واقتحم عليهم الحصن ، فقتل مقاتلتهم ، وغنم كل ما فى الحصن ، وقفل هو وأصحابه حتى وصل زويلة ، وواصل سيره حتى وصل إلى معسكره بمغمداس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر .

لم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية ، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلى جنوبى جبل نفوسه ، وأرسل خيلاً إلى غدامس ففتحتها ، وواصل سيره إلى إفريقية . . . وقد رأى من الخير للمسلمين أن يتخذ لهم مدينة يتخذون منها مركزاً يلتجئون إليه ، ويعتصمون به من الروم والبربر . . . ولما وصل إلى مكان القيروان^(١) وجد فيه أرضاً متسعة فيها كثير من أنواع الشجر ملتف بعضها على بعض ، تسكنها الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية ، وبقرها سبخة ، فاخترها منزلاً له ، ومكاناً لبناء المدينة التى اعترم بناها ، وقد شكا إليه بعض الناس كثرة ما فيها من الوحوش والهوام ، فإذا صنع عقبة لإزالة هذه الشكوى ؟ جمع من فى معسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر^(٢) ، ثم ذهبوا إلى رأس الوادى ، ونادى عقبة بأعلى صوته : « يا أهل الوادى اضعنوا فإننا نازلون » ، وكررها ثلاث مرات ، فلم تنقض ثلاثة أيام حتى خرج كل ما فى الوادى من الوحوش ، وكان الناس ينظرون إلى الذئب والحيات تحمل صغارها خارجة لا تلوى على شىء استجابة لدعوة عقبة رضى الله عنه . وقد أكرمه الله باستجابة الدعوة جزاء لإخلاصه وقوة إيمانه . . . وجاء فى رياض النفوس أن عقبة قال فى ندائه : « أيتها السباع ارحلوا فإننا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فنظر الناس ذلك اليوم إلى أمر عظيم : نظروا إلى السباع تخرج إليهم من الشعراء^(٣) تحمل أشبالها ، والذئب يحمل أجراعه ، والحية تحمل

(١) القيروان مغرب كاروان الفارسية . وتكلمت به العرب قديماً . والنسبة إليه قيروانى ، وقيروى . ويطلق على القافلة وعلى الجيش ومناخ القافلة ، وموضع اجتماع الناس فى الحرب . ويظهر أنه أطلق على المكان لنزول الجيش فيه أو القافلة .

(٣) الأرض كثيرة الشجر .

(٢) وفى طبقات علماء إفريقية كانوا (٢٥)

أولادها سمعاً وطاعة . ثم نادى عقبة في الناس : « كفوا عنهم حتى يرحلوا » . وروى أنه دعا للقيروان بعد أن اختطها بقوله : « اللهم املأها علماً وفقهاً ، وأعمرها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزاً لدينك ، وذلاً على من كفر بك ، وأعز بها الإسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض » ، وروى عنه أنه اختار القيروان بعيداً من البحر خوفاً من أساطيل الروم ، واختارها قريبة من السبخة لانتفاع إبل العرب بما تنبتة من عشب صالح لرعى الإبل .

شرع عقبة في بناء مدينة القيروان . وقال صاحب الحلال السندسية : بنيت القيروان سنة ٥٠ ، ويريد أنه شرع في بنائها . وبنى بها المسجد الجامع الذي ما زال معروفاً بمسجد عقبة وبنى الناس فيها مساكنهم . وتم بناؤها في مدة خمس سنوات : أى سنة ٥٥ .

القيروان أول مدينة إسلامية بنيت في إفريقية ، ومسجدها أول مسجد بنى في إفريقية أيضاً . وقد أصبحت بعد ذلك مأوى للمسلمين ومقر قيادة جيوشهم في أكثر الحروب التي وقعت بعد بنائها .

وكان بناء القيروان من أكبر أسباب تثبيت أقدام المسلمين في إفريقية ، لأنها أصبحت حصناً لهم ، ومأوى لحريصهم وأثقاهم . وأخذ البربر يفدون عليهم فيها ، فكانت سبباً في اختلاطهم وبسبب هذا الاختلاط وجد العرب سبيلاً إلى بث الدعوة الإسلامية ، فأخذ البربر يتدقونها .

وفي أثناء قيام عقبة ببناء مدينة القيروان كان يغزو الروم والبربر ، ويرسل السرايا إلى طرابلس وجهات إفريقية لإخضاع من نقضوا العهد ، وإرهاب من تحدثه نفسه بالعصيان .

لم يحدثنا أحد من المؤرخين عما فعل عقبة بطرابلس في هذه الغزوة . وقد تقدم في ص ٦٣ أن ابن حديج عين عليها في غزوته الثانية رويغفا الأنصارى ، وأنه عاد من سنته تلك ، ويظهر أن طرابلس نقضت عهدها بعد أن غادرها رويغف ، لأن عقبة كان يرسل إليها الخيل لغزوها ، ولكن لم يذكر لنا أحد متى فتحها .

وعلى أثر هذه الغزوة المباركة ، وببركة العرب المجاهدين أخذ الأمن يستقر كما أخذت نفوس البربر تطمئن إلى الإسلام وتأنس بتعاليمه ، فأخذ ينتشر بينهم وأخذ أمر الروم في الاضمحلال ، وضعف نفوذهم على البربر ، واستوطن بعض العرب إفريقية ، وكثر التجاء الروم إلى حصونهم الساحلية بعد أن ذاقوا مرارة ضربات العرب القاتلة .

وعزل عقبة عن إفريقية سنة ٥٥ وتولاها بعده أبو المهاجر وسيأتي خبره ولمناسبة ذكر غدامس وفزان في فتح عقبة أحببنا أن نورد تعريفاً موجزاً بهما .

غدامس :

بغين معجمة مضمومة ، وبدال مهملة ، أو ذال معجمة . . . واسمها البربرى القديم « سيداموس » . وهي واحة من واحات طرابلس الصحراوية . ذات شكل مستدير تقريباً . وتقع في الجنوب الغربي من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠ كم ، على جهة المسامّة . أما على الطريق الذى يمر بالعزيرية ، وبئر الغنم ، وتيجي ، ونالوت ، ثم يذهب إلى سيناون فتبعد عنها حوالى ٦٥٨ كم ، وفيها بساتين وكثير من النخل^(١) . . . ويحيط بالمدينة والبساتين سور طول دوره نحو ستة كم ، وقطر دائرته من الشرق إلى الغرب ١٦٠٠ متر ، ومن الشمال إلى الجنوب ١٥٠٠ متر .

ويشرب سكانها ، ويستقون مزرعاتهم من الآبار ، ومن عين داخل السور قوية النبع ، عذبة الماء ، تصب في الدقيقة ٢٤٠٠ لتر من الماء ، وفي ماؤها ملوحة بنحو ٣ ٪ تقريباً .

وهي من أقدم مراكز الحضارة في صحراء طرابلس ، ولا يعرف زمن تأسيسها على التحديد . ويقال إنها معمورة من عصور ما قبل التاريخ . ووراء حدها

(١) يقال إن عدده يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألفاً

الغربي يقع الحد بين طرابلس وتونس . ويفهم من بعض التواريخ أن المسيحية دخلتها زمن استيلاء البيزنطيين على الشمال الإفريقي .

وفي سنة ١٩ ق م احتلها الروم ، وبقيت تابعة لهم إلى الفتح الإسلامي وسكانها الآن خليط من الأصول العربية والبربرية ، ويتكلمون العربية والبربرية ويعرف بعضهم اللغة السودانية بسبب كثرة أسفارهم للتجارة إلى السودان . ودخلها المذهب الإباضي حينما دخل إفريقية في أوائل القرن الثاني للهجرة ، ولم يلبث أن تقاص منها في القرن الرابع وخلفه مذهب مالك .

وتقع المدينة في الجنوب الغربي بداخل السور المحيط بها . وشوارعها ضيقة مظلمة منها ما هو مستقوف ، ومنها ما هو مقبوء على طراز المدن الصحراوية القديمة . وفي أيام الكاهنة البربرية اتخذت فيها سجونا للمجرمين ، وكانت في كثير من الأزمان مأوى للمنشقين والخارجين عن طاعة السلطان .

وأكثر سكانها يعتمدون في معيشتهم على التجارة مع طرابلس وتونس ، والسودان ومصر ، وهم مهرة في التجارة ، وقليل منهم يعيش على فلاحة البساتين وما يغله نخلهما الكثير من التمر . . .

وأكثر سكانها يتبعون على مذهب الإمام مالك ، وقليل منهم يتبعون على المذهب الإباضي . . .

وقد فتحها عقبة مرتين ، مرة حوالي سنة ٤٢^(١) ، والمرة الثانية سنة ٤٩ إذا صح أنها فتحت سنة ٤٢ .

ومنذ الفتح الإسلامي صارت تابعة لطرابلس . ولما احتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ م حاولوا أن يأخذوها من الدولة العثمانية ويأخذوها بالجزائر ولكن فشلت محاولاتهم وبقيت تابعة لطرابلس .

وفي سنة ١٨٤٢ م عين الأتراك فيها مديراً من طرفهم . وفي سنة ١٨٦٤ م رقيت إلى قائممقامية ، وعين فيها قائممقام .

(١) كان هذا الفتح في إحدى سراياه التي كان يغزو بها الأطراف وهو ببرقة .

فزان

واحة من واحات طرابلس الجنوبية ، يحدها من الشمال الجبال السود « الخروج » ومن الجنوب جبال التبو وحدود السودان ، ومن الغرب الطريق الذى يصل بين غدامس وغات ، ومن الشرق خط الطول فى الدرجة ١٨ وطولها شرقاً وغرباً ٩٠٠ كم وشمالاً وجنوباً ٨٠٠ كم ، وارتفاعها على سطح البحر نحو ٥٠٠ متر ، وبها وديان يبلغ انخفاضها فى بعض الأماكن نحو ١٥٠ متراً تحت سطح البحر ومساحتها أكثر من ٣٠٠ ألف كم مربع وقد ساق عليها الروم حملتين : واحدة سنة ١٩ ق م والثانية سنة ٣٧ م حتى وطدوا حكمهم فيها :

وقد ذكرها جرير فى شعره فقال :

قَفَرٌ تُشَابُهُ أَجَالُ النِّعَامِ بِهِ عِيداً تَلَاقَتْ بِهِ فِزَّانُ وَالنُّوبُ

والآجال جمع إجل ، وهو القطيع من بقر الوحش .

وفى زمن الفتح الإسلامى كان سكانها البربر وبعض السودانين ، أما الآن فسكانها خليط من أصول عربية وبربرية وسودانية ، وفيها قليل من الأصل التركى . وفى كثير من الأحيان كانت محل تنازع بين سكان الشمال وسكان الجنوب وكان الغالب من الطرفين هو الذى يتولى أمرها حتى فى زمن العرب والترك ، وحينما تضعف السلطة الطرابلسية تستقل بنفسها ، وتحكمها أسرة من سكانها ، أو أحد المغامرين الذين يسعون وراء الشهرة ، ومن هؤلاء المغامرين أسرة بنى خطاب التى ملكتها بين القرن العاشر ، والثانى عشر ، الميلادى ، ثم ملوك كانم ، وأولاد محمد من أصل مراکشى .

وأشهر بلادها : مُرْزُق ، وكانت عاصمتها أيام حكم الأتراك ، وتقع

إلى جنوبى سبته بمسافة ١٥٠ كم . وسبته ، ومركزها سبته أو الحديد ، وكانت عاصمة فزان قبل العهد التركى ، وتقع على الوادى الشرقى فى قلب فزان . ولما احتل الطليان فزان نقلوا إليها العاصمة من مرزق . وبراك ، وهى فى وادى الشاطئ شمالى سبته بنحو ٥٠ كم . وجرما ، وهى فى الوادى الشرقى ، فى الجنوب الغربى من سبته على مسافة ١٧٠ كم ، وهى مقابلة لجرما القديمة التى كانت عاصمة لفزان زمن الروم وما قبلهم^(١) ، ولا تزال خرائبها موجودة وهى التى فتحها عقبة بن نافع سنة ٤٩ .

وجرما هذه كانت موطناً للجرمانيين ، وهم أمة قديمة كانت تسكن فزان^(٢) . والقطرون ، وسميت باسم وادى القطرون — مع قلب النون قافاً — والنطرون معدن يستخرج من هذا الوادى ، ويسمى عند سكان فزان «الطرون» وهو مادة متحجرة بيضاء تشبه الشبة ترسب فى ماء يوجد فى هذا الوادى ، وتستعمل فى الدباغ . وأوبارى : وهى فى الوادى الغربى . وزويلة ، وكان الروم يسمونها «شيلالا» وتقع على مسافة ١٤٠ كم إلى الشرق من مرزق . وكانت عاصمة تلك المنطقة التى تسمى بها . وتسمى زويلة بنى خطاب^(٣) الذين ملكوا فزان من القرن الرابع الهجرى إلى سنة ٥٦٨ ، وكانت عاصمة ملكهم ، ولذلك نسبت إليهم . . . وبنو خطاب من البربر من قبيلة هواة . . . واديرى ، وتقع فى وادى الشاطئ على مسافة ١٢٠ كم إلى الغرب من براك . وكان حاكم فزان يسمى السلطان ، وهى تسمية قديمة يظهر أنها سرت إليهم من السودان ، لأنهم يطلقون كلمة سلطان على رئيس القبيلة .

وليس ببلاد فزان أنهار جارية ، وكل مزروعاتها — وهى قليلة — تسقى

(١) انظر لبدة

(٢) ربما كانت منسوبة إلى جرمانة قبيلة بربرية من بنى ماصات ، بطن من بطون لواته ، ودخلها شىء من التحريف

(٣) آخر ملوك بنى خطاب هو محمد بن خطاب الذى قتله قراقش سنة ٥٦٨ ، عذبه حتى مات

من الآبار بطريقة جر الدواب لآلات مخصوصة لإخراج الماء . . ومياها الجوفية كثيرة وقليلة الغور ، وهى تكفى لسقى أراضيها متى وجدت الأيدي العاملة . . . وتقل فيها الأمطار لأن منطقتها صحراوية . . وفيها من غابات النخيل شىء لا يحصى كثرة وفيها من أنواع التمر الجيدة ما لا يوجد فى غيرها . ونعود لوصل سلسلة الفتح ، ومن الذى تولاه بعد عزل عقبة عن إفريقية .

الفتح السابع

دينار أبو المهاجر

هو مولى لمسلمة بن مخلد . . وكان معاوية بن أبي سفيان عين مسلمة والياً على مصر وإفريقية سنة ٤٧ ، وهو أول من جمعت له الولاية عليهما ، فولى مسلمة من قبله على إفريقية مولاه ديناراً أبا المهاجر سنة ٥٥ ، وأوصاه أن يعزل عقبة في لين وحسن معاملة ، ولكن أبا المهاجر لم يعمل بوصية مسلمة ، وأساء إلى عقبة ، وضيق عليه ، حتى أصبح كالأسير عنده ، وخرب ما أسسه في القيروان .

وحارب أبو المهاجر الروم والبربر ، وأسلم على يديه كُسييلة بن لَمَزَم الأوربي البربري ، من أكبر رؤساء البربر إذ ذاك . . . ولما بلغ معاوية ما فعله أبو المهاجر بعقبة ، بعث في إشخاص عقبة إليه ، ولما وصل عقبة إلى مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد ، وأقسم له معتدراً أنه أوصى أبا المهاجر به خيراً . . . وقد أشار بعض الناس على مسلمة أن يبقى عقبة على إفريقية فأبى . . . ويظهر من هذا أن مسلمة يريد إمارة إفريقية لنفسه ، ولكن لا نعتقد أن معاملة أبي المهاجر لعقبة تلك المعاملة السيئة كانت بإيحاء من مسلمة لأننا نستبعد أن يقسم مسلمة حانثاً في اعتذاره لعقبة . . . وكل ما في الأمر أن أبا المهاجر أساء التصرف مخالفاً رغبة سيده في الإحسان إلى عقبة . . . ولما قدم عقبة على معاوية اعتذر له معاوية مما فعل أبو المهاجر .

الفتح الثامن

إمارة عقبة الثانية

كانت إمارة عقبة الثانية بدء دور جديد فى فتح إفريقية ، ومبعث نشاط فى البربر ما كان ملحوظاً قبلها . . . والذى يتتبع الحوادث منذ بداية الفتح على يد عمرو إلى إمارة عتمة الثانية لا يجد للبربر أثراً ملحوظاً فى الدفاع عن إفريقية . وكل ملاقاته العرب من مقاومة كانت من الروم ، ولا يخلو الأمر أن يكون مع الروم جماعة من الأفارقة والبربر يؤدون مهمة الجند ، أو المحافظة على الأمن ، فى الحصون والمدن ولكن لا توجد تلك التجمعات الكبيرة ، والجموع المحتشدة لرد غزو العرب مثل ما وقع أيام عقبة . . . وكل مقاومة الروم كانت فى المدن الساحلية وما قاربها . وإذا نظرنا إلى الطرق التى كان العرب يسلكونها فى غزوهم على إفريقية نجدها تمر فى قلب بلاد البربر ، وفى وسط منازلهم . فكانوا يمرّون ببرقة وهى موطن لُواته . ومنها يمرّون بسرت وما بعدها إلى طرابلس ، وهى موطن هواره ، ويقع على يسار طريقهم إلى إفريقية جبل نفوسة ، ولم يذكره أحد بعد فتح شروس ، وهذه القبائل الثلاثة من أكبر وأقوى قبائل البربر ، ومع ذلك لم يذكر المؤرخون لهم أى نشاط عدائى ضد العرب قبل إمارة عتمة الثانية . . . فوجود هذه الكثرة من قبائل البربر فى طريق العرب إلى إفريقية ، ولا يبدو مقاومة عنيفة فى ردهم عن بلادهم دليل على أن البربر نظروا إلى فتح العرب نظرة لا تتفق مع رغبات الروم ، نتيجة لما لاقوه منهم من سوء معاملة واستبداد فظائع . وسرى للبربر بعد إمارة عقبة الثانية مواقف فى مقاومة العرب حافلة بالشجاعة ، بل والاستماتة فى الدفاع عن إفريقية . . . وأقرب ما يعلل به

موقف البربر من الروم أن البربر كانوا مستائين من معاملة الروم واستبدادهم بهم ، فكانوا لا يبدون نشاطاً في نصرتهم . وقد انتهزوا فرصة غزو العرب فخلوا بينهم وبين الروم تشفياً فيهم ، وأملا في أن تدول دولتهم التي استعبدتهم واستنزفت أموالهم ، ثم يكون لهم مع العرب شأن آخر .

ولكن البربر بعدما رأوا ملاحم سيطرة بين العرب والروم ، وبعد أن قتل جرجير وهزمت جيوشه ، وكذلك بعدما رأوه من نشاط عقبة في فتح الجنوب ، وبناء القيروان وإرساله السرايا للغزو في جميع جهات إفريقية — بعد هذا كله تغير رأيهم في العرب وعلموا أنهم قوم لا تلين قناتهم ، وأنهم عازمون على جعل إفريقية عربية إسلامية مهما كلفهم ذلك من تضحية ، ومهما كان الثمن ، وأخذوا يتجمعون ضد العرب ، وأخذت مقاومتهم تشتد شيئاً فشيئاً ، وظهرت شدتها في تلك الجيوش التي قادها كسيلة الأوربي ضد العرب ، وفيما لاقاه عقبة من تلك الجموع الحاشدة .

* * *

ونعود إلى الكلام على إمارة عقبة الثانية :

بقي عقبة بعيداً عن إفريقية نحو عشر سنوات ، وفي سنة ٦٢ ، وبعد أن توفي معاوية بنحو سنتين ولاء يزيد بن معاوية على إفريقية ، وعزل أبا المهاجر الذي كان أساء عزل عقبة وأهاناه .

وقدم عقبة إفريقية ، وكان في مقدمة جيشه زهير بن قيس البلوي ، وما زال أبو المهاجر فيها ، فسلم الأمور إلى عقبة ، وقام بها خير قيام ، وقاتل الروم والبربر فكان موقفاً ، واصطحب معه أبا المهاجر ، وكان لا يمكنه من شيء حتى من القتال ، ولما عزم عقبة على المسير من القيروان إلى المغرب لفتحها قال لبنيه :

« يا بني إني بعت نفسي من الله ، ولا أدري ما يقضي علي في سفرى ،

يا بني إني أوصيكم بثلاث خصال ، فاحفظوها ولا تضيعوها : املأوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله . وخذوا من كلام العرب ما تهتدى به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق ، وأوصيكم ألا تتداینوا ، ولو بعم العباء ، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين فيفرقوا بينكم وبين الله ، ولا تأخذوا ديناً إلا من أهل الورع فإنه أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ونجا^(١) .

وتوغل عقبة في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى بحر الظلمات ، وكان أبو المهاجر برفقته ، وأدخل عقبة فرسه في البحر حتى وصل الماء إلى صدره ، وقال : « اللهم إني أشهدك ألا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لاجتزت ، اللهم إنك تعلم أني إنما أطلب السبب الذي طلبه وليك ذو القرنين ألا يعبد إلا الله ، اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك^(٢) » .

بعد أن وصل عقبة إلى البحر فقل راجعاً ، وفي أثناء رجوعه حاصرتة قبيلة المصامدة في جبال درن ، فأنجذته زناته في جموع هائلة ، وخلصته من الحصار ومر بمدينة تهود في أرض الزاب ، فدعا أهلها إلى الإسلام فلم يجيبوا فحاربهم وكان معه كسيلة ابن لَمَزَم البرنسي من قبيلة أوربة البربرية^(٣) ومن زعماء البربر المشهورين وكان قد أسلم ، ولكنه ارتد — قالوا لمعاملة ساعته من عقبة — فأخبر البربر بقالة جيش عقبة^(٤) . وانضم إليهم وجمع جموعاً كثيرة لقتال عقبة . وفي

(١) خلاصة تاريخ تونس .

(٢) هذا الدعاء مجموع روايات متعددة

(٣) قال في سبائك الذهب : بنو أوربة : بفتح الهمزة والراء المهمله والباء الموحدة : بطن من البرانس من البربر ، وهم بنو أوربة بن برنس ، بن بربر ، غلب عليهم اسم أبيهم فقبيل لهم أوربة .

(٤) قال العلامة حسن حسني في خلاصة تاريخ تونس : « ولما كان عقبة بوسط طريقه تقدمته جيوشه ولم يبق معه إلا نفر قليل من حماهم كسيلة الزعيم البربري الذي كان أسيراً عند عقبة ، فاغتنم كسيلة تلك الفرصة ، وأعلم قومه بقتله المسلمين ، فهجم البربر فجأة على عقبة وأصحابه ، وكانوا نحو ثلاثمائة ، فقاتلوا قتال الأبطال ، وتكاثر عليهم العدو فاستشهدوا جميعاً في مصرع واحد سنة ٦٤

أثناء ما كان عقبة راجعاً سرح كثيراً من الجيش ليلحقوا بالقيروان . وفي ذات يوم كان عقبة في قلعة من أصحابه نحو ٣٠٠ فتعرض لهم كسيلة في جموع هائلة من البربر ، ولما أيقن هو وأصحابه أنه أحيط بهم ، وألا مفر من الموت ، استلوا سيوفهم وكسروا أغمادها ، وقتلوا حتى استشهدوا عن آخرهم رضى الله عنهم . وكان معهم أبو المهاجر . وما زالت قبورهم معروفة بمدينة تهود ، يزورها المسلمون ، ويتذكرون عندها تضحية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل دين الله . . . وكانت هذه الواقعة سنة ٦٣ (١) . . واجتمع على كسيلة البربر وعظم شأنه ، وكثرت جموعه ، وانتشرت الردة بين البربر .

زهير بن قيس :

لم يكن بد للمسلمين من تولية رئيس عليهم بعد قتل عقبة ، فوقع اختيارهم على زهير بن قيس البلوى ، وعمر بن محمد القرشي ، واستمر العرب في قتال البربر ، وكان ابن الكاهنة من رؤسائهم البارزين فتغلبوا عليه ، وقتلوه هو وأصحابه . واشتدت حمية البربر ، وتألبوا على العرب في جموع كبيرة ، فراجع زهير وأصحابه إلى القيروان ، وكان لمقتل عقبة أثر سيئ على نفوس المسلمين ، وظهر أثر ذلك على قوتهم المعنوية ، فإنه لما زحف كسيلة في جيوشه الكثيرة على القيروان حاول زهير أن يستنهض همم المسلمين للقائه ، فامتنعوا لكثرة ما كان معه من الجيوش ، فارتحل زهير وكثير من الناس إلى برقة وبقي بعضهم بطرابلس ، ودخل كسيلة القيروان في المحرم سنة ٦٤ .

وكانت القيروان قد مر على تأسيسها نحو أربع عشرة سنة ، فكثرت عمرانها وتم بناء مسجد الجوامع ، وأصبحت مأوى للمسلمين من العرب والبربر على

(١) في خلاصة تاريخ تونس أن هذه الواقعة كانت سنة ٦٤ ، وسيأتى أن كسيلة دخل القيروان في المحرم سنة ٦٤ . وإذا فتكون الواقعة في أول المحرم ، ودخول كسيلة القيروان في آخره

السواء، ولم ينكّل كسيلة بسكانها لأسباب قد يكون من أهمها صلة القرابة التي ما تزال بين من أسلم من البربر وبين قبائلهم الضاربة حول القيروان ، وصلة الدين التي بينهم وبين العرب . وقد يكون من أسباب عدم التنكيل بهم عدم المقاومة . فخاف كسيلة اضطراب الأحوال إذا امتدت يده إلى سكان القيروان بسوء ، فأبقى عليها واكتفى بخروج زهير منها^(١) . وبقى كسيلة في القيروان خمس سنوات واتفق هذا مع موت يزيد بن معاوية مع ما قارنه من فتنة الضحالك ابن قيس مع المروانية ففشّت الردة في زناتة والبرانس .

سار زهير إلى أن وصل برقة فنزل بها سنة ٦٤ . وتولى عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ وقد استفحل أمر كسيلة في إفريقية ، فطلب الناس إلى عبد الملك أن ينظر في أمر إفريقية ، فقال : « ما أرى أحق بطلب دم عقبة من الروم والبربر من زهير لدينه وورعه » . وهذه شهادة من عبد الملك بمكانة زهير ، واحترامه . وكان قد مر على زهير في برقة نحو خمس سنوات . وقد أمده عبد الملك بالجيوش والأموال وهو في برقة ، وأمره بالسير إلى إفريقية لمحاربة البربر وحماية المسلمين فيها .

ولاية زهير بن قيس

جاء في كتاب المؤنس « أن زهير بن قيس البلوى قدم إلى إفريقية والياً عليها من قبل عبد الملك ابن مروان سنة ٦٩ ، وقد أمده بالأموال والرجال والخليل ، وحشد له وجوه العرب » . وذكر في خلاصة تاريخ تونس أن زهيراً كان عاملاً على برقة لعبد الملك بن مروان .

سار زهير في الطريق الساحلى . وإذا استثنينا غزوة عقبة التي مر فيها

(١) في معالم الإيمان : جاء كسيلة بجموعه إلى القيروان ففر كثير من الناس ، وبقى فيها العجزة والمثقلون من أصحاب التجارة فأرسلوا إلى كسيلة يطلبون الأمان فأمهم

بمغمداس ، وسلك فيها الطريق الذى يمرجنوبى جبل نفوسة قاصداً إلى غدامس ، ومنها ذهب إلى إفريقية نجد كل الغزوات فى فتح إفريقية سلكت الطريق الساحلى . ولا ندرى هل ترك زهير نائباً عنه فى برقة أولا ، ولم يذكّر أحد ماذا فعل فى طرابلس .

ولما قارب القيروان سمع به كسيلة ، فرحل عن القيروان خوفاً أن يثور به المسلمون ، الموجودون فيها انتصاراً لزهير ، وقال لمن معه : « إن هزمناهم إلى أطرابلس كان المغرب لنا الدهر ، وإن هزمونا كانت الجبال والصحراء قريبة منا نتحصن بها » .

ودخل زهير القيروان بدون حرب ، ولم يكتف باحتلال المدينة ، بل اقتنى أثر كسيلة خارج القيروان . وفى اليوم الرابع من خروج كسيلة من القيروان صبحه زهير بجيش المسلمين ، وبعد أن صلى الصبح اشتبكوا فى حرب طاحنة حتى يئس الناس من الحياة ، وقتل كسيلة بممس ، وقتل من البربر خلق كثير ، وأمعن العرب فى مطاردتهم وقتلهم ، وحالوا بينهم وبين الجبال حتى لا يتحصنوا بها ، كما قدر كسيلة حينما اقترح على من معه الرحيل من القيروان . وكان البرانس — قوم كسيلة — طعمته لهذه المعركة الدامية . . وبعد معارك زهير مع البربر وقتل كسيلة كثر نزوحهم من إفريقية والتجأت جمهرتهم إلى المغرب .

ورأى زهير أن مهمته قد انتهت ، خصوصاً وأنه أخذ بثأر عقبة بقتل كسيلة ، وكان شديد الورع كثير العبادة ، فخاف أن تتأثر نفسه بنشوة النصر فتطمح إلى الحكم ، فرجع إلى المشرق ، وترك القيروان آمناً يسكنها كثير من العرب . . وبسبب هذه المعركة ذل البربر ، واضمحل شأنهم ، ولزموا القلاع والحصون ورهبوا جانب العرب .

ولم نطالع على الأسباب التى دعت زهيراً لترك القيروان ورجوعه إلى المشرق وما زالت الحال فى حاجة إلى توطيد حكم العرب — إلا أنه لشدة ورعه خاف

أن تتأثر نفسه بنشوة النصر فتطمح إلى الحكم .

قلنا آنفاً لا ندري هل ترك زهير نائباً عنه في برقة أو في طرابلس ، وقد وجد الروم فرصة لقطع الطريق عن زهير عند رجوعه إلى الشرق ، فجهزوا جيشاً في صقلية واحتلوا به برقة ، وأساعوا معاملة المسلمين فيها وصاروا يترقبون رجوع زهير ، و يترصدون به ، ولو ترك زهير من يلي أمر برقة لما تمكن الروم من احتلالها ، ولا اتخذوا لكل ما يحدث من حركاتهم ما يحبطها ، ولكنه لم يفعل ؛ فكانت فرصة انتهزها الروم للغدر به وبالمسلمين في برقة . وهكذا كان .

يقول صاحب المؤنس : إن زهيراً لما وصل إلى درنة عرج على طريق البحر في نفر قليل من أصحابه ، فرأى بعض المسلمين في أسر النصارى يحاولون إدخالهم في مراكزهم ، فاستغاثوا به فحاول إنقاذهم ، ولكن جموع الروم تغلبت عليه هو وأصحابه ، وقتلوا حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك سنة ٧١ . ووافقه على هذه الرواية صاحباً نزهة الأنظار والحلل السندسية . وسيأتى سبب آخر لاستشهادهم .

وقصة زهير هذه أشبه بقصة عقبة التي قتل فيها ، فهو بانخيازه إلى طريق الساحل في نفر قليل من أصحابه فعل كما فعل عقبة حينما أمر الجيش بالذهاب إلى القيروان وبقى في نفر قليل . وقد ذهب زهير ضحية هذا التدبير ، كما ذهب عقبة ضحية تدبير مثله .

الفتح التاسع

حسان بن النعمان

بعد أن استشهد عقبة ، ورجع زهير إلى المشرق انتشرت الردة في إفريقية بين البربر كمعادتهم في كل مرة . بعد أن يرجع العرب إلى الشرق ، وتمردوا على العرب ، ونقضوا عهودهم ونزعت نفوسهم إلى الثورة . قال بعض المؤرخين إن فتح حسان هو الفتح الحقيقي .

وكان حسان بن النعمان آن ذاك والياً على مصر من قبل عبد الملك بن مروان ، فأضاف إليه ولاية المغرب ابتداء من أجداية ، ويشمل إفريقية كلها ، وكان ذلك سنة ٧٧^(١) وأمره بالخروج إلى إفريقية لفتحها ، وأطلق يده في أموال مصر يعطى منها من شاء كيف شاء . في جيش قوامه أربعون ألف مجاهد على رواية ابن عذارى وغيره . ويقول ابن الأثير إنه أكبر جيش دخل إفريقية فيما تقدمه من الغزوات . ولما وصل طرابلس نزل بها ، واجتمع عليه من كان خرج من إفريقية . . .

ويقول ابن عبد الحكم : وأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية برياسة هلال ابن ثروان اللواتي وزهير بن قيس الباوي ، فغزت بعض الأطراف ، وأصاب

(١) هذا التاريخ ذكره صاحب المؤنس ، وصاحب لب التاريخ . وفي خلاصة تاريخ تونس وفي البيان المغرب أنه كان سنة ٧٨ . وذكر صاحب الخلاصة أنه عين سنة ٧٨ ، ودخل إفريقية سنة ٧٩ . وذكر ابن عبد الحكم أنه كان سنة ٧٣ . وفي الحلل السندسية سنة ٧٩ . وفي نزهة الأنظار سنة ٦٩ ، ودامت ولايته إلى سنة ٨٨ . ونجد بين بعض هذه التواريخ تضارباً كبيراً ، وبالرغم على ما بينها من اختلاف نجدها مجمعة على دخول حسان إفريقية ، ونجد بينها شبه إجماع على تفاصيل ما حدث له فيها

غنائم . . وهنا نلاحظ أن زهيراً كان في مقدمة جيش حسان ، وهذا يخالف ما تقدم من أنه استشهد في رجوعه إلى المشرق بعد قتل كسيلة ، ويؤيد قصة استشاده الآتية .

ويظهر أن طرابلس بقيت على عهدها مع العرب من أيام عقبة فر بها حسان آمناً مطمئناً . ويؤيد هذا أن أحداً من المؤرخين لم يذكر أن حساناً فتحها في هذه الغزوة ، وأيضاً فقد قدمنا أن صلتها ببرقة أصبحت أقوى من صلتها بحكم جرجير في إفريقية . وأيضاً فإنه لما هزمته الكاهنة نزل في أراضيها الشرقية .

وإذا نظرنا إلى أن هلال بن ثروان هو أول بربرى مسلم تسند إليه رئاسة جماعة من العرب الفاتحين دلنا هذا على أن البربر أصبحوا يطمشون للعرب الفاتحين وللدین الجديد .

وصل حسان إلى القيروان ودخلها بدون أن يعترض سبيله أحد ، وهذا يدل على أن الروم لم يدخلوها بعد أن غادرها زهير ، ويؤكد أنها بقيت على ولائها ويرجح أن طرابلس بقيت أيضاً على مثل هذا الولاء .

ولما استقر حسان سأل أهل القيروان عن أعظم الملوك في إفريقية ، فدلوه على حاكم قرطاجنة ، وكانت أكبر مدينة في الشمال الإفريقي ، وبها خلق كثير من الروم والبربر ، وكانت في منعة من كثرة الجند والحصون القوية فغزاها حسان ، وقاتل أهلها دونها قتال المستميت . وطال حصارها . وهدم العرب قناتها التي كانت تأتيها بالماء من جبل زغوان فتقطع عنها الماء . ولم يزل بها العرب حتى فتحوها عنوة ، وخرّبوا بعض أبراجها حتى لا يحتوى بها الروم والبربر مرة ثانية . وقتل فيها خلق كثير . وفر بعض أهلها في السفن البحرية إلى صقاية والأندلس . ولجأ بعض البربر إلى برقة ، ورجع حسان بجيشه إلى القيروان . وانتهوا من فتح قرطاجنة سنة ٧٨ .

وهذه أول غزوة عربية على قرطاجنة ، لأن العرب كانوا يتحاشونها لمناعتها وقربها من البحر . وكانت تعتز بما حولها من المدن ، حتى إذا ما تداعت الواحدة تلو الأخرى انفسح الطريق بينها وبين العرب ، ووجد حسان القوة الكافية لمهاجمتها ، فهاجمها ووفق في فتحها .

ثم سأل حسان : هل بقي أحد من البربر له شوكة ؟ فقالوا له : امرأة ساحرة بجبال أوراس تسمى الكاهنة ، فإن قتلها دان لك المغرب كله .

الكاهنة

امرأة بربرية ذات حول وسلطان على البربر ، احترفت السحر والكهانة ومن هذا الطريق اكتسبت سلطانها . . اسمها داهيا بنت ماتيا^(١) الزناتية . أو بنت ينفاق ، أو بنت تابتة . وقال ابن خلدون : اسمها دهايا . وهى من قبيلة جراوة ، من زناتة القبيلة البربرية المشهورة . ويقال إن جراوة تهودت قبل الإسلام . وكانت الكاهنة بارعة في علم الكهانة ، تستوحى الشياطين علم ما غاب عنها . وكانت قوية الإرادة ، شديدة البطش ، استطاعت بقرتها أن تملئ إرادتها على البربر وتحكمهم . وقد أضفت على نفسها - من طريق الكهانة - صفة البركة والولاية ، فكان العامة يعتقدون فيها ذلك . وقد أمكنها أن تهيمن على عقولهم من هذا الطريق ، طريق الدجل والشعوذة ، واستعملت سلطانها إلى أبعد حد في تمكين هذه الحقيقة من عقولهم ، وبذلك سهل عليها أن تسودهم وتسيطر عليهم . . . وقد شمل نفوذها أكثر إفريقيا ، وكان الروم يهابونها ، واستغلوها ضد العرب إلى أبعد حدود الاستغلال ، ويطيعها البربر

(١) في خلاصة تاريخ ترنس : دهايا بنت تابتة

طاعة عمياء . . . وهى تقيم بجبل أوراس^(١) .

وقد رأى حسان أنه لا بد له من القضاء على هذه الكاهنة حتى يمكنه فتح إفريقية ونشر تعاليم الإسلام فيها ، فجمع جيشه وغزاها بجبال أوراس ، والتحم الفريقان فى معارك كانت دامية ، وكانت من أشدها معركة وادى سككاته ، فقد نزل فيها البلاء بالمسلمين ، وهزم حسان وجيشه ، وقتل من العرب خلق كثير ، وأسر منهم ثمانون رجلا . ومن شدة ما نزل بهم سعى ذلك اليوم يوم البلاء ، وسمى الوادى وادى البلاء . . . وأفلت حسان مع من بقى من جيشه ، والتجأ إلى جهة طرابلس . وطاردته الكاهنة حتى حدود قابس الشرقية ثم رجعت ولم تدخل القيروان . . .

وأرسل حسان بنجر هزيمته إلى عبد الملك وقال له : « إن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم^(٢) » . فأرسل إليه عبد الملك أن ينتظر حيث أدركه كتابه ، فأدركه فى أراضى سرت من الناحية الغربية ، فأقام بها خمس سنوات ينتظر المدد ، وبنى بها قصرين ما زالت آثارهما تعرف بـ « صور حسان » وأتاه المدد سنة ٨٤ .

وبعد هزيمة حسان خلا الجو للكاهنة فى إفريقية ، وعاد نفوذها عليها ما عدا القيروان ، وأحسنّت إلى من أسرتهم من العرب ، وأطلقت سراحهم . وقد علمت — من طريق الكهانة — أن العرب سيتغلبون عليها ويزيلون ملكها ، فأبقت لديها من الأسرى خالد بن يزيد العيسى ليكون لها واسطة عند العرب إذا ما أحرق بها الخطر ، وكان وسيم الوجه حسن الطلعة ، وقد أرادت أن يكون لها محروماً لتتمكن من التحدث إليه كابن لها ، وهى له كأم ، ولم يكن أمامها ما يحقق هذه الرغبة إلا طريق الرضاع ، فقالت له أريد أن أرضعك

(١) الأوراس : سلسلة جبال بالجنوب الشرق من قسنطينة بالجزائر

(٢) البيان المغرب

لتكون أنحاً لولدى ، فقال لها كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع ؟
 فقالت له : إننا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا عملناه ، ثم عمدت إلى
 سوق من دقيق الشعير فالتته بزيت — وهو ما يسميه المغاربة بسياسة — ثم
 جعلته على ثديها ، ثم أمرت ولديها أن يأكلوا مع خالد من ذلك الدقيق الملتوت
 بالزيت ، فقالت لهم : « أنتم إخوة من الرضاع » .

خراب إفريقية :

رأت الكاهنة — في تفكيرها الخاطيء — أن العرب إنما يأتون إلى إفريقية
 طمعاً في ثروتها وخيراتها ، فأشارت على قومها بأن العرب إنما يأتون إفريقية
 طمعاً في أشجارها وثمارها ، ويقصدون المدن طمعاً فيما فيها من الذهب والفضة ،
 ونحن إنما نريد من إفريقية المزارع والمراعي والحيوانات ، فإذا ما قطعنا أشجارها
 وخربنا مدنها وقرىها انقطع العرب عن غزوها ، فالرأى عندى تخريب المدن
 والحصون وقطع الأشجار حتى تقنطع أطماع العرب ^(١) — وكانت إفريقية
 بساتين مزروعة ، ومروجاً خضراء ، وقرى متصلة ، ومدناً منظمة من طرابلس
 إلى طنجة — فأرسلت عمالاً إلى كل ناحية يقطعون الشجر ، ويحرقون الغابات
 والأحراش ، ويهدمون القرى والمدن ، حتى أتت على كل ما فيها من
 عمران ، وتركها خراباً يباباً من طرابلس إلى طنجة ، وانعدم العمران الإفريقي
 كله ، فاضطر كثير من البربر والروم إلى الجلاء عن إفريقية إلى الأندلس
 وجزائر البحر الأبيض . . . وقد ضربت الكاهنة بهذه السياسة
 النسائية الخرقاء الرقم القياسى في الجهل بمعرفة مقاصد العرب وتقدير العواقب ،
 فكان عملها هذا أقوى معول استعمل في هدم ملكها وزوال سلطانها . واستاء
 الروم والبربر مما فعلت واضطر كثير منهم إلى الجلاء عن إفريقية إلى الأندلس

(١) خلاصة تاريخ تونس .

وجزائر البحر الأبيض ، وفترت عزائمهم في الدفاع عن إفريقية ، لأنهم إنما كانوا يدافعون عن أملاكهم وموارد رزقهم ، وحيث إن الكاهنة أتت على ما فيها من موارد الثروة وجمال العمران وتركتهن ضحية للفقر والجوع فليس من سبب يدعوهم إلى بذل أرواحهم من أجل أرض أصبحت خراباً بلمعاً . وذهب كثير منهم إلى حسان يشكون إليه فعل الكاهنة ويستنجدون به عليها فأكرم وفادتهم ، وانتهزها فرصة للانتصار بهم على الكاهنة . فأجاب طلبهم .

وكانت الكاهنة تهدف بعملها هذا إلى صرف أنظار العرب عن إفريقية وهماً منها أنهم إنما يترددون عليها للسلب والنهب . وفاتها أنهم إنما كانوا يغزون إفريقية لنشر تعاليم الإسلام ، وإنقاذ البربر من ظلمات الوثنية وما كانوا فيه من شرك ، ولذلك فإن عملها جاء بضد ما قصدت إليه ، وكان سبباً في فشل سياستها الخرقاء (١) .

واتصل حسان بخالد سرّاً يستفسر منه عن أمر الكاهنة والبربر ، فكتب إليه في ظهر كتابه : « إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم ، وإنما ابتلينا بأمر أراد الله عز وجل أن يكرم به من مضى ، فاطو المراحل ، وجد في السير ، فإن الأمر لله ، ولن يسلمك إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » (٢) . وجاء المدد من عبد الملك إلى حسان سنة ٨٤ بأربعين ألف مقاتل . ورأى حسان الفرصة سانحة لإعادة الكرة على الكاهنة لتذمر البربر من أعمالها ولوصول المدد ، فجمع جيشه وسار إلى إفريقية ، ولقيه الروم والبربر مستغيثين به مما فعلت

(١) إن ما قامت به الكاهنة من أعمال التخريب في إفريقية هو أساس خرابها . وقد زاد في خرابها تلك الحروب الطاحنة المتوالية فما كانت تنتهى من حرب حتى تنشب أخرى ، فلم تنج لأهلها فرصة يستردون فيها ما فقدت من منابع الثروة ووسائل العمران . وقد أسس فيها حسان مبادئ عمران ، وأحدث فيها الأغلبية من وسائله كثيراً ، ولكنها لم تعد إلى ما كانت عليه

(٢) ذكر هذا صاحب الحلل السندسية . ويقال إن خالداً أرسل الجواب في رغي من خبز الملة ، فأخبرت قومها بأن زوال ملكهم في شيء يأكلونه . وأرسل جواباً آخر في قربوس السرج ، فأخبرتهم بأن زوال ملكهم في خشبة

الكاهنة ، فاسبشر خيراً وتقدم لملاقاتها ، والتقى بجيشها بقصر ألجم^(١) - وكانت متحصنة فيه - ونشبت بينهما حرب قاسية ظن أنها الفناء ، وظهر الضعف على جيوش الكاهنة . . . وكانت أخبرت ولديها ويزيد بن خالد العبسي أنها مقتولة لا محالة ، وكأنها ترى رأسها يركض به فارس إلى جهة المشرق . فقال لها خالد وابناها : إذا كان الأمر كذلك فاتركي البلد لحسان وارجعي بنا ، فقالت كيف أفر وأنا ملكة والملوك لا تفر ، فأقلد قومي عاراً إلى آخر الدهر ؟ فقالوا لها : ألا تخافين على قومك ؟ ، فقالت إذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحداً . ولما أحاطت بها جيوش العرب وعلمت أنها مقتولة لا محالة طلبت من خالد بن يزيد أن يطلب الأمان لابنيها من حسان ، وقالت له : « إنما تبنيك لمثل هذا اليوم » ، وأمرت ولديها وخالد أن يذهبوا إلى حسان ، فذهبوا إليه ليلاً ، وأخذ لهما خالد الأمان ، وقال لحسان : لقد علمت من طريق الكهانة أنها مقتولة . . . ولما احتدم القتال نزلت إلى المعركة بنفسها نائرة ناشرة شعرها ، وقاتلت حتى انهزمت فتبعها حسان حتى قتلها بمكان ما زال يعرف ببئر الكاهنة بقرب جبل أوراس ، وهو موطن جراوة قبيلة الكاهنة . . . وقيل قتلها بطبرقة . ويقال إن حساناً قطع رأسها وأرسله إلى عبد الملك سنة ٨٤^(٢) . . . وبعد قتلها أخذ البربر إلى الطاعة واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام .

(١) قصر أو حصن ألجم ، هو من أشهر حصون إفريقية وأمنعها ، يبلغ علوه مائة ذراع ، ودوره ميل ، حوصرت فيه الكاهنة . وجاء في رحلة محمد بك فريد أنه ما بين صفاقس وسوسة ، وهو بقايا تياترو روماني قديم ضخم البناء ، ويتكون من ست طبقات كلها من الحجر . وتوجد بجواره قرية عربية تسمى ألجم . وهذه القرية أقيمت على أطلال مدينة رومانية تسمى تيدروس . . . وقال في خلاصة تاريخ تونس : ألجم ، واسمها الروماني « توسدروس » مدينة صغيرة يعمل المهدية في منتصف الطريق بين سوسة وصفاقس ، اشتهرت بأنها ملعب لمبارزة الحيوان : طوله ١٥٠ متراً وعرضه ١٢٥ ، وارتفاعه ٣٦ متراً ، وهو من أكبر المراسح الموجودة في العالم ، وما زال هذا البناء قائماً يقصده السياح من جميع الآفاق

(٢) يقال إنها كانت ضخمة الجسم جداً ، حتى إنها لما قتلت قال من رآها : إن الأترجة يمكن أن تتدحرج بين كتفيها وعجزيتها لكثرة اللحم حول فقار ظهرها

وطلب البربر الصلح من حسان ، فاشتراط عليهم أن يقدموا له اثني عشر ألفاً من المحاربين يكونون في صفوف الجهاد ، فرضوا بذلك ، وولى عليهم ابني الكاهنة ، كل واحد على ٦٠٠٠ ، وأرسلهم إلى المغرب للجهاد يقاتلون الروم ومن لم يسلم من البربر . وكان مقتل الكاهنة في رمضان سنة ٨٤ (١) ، وحسن إسلام كثير من البربر ودانوا بالطاعة .

ودون حسان الدواوين ، وجعل اللغة العربية في دواوين الحكومة هي الرسمية ووزع الأراضي على فقراء البربر بعد أن كانت ملكاً للحكومة البيزنطية ، فازدادوا رغبة في الإسلام . وفرض الخراج على الأراضي ، وجدد بناء جامع القيروان . وبإصلاحات حسان انتعشت إفريقية وكثر عمرانها ، ولا شك أن هذا الإصلاح شمل طرابلس لأنها كانت تابعة للقيروان إذ ذاك .

ويمكن القول بأن أعمال حسان في إفريقية كانت بداية لنهاية فتحها ، لأن ما وضعه حسان من نظم مبدئية ، وإشراك البربر في الفتح ، وفي رئاسة الأجناد ، وما لمسوه من مساواتهم بالعرب في الحقوق — كل هذا كان سبباً في اطمئنان نفوسهم نحو العرب ، وميلهم لاعتناق الإسلام ، وقوى أملهم في الاستقرار فأخذوا يعملون — باعتناقهم الإسلام وانحيازهم إلى صفوف العرب — لقتال الروم ومن انضم إليهم من الأفارقة والبربر للتعجيل بقطع دابر الفتنة واستتباب الراحة . وحكمت الكاهنة البربر خمساً وثلاثين سنة ، وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة وبعد قتلها تشنت شمل البربر ، ولم تبق لهم رئاسة تجمعهم مما سهل انضمامهم إلى حسان وغيره من رؤساء العرب الفاتحين . . . وكان وجودها ووجود كسيلة أكبر عقبة في تقدم الفتح الإسلامي . وبعد موتها أخذ الإسلام في الانتشار ، وقواعده في الرسوخ . . . وأخذ البربر يشاركون في وضع الخطط

(١) قال في البيان المغرب : إن غزوات حسان وقتله الكاهنة لم تضبط تواريخها ، وأن عزل حسان بن النعمان ، وتولية موسى بن نصير كانا من عبد العزيز ، وبدون إذن أخيه عبد الملك

في إفريقية ، وصاروا يقتسمون النىء مع المجاهدين ، وحسنت طاعتهم .
ورجع حسان إلى القيروان وأقام بها ، واستقامت له الأمور ، وهو أول
من دون الدواوين ، ووضع الخراج على الروم ، وعلى من بقى من البربر معهم
على دين النصرانية ، وجدد جامع القيروان في رمضان سنة ٨٤ ما عدا المحراب .
ورجع حسان إلى المشرق ومعه ما غنمه من إفريقية ، وكان شيئاً كثيراً .
ويقال إنه كان معه من سبي البربر خمسة وثلاثون ألفاً . . وولّى على الصدقات
حنش بن عبد الله الصنعاني ، واستخلف على إفريقية رجلاً من جنده يقال
له صالح .

ولما مر ببرقة ولّى على خراجها إبراهيم بن النصراني ، واستمر في طريقه
إلى أن وصل إلى مصر ، فتلّقه عبد العزيز بن مروان ، وأخذ كثيراً مما معه
من الغنائم التي كان يريد تسليمها إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق . .
وكان حسان أدرك هذه النتيجة من عبد العزيز فأخفى كثيراً من الذهب والجواهر
في قرب الماء ، ولولا هذه الحيلة لما أفلت من عبد العزيز إلا بما عزفت عنه نفسه .
وسار حسان إلى دمشق حيث الخليفة عبد الملك ، وترك زهير بن قيس
في مصر مع عبد العزيز بن مروان . وسر عبد الملك بغنائم حسان وكثرتها ،
وكان من بين الغنائم وصائف بربريات كثيرات ذات جمال بارع وحسن رافع .
وقد ازداد فرحه حينما أفرغ بين يديه ما كان معه في القرب من جواهر وذهب ..
ومن المؤرخين من يروى أن حسان وصل إلى دمشق بعد وفاة عبد الملك
وتولّى الوليد الخلافة . ويقول صاحب هذه الرواية إنه لما رأى الوليد كثرة ما معه
من الغنائم عرض عليه أن يرده إلى عمله في إفريقية فأبى ، وقال : « لا ألي لبني
أمية » ، لما رآه من تعسف عبد العزيز معه في مصر .

مقتل زهير بن قيس

هذه رواية ابن عبد الحكم في سبب قتل زهير وأصحابه تخالف الرواية الأولى :

بعد أن غادر حسان برقة لم تلبث الأمور فيها أن اضطربت ، ونقض الروم عهدهم وثاروا على من فيها من المسلمين والعرب واحتلوها ، وفر إبراهيم بن النصراني وترك برقة وأهل ذمتها في أيدي الروم ، فاستبدوا بحكمها ، وبلغ خبرها عبد العزيز بن مروان بمصر ، فندب لها زهير بن قيس ، فجمع نحو سبعين مقاتلاً ، ولكن عبد العزيز لم يمهل حتى يجمع عدداً كبيراً من المقاتلين وألح عليه في الخروج ، فخرج زهير مغاضباً له وقال له : « أنا خارج لا ردني الله إليك » ، فلما بلغ درنة لقيه الروم في جموعهم الكثيرة ، ولم يكن مع زهير إلا أصحابه السبعون ، فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى استشهدوا عن آخرهم^(١) . وما زالت قبورهم مشهورة بدرنة ، وتعرف بقبور الصحابة تقصد للزيارات ، وتلتبس عندها الرحمات . . . هذا ملخص رواية ابن عبد الحكم . . . وبينها وبين الرواية التي تقدمت خلاف . فإن في هذه الرواية كان زهير عاملاً لعبد العزيز ، أما في الأولى فكان عاملاً لعبد الملك .

ويمكن القول بأن زهيراً لم يقتل حينما كان راجعاً من غزو إفريقية في المرة الأولى ، بل مر ببرقة وذهب إلى دمشق ، لأنه يستبعد أن يمثل الدور الذي وقع لعقبة وهو أن يبقى في نفر قليل من أصحابه ويدخل ديار العدو ، ويترك بقية الجيش تسير في طريق آخر ليفاجئه العدو مثل ما فاجأ عقبة ، وكان حاضراً مع عقبة ، ووقع الحادث على مرأى منه . . . ويبعد كذلك أن يقتل زهير

(١) ذكر بعض المؤرخين أن قتلهم كان سنة ٧٦ وهو يختلف مع ما قبله .

وأصحابه ولا تقوم بقية الجيش بأى عمل لإنقاذه ، أو للأخذ بثأره . . وبعد أن تجاوز حسان برقة إلى مصر احتل الروم برقة ، وابتدأت الرواية الثانية .
 وما يرجح صحة الرواية الثانية أن زهيراً خرج مغاضباً لعبد العزيز ، وكان معه نفر قليل ، ومن المعقول تغلب الروم عليهم ، ولم يكن فى الرواية الأولى ما يشبه حديث زهير مع عبد العزيز حتى نقول إنه اشتبه الأمر على الراوى ، فنسب ما فى إحدى الروايتين للأخرى ، بخلاف وجوده ببرقة فقد كان فى المرة الأولى والثانية ، وهذا هو محل الاشتباه بين الروايتين فاشتبه الأمر على بعض الرواة ، فبعضهم نسب قتله لوجوده فى المرة الأولى ، وبعضهم نسب لوجوده فى المرة الثانية . . . وقرائن الأحوال تدل على صحة الرواية الثانية . ويؤكد صحتها وجود زهير مع حسان فى إفريقية ، وأن حسان لما رجع إلى الشرق كان معه زهير وتركه فى مصر مع عبد العزيز ، ولا يوجد مثل هذا فى الرواية الأولى حتى يكون موضع اشتباه .

عطية بن يربوع

لم يذهب دم زهير هدراً . فإنه بعد قتله انتدب لقتال الروم فى برقة عطية ابن يربوع المذحجى ، واستغاث ببعض المسلمين الذين كانوا منتشرين فى بادية برقة وحوالى درنة ، فاجتمع حوله نحو ٧٠٠ رجل ، وزحف بهم على الروم فقاتلهم حتى هزمهم ، ولم ينج منهم إلا من فر بالسفن فى البحر . وبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان بمصر ، فأرسل عبده طارقاً فى جماعة من أشرف مصر ليتولى أمور المسلمين بدرنة ويصلى بهم^(١) ، ولكن الناس استاءوا من أن يحكمهم ويصلى بهم عبد ، ووصل خبر ذلك إلى عبد العزيز ، فأرسل إلى طارق

(١) كانت عادة المسلمين فى صدر الإسلام أن يصلى بهم الحاكم . وكانت الإمامة من وظائفه .

بعثقه ، وأقام بدرنة . وقصة محاربة عطية بن يربوع للروم انتقاماً لزهير مما يرجح الرواية الثانية .

تقدم أن حسان بن النعمان قال للوليد : لا ألى لبنى أمية . وعلى رواية من يقول إن حسان وجد عبد الملك في دمشق ، فإنه يقول أيضاً إن عبد الملك أقر حساناً على إمارة المغرب وأمره بالرجوع إليه ، ولما وصل حسان إلى مصر طلب من عبد العزيز أن يخلع طارقاً عن ولاية درنة فأبى ، فقال له حسان : إذا أرجع إلى عبد الملك ، فقال له ارجع ، وكان عبد العزيز يريد أن يولى على المغرب موسى بن نصير . ورجع حسان إلى الشام لمقابلة عبد الملك ، ولكن عبد الملك ما لبث أن توفي .

الفتح العاشر

موسى بن نصير^(١)

كان عبد العزيز بن مروان يمانع في رجوع حسان الى إفريقية ، ويريد أن يولى عليها موسى بن نصير لصداقة بينهما ، فوله عليها ، وقدمها سنة ٨٨^(٢) . وكان بها صالح الذى استخلفه حسان فعزله .

وكانت فتوحات حسان قد مهدت لموسى بن نصير ، وأخذت الأحوال تستقر ، ووجد موسى القيروان هادئة ، ونهض لقتال الروم ومن يناصرهم من البربر والأفارقة ، واستمرت فتوحاته إلى الأندلس ، وأرسل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر غنائم كانت أكثرها محل إعجاب الناس وتقديرهم لشجاعة موسى بن نصير ، وأعجب به عبد العزيز أيما إعجاب .

ورجع موسى إلى المشرق سنة ٩٤ أو سنة ٩٥ بطلب من الوليد . وقد نكبه الوليد نكبة ما زالت يضرب بها المثل في عدم الوفاء للمخلصين ، أدت به إلى

(١) هو أبو عبد الرحمن اللخمي ، ولد سنة ١٩ للهجرة . وهو من كبار التابعين . وكان كريماً وشجاعاً مع معوقة بأمور الحرب ، قيل إنه لم يهزم له جيش قط . وتوفي في طريقه إلى الحج مع سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ أو ٩٧

(٢) ذكر هذا التاريخ صاحب « لب التاريخ » . وذكر غيره أنه كان سنة ٧٨ أو ٧٩ ، وهذا لا يصح ، لأن حساناً كان في هذا التاريخ موجوداً في إفريقية . وقال في فزعة الأنظار أنه كان سنة ٧٩ ، ونقل فيها عن جنوة المقتبس أنه كان سنة ٩٧ وهذا غير صحيح لأن موسى توفي سنة ٩٦ أو ٩٧ . . وهذا تضارب كبير ، وتفاوت كثير بين هذه التواريخ ، والذي يرجع إلى تاريخ وجود حسان في إفريقية يظهر له ترجيح محبى موسى إليها سنة ٨٨ . وجاء في خلاصة تاريخ تونس للعلامة حسن حسنى أنه كان سنة ٨٥

الفقر المدقع بعد تلك الغنائم التي يضرب المثل بكثرتها .
وموسى بن نصير أول من عنى بتعليم البربر القرآن وعلوم الدين . فقد
قال ابن خلدون : « ارتد البربر في إفريقية عن الإسلام اثنتا عشرة مرة ، ولم
يثبتوا على الإسلام إلا في عهد موسى بن نصر » . وفي زمنه أخذت الأحوال
تستقر في طرابلس^(١) .

ولاية بكر بن عيسى القيسى على طرابلس

كانت طرابلس قد شملها الهدوء الذي شمل القيروان . وجاء موسى وهي
على الحال التي تركها عليها حسان . ولم نعلم اسم من عينه حسان عاملا عليها .
وقبل أن يغادر موسى إفريقية ولّى على طرابلس بكر بن عيسى القيسى ،
واستخلف على إفريقية ابنه عبد الله ، وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز . . .
وكان معه في غزوته على الأندلس المنير الصحابي . ورجع المنير من الأندلس
إلى طرابلس ، وتوفى بها ، وقبره مشهور لا يختلف فيه اثنان .
والمنير — بصيغة التصغير — يمانى ، من مذحج أو من كندة . ويقال له
المنير الإفريقي لطول بقائه فيها^(٢) . وقد صحب النبي صلى الله عليه وسلم ،
وروى عنه رشدين بن سعد ، وحى بن عبد الله من طريق عبد الرحمن الحبلي .

(١) البستاني في دائرة المعارف .

(٢) ذكر ابن السكن والبغوي أنه سكن إفريقية .

محمد بن يزيد القرشي

ولاه سليمان بن عبد الملك على إفريقية والمغرب سنة ٩٧ . ومما أوصاه به سليمان : « اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله » ، ودامت ولايته سنتين وأشهرًا . ولم نطلع على من ولاه على طرابلس .

عبد الله بن كريز

ولاه سليمان بن عبد الملك على إفريقية ، وعلى رأس المائة دانت له من برقة إلى السوس ، وعزله عبد العزيز بن مروان ، وولى بعده محمد بن يزيد الأنصاري .

إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر

ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة ١٠٠ ، فكان خير أمير . قال ابن خلدون : وأسلم جميع البربر في أيامه . وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين ، ويبينون لهم الحلال والحرام . وهم :

١ - عبد الله بن يزيد المعافري (أبو عبد الرحمن الحبلي) وهو رئيس البعثة ، انتفع منه أهل إفريقية ، وبث فيهم علماً كثيراً ، وهو الذي بنى

جامع الرباط ، وتوفى بالقيروان سنة ١٠٠ ، ودفن بباب تونس ، وهو باب من أبواب سور مدينة القيروان قبالة مدينة تونس .

٢ - سعيد بن مسعود التجيبي (أبو مسعود) صاحب بأمير إفريقية عقب صلاة الجمعة في مظلمة ، فقال له : أنا بالله لا بك ، ففضى حاجته .

٣ - إسماعيل بن عبيد الأنصارى ، مولى الأنصار ، ويعرف بتاجر الله ، كان كثير الصدقة والعبادة ، محسناً غاية الإحسان ، وسمى تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه في وجوه الخير . وكان يتجر في المولدات ، فسمع بكاء في القافلة ، فقال ما هذا ؟ ، ففيل له المولدات اللائي وجهتهن يبيكن مع آبائهن وأمهاتهن وأخواتهن ، فبكى وقال : « إن دنيا بلغت بي إلى أن أفرق بين الأحبة إنها لدنيا سوء ، أشهدكم أن من كان لها أب ، أو أم ، أو أخت ، فهي حرة لوجه الله عز وجل » فأنزل من المحامل سبعين مولدة فأعتقهن كلهن . وهو الذى بنى جامعاً وسوقاً بالقيروان نسباً إليه . وله قصص كثيرة في عمل المعروف ، والإحسان إلى الفقراء ، تظهر ما لهذا الرجل من القدر العظيم . توفى مجاهداً في فتح صقلية سنة ١٠٧ .

٤ - عبد الرحمن بن رافع (أبو الجهم) التنوخى ، من فضلاء المؤمنين وهو أول من ولى قضاء القيروان من قبل موسى بن نصير ، توفى بالقيروان سنة ١١٣ .

٥ - موهب بن حى المسعافرى ، كان من أهل الفضل والعلم ، أقام بالقيروان وتوفى بها .

٦ - حيان بن أبى جبلة القرشى ، مولى بنى عبد الدار ، كان من أهل الفضل والصلاح . سكن القيروان وانتفع به أهلها . توفى سنة ١٢٥ .

٧ - بكر بن سودة الجندى (أبو ثمامة) . كان من أهل الفضل . سكن القيروان وتوفى بها سنة ١٢٨ .

٨ - جعثل بن عاهان بن عمير البتور (أبو سعيد) ولى قضاء الجند بإفريقية لهشام بن عبد الملك . توفى أول خلافة هشام قريباً من سنة ١١٥ .

٩ - إسماعيل بن عبيد الله الأعور بن أبي المهاجر القرشي المخزومي ،
(أبو عبد الحميد) كان من أهل الدين والزهد . سكن القيروان ، وسار في
المسلمين بالحق والعدل ، وعلمهم السنن . أسلم على يديه خلق كثير من البربر .
توفي بالقيروان سنة ١٣٢ .

١٠ - طلق بن جابان ، ويقال له طلق بن جعنان الفارسي .

* * *

هؤلاء هم الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز
إلى إفريقية ليفقهوا الناس في دينهم ، فكانوا عند ظنه بهم ، وكانوا للناس
قدوة صالحة .

ولما ثار الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة جمع هؤلاء العشرة فكتبوا
له رسالة ليقننوا بها المسلمين ويعتقدوا ما فيها . وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة
أما بعد . فإن أهل العلم بالله ، وبكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
قالوا : إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات : أمرة ، وزاجرة ،
ومبشرة ، ومنذرة ، ونخبة ، ومحكمة ، ومشتبهة ، وحلال ، وحرام ، وأمثال :
فأمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ونخبة
بخبير الأولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومشتبهة يؤمن بها ، وحلال أمر
أن يؤتى ، وحرام أمر أن يحتنب ، وأمثال واعظة : فمن يطع الأمرة ، وتزجره
الزاجرة ، فقد استبشر بالمبشرة ، وأنذرته المنذرة . ومن يحلل الحلال ويحرم
الحرام ، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله ، مع طاعة واضحة ، ونية
صالحة ، فقد أفلح وأنجح ، وحيا حياة الدنيا والآخرة . . والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته » .

وما زال ابن أبي المهاجر يدعو البربر إلى الإسلام حتى أسلم منهم خلق
كثير وانتشرت بينهم تعاليم الإسلام ، وأذعنوا لحكمه ، ورسخت فيهم كلمته ،

وتناسوا الردة . وجاء في المؤنس . وعلى رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ، ولم تقم بعدها للنصارى والبربر قائمة ، فمنهم من دخل الإسلام ، ومنهم من بقى على النصرانية فضربت عليه الجزية ، وانحاز بعض النصارى إلى عدة قرى كانوا متجمعين فيها .

يزيد بن أبى مسلم

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة ١٠٢ ، وهو مولى للحجاج بن يوسف وكان ظالماً مثله ، وقد ضاق البربر بظلمه وسئموا حكمه ، فقتلوه بعد شهرين من ولايته ، وولوا عليهم محمد بن يزيد — وهى ولايته الثانية — وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك معذرين من قتل يزيد بن أبى مسلم فقبل عذرهم وأقر ما فعلوه .

وقد اقترن قتل يزيد بظهور دعوة الخوارج فى إفريقية ، وقد وصلت إليهم من العرب القادمين من العراق ، فلقنوها البربر ، فوجدت فى نفوسهم أرضاً خصبة ، فنمت فيها وأخذت فى الانتشار .

الخوارج

ولمناسبة ذكر الخوارج ، وما تركوه فى إفريقية من أثر سيئ يحسن أن نقول عنهم كلمة نحاول فيها تحديد زمن دخولهم إفريقية ، أو ما يقرب من التحديد ، كما نحاول ذكر بعض فرقهم المخالفة لتعاليم الإسلام الصحيحة ورغبات العرب .

لما اشتد الخلاف بين سيدنا على ومعاوية ، وانحاز أكثر الصحابة إلى على ،

وانحاز بعضهم إلى معاوية، وحصلت بينهم حروب كان من أشدها هولا واقعة صفين، فكان من آثارها أن دعا بعض الناس إلى التحكيم بين الفريقين المتحاربين. ولما رضى سيدنا على بالتحكيم، انشقت عليه جماعة من أتباعه — وكانوا ممن وافق على التحكيم — ونقضوا بيعته، ولم ينضموا إلى معاوية، وقالوا كلمتهم المشتومة: « لا حكم إلا لله » فسموا الخوارج.. وقد قال لهم سيدنا على: إن هذه كلمة حق أريد بها باطل. وبذل سيدنا على جهده في إقناعهم، فأصرروا على العناد، وأبو إلا الخروج على عليٍّ ومعاوية فأصبحوا قسماً ثالثاً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. وقاتلوا سيدنا علياً وحزبه قتالاً مريراً كانوا أثبت فيه للموت من الجبال للرياح.

ومنذ أن خرجوا على سيدنا عليٍّ انفتح باب الفتنة في المسلمين فلم يسد بعد، ولن يسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض.

ولم يقتصرُوا في نشر مذاهبهم الهدامة على الشرق فقط، بل تسالت رسلهم إلى المغرب، وبثوا فيه ضلالتهم، ووجدت دعوتهم الخبيثة من البربر أذناً صاغية فتمكنوا من نفوسهم، وتفرقوا فيها أحزاباً وشيعاً تسمت كل منها باسم رئيسها. فمنهم النكاري، ويقال لهم النكارية^(١). والصفرية^(٢) والأزارقة^(٣)، وغيرهم، واختلفت أهواؤهم فيما يدعون إليه، وأعان على نشر ضلالتهم بين البربر الجهل الذي كان مخبياً على عقولهم، وكان هم أصحاب هذه النحل محاربة مبادئ الإسلام، وانتزاع الدولة من العرب بأى ثمن كان. ورفعوا راية العصيان في وجه الحكومة الأموية. وانتشرت بدعة الخوارج في كافة المغرب، ويقول

(١) قيل إنهم هم الذين أنكروا على عبد الوهاب بن رستم وخرجوا عليه

(٢) ينسبون إلى ابن صفار أحد زعماء الخوارج.. وقيل إنهم اصفرت وجوههم من كثرة العبادة فسموا صفرية

(٣) أصحاب نافع بن أزرع الحنفى، وهم يتبرأون من سائر المسلمين، ويكفرونهم، ويستبيحون قتل الأطفال لأنهم كفار عندهم

صاحب خلاصة تاريخ تونس: وانتشرت حتى في الأندلس لأنها كانت إذ ذاك تابعة لإفريقية. . . وقد ساعد على انتشارها ما طرأ على الدولة الأموية من ضعف بسبب ظهور الدعوة العباسية^(١). . . وقد كان لظهور دعوة الخوارج في إفريقية أسوأ الأثر على الإمارات العربية في إفريقية، ولم يستقم أمرها إلى أن استقر أمر الدولة العباسية، فاهتموا بإفريقية اهتماماً خاصاً.

ونحن إذ نعرض في هذه الكلمة إلى الخوارج فلا نغنى الإباضية، فإن لنا فيهم كلمة خاصة. . . وقد دخل مذهبهم إفريقية بعد أن انتشرت فيها مذاهب الخوارج.

وقد تسربت بدعة الخوارج إلى إفريقية في زمن غير معين. ويظهر أنه كان في أواخر المائة الأولى من الهجرة، وأوائل المائة الثانية منها، جاء بها جماعة الأفارقة من المشرق. وكانت قبيلة مضغرة — من البربر البتر — أول من اعتنق المذهب الخارجي، وانتشر فيها. وكان لرئيسها ميسرة المضغري نشاط في الدعوة إليه. ويفهم من كلام بن خلدون في الخوارج في الجزء الثالث، وفي الفصل الرابع في أخبار البربر من الجزء السادس: أن ميسرة المضغري هو أول من ناصر نحلة الخوارج ودعا إليها، وجمع الناس على تأييدها وقد تلقاها من الأفارقة القادمين من المشرق.

ولما ولي عبد الله بن الحبحاب على إفريقية سنة ١١٤ استعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، فنقم البربر عليه سيرته فيهم فقتلوه سنة ١٢٥. وولى ميسرة بدله على طنجة عبد الأعلى بن جريج الإفريقي، وهو رومي الأصل، ومولى للعرب وأصل خارجية البربر، وتقدم إلى السوس فقتل، وانتشرت الفتنة، واضطرب جبل الأمن في المغرب، فأرسل عبيد الله بن الحبحاب إليه جيشاً بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري، فلقى ميسرة في جموع

كثيرة من البرابر فهزمه وقتل خالد ، وازدادت فتنة الخوارج بالمغرب وقويت شوكتهم . وكان من أكبر قواد ميسرة المشهورين طريف أبو صبيح البرغواطى^(١) وكان قائماً بدعوة الصفرية .

وبلغت أخبار الخوارج هشام بن عبد الملك ، فأرسل إلى إفريقية كلثوم ابن عياض فى اثنى عشر ألفاً وولاه عليها وزحف إلى البربر سنة ١٢٣ فلقية ميسرة بقرب طنجة فى جموع من البربر كثيرة ، واستماتوا فى قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه .

وقويت دعوة الخوارج ، واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء فى المشرق . وهلك ميسرة وقام برياسة مضغرة رجل منهم يقال له يحيى بن الحارث .

المذهب الإباضى

الإباضية جماعة من المسلمين يتعبدون على مذهب عبد الله بن إباح . وإباح - بكسر الهمزة ، كما فى أنساب السمعاني - قرية بعرض اليمامة ، كانت عندها وقعة خالد بن الوليد مع مسيلمة الكذاب نسب إليها عبد الله بن يزيد الفزارى الكوفى . وقيل إباح اسم والده ، وهو من بنى مرة بن عبيد من بنى تميم ، وهو صاحب المذهب ، وإليه ينسب الإباضية^(٢) .

وهذا المذهب معدود من مذاهب المسلمين التى تعتمد فى أصولها على الكتاب والسنة ، ويتفق فى كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة ، ولا يختلف معها إلا فى مسائل قليلة . وما من مذهب من مذاهب أهل السنة إلا وهو يخالف غيره فى بعض المسائل . وقد قال ابن حزم فى كتابه : « الفصل فى

(١) سيأتى فى تعليقنا على برغواطى أن صالح بن طريف ادعى فيهم النبوة فى أيام هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ وهو من أصل يهودى فانظره هناك .

(٢) ظهر عبد الله بن يزيد الإباضى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى أوائل القرن الثانى من الهجرة

الملل والنحل » إن أصحاب عبد الله بن يزيد الإباضى الفزائى الكوفى أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى .

وهذا المذهب منتشر فى مسقط وعمان من بلاد العرب بالشرق ، وفى الزنجبار من بلاد السودان ، وفى إفريقية ، فى طرابلس وتيهرت بالجزائر .
وأول دخول هذا المذهب إلى إفريقية فى أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة ١٢٠ وما بعدها تقريباً .

ويؤخذ من كتاب السير للشماخى أن أول من أدخله إلى إفريقية سلمة بن سعيد قدم من المشرق إلى إفريقية فى أوائل المائة الثانية لنشره والدعوة إليه . وكان شديد التعصب له . وذكر الشماخى فى كتاب السير أنه كان يقول : « وددت أن يظهر هذا الأمر — يعنى مذهب الإباضية — يوماً واحداً ، فما أبالى أن تضرب عنقى » .

وقد اجتمع به فى إفريقية عاصم السدراتى^(١) ، وإسماعيل بن درار الغدامسى ، وداود القبلى النفزاوى ، وعبد الرحمن بن رستم ، وأخذوا عنه مذهب الإباضية ، ولما رأى رغبتهم فى دراسة هذا المذهب رغبتهم فى السفر إلى البصرة لتلقى المذهب على أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمه البصرى مولى بنى تميم^(٢) ، وكان إذ ذاك من علماء الإباضية المبرزين فى المذهب ، فرحلوا إليه أربعتهم ، وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح : أبو الخطاب الحميرى اليمنى ، فأصبحوا خمسة ، ومكثوا عند أبى عبيدة خمسة أعوام يأخذون عنه المذهب الإباضى حتى أصبحوا من أعلامه ، ثم رجعوا خمستهم إلى إفريقية فى زمن غير معين ، ويظهر أنه فيما بين الخمسة والعشرين إلى الأربعين من القرن الثانى الهجرى .

وعبد الرحمن بن رستم^(٣) بن مهران من مسلمة القادسية وهو من الفرس

(١) توفى بالقيروان أيام أن كان أبو الخطاب يحاصرها

(٢) توفى فى ولاية أبى جعفر

(٣) بويج له بإمامة الإباضية سنة ١٦٠ أو ١٦٢ بتاهرت

حج مع أبيه وأمه ، فمات أبوه بالحجاز ، وتزوجت أمه بربجل من القيروان ، فذهب معها إلى القيروان . وأول ما تلقى مذهب الإباضية على مسلمة ابن سعيد . وهؤلاء الخمسة يسميهم الإباضية حملة العلم ، وهم عندهم في محل التعظيم والإجلال ، ومن أتمتهم المشهورين .

وبعد رجوع هؤلاء الخمسة إلى إفريقية زاد انتشار مذهب الإباضية وكثر أنصاره كما نذكره في حروب أبي الخطاب .

وقد انحصر أتباع هذا المذهب في إفريقية في البربر . وكان أكثر أتباعه من هواره ، ولماية ، ونفزاوة ، ومغيلة ، ومغراوة ، وبني يفرن من زناته . وقد توارثوه خلفاً عن سلف ، وما زالوا يدينون به إلى الآن ، وقل أن تجد في طرابلس بربرياً على مذهب مالك ، كما يندر أن تجد فيها عربياً على مذهب الإباضية .

وأصحاب هذا المذهب في طرابلس سكان جبل نفوسة من البربر، وسكان زوارة . ويعد بعض المؤرخين مذهب الإباضية نحلة من نحل الخوارج . ولكن الإباضية - وفي مقدمتهم علماءهم - لا يعترفون بنسبتهم إلى الخوارج ، ويعدون هذا من غلطات التاريخ التي لم يتحر فيها المؤلفون الحقيقة . وقد اجتمعت بالأستاذ إبراهيم اطفيش في مصر ، وهو من أكبر علماءهم بل ومن أتمتهم في عصرنا ، فأكد أن نسبتهم إلى الخوارج غير صحيحة ، وأنهم ليسوا منهم في شيء . وقد تقدم قول ابن حزم أنهم أقرب الفرق إلى أهل السنة .

ومن مذهبيهم تحريم دماء مخالفينهم وأموالهم ، ويرون حل مناكلتهم والتوارث معهم .

ومما زلنا نشاهد في النفوس شيئاً من الحزازات بين المالكيين والإباضيين في طرابلس بسبب اختلاف المذاهب . ومن الأسف أن توجد الحزازات في النفوس بسبب اختلاف المذاهب وكلها إسلامية . وقد نشأ عن هذا شيء من التناكب ، والتناكب بالألقاب ، والطعن في العقائد ، بل صار وسيلة إلى الحرب التي حرمتها

جميع الأديان والمذاهب .

ويجب أن نفهم أن جميع مذاهب المسلمين تصدر عن أصل واحد هو كتاب الله وسنة رسول الله اللذين جاء بهما محمد صلى الله عليه وسلم الذى أجمعت جميع الفرق الإسلامية على تكريمه وتعظيمه .

ويكفى لأن نكون كتلة واحدة ، وإخواناً متحابين متحدين أننا نعبد الله على تعاليم هذا النبي الكريم .

وقديماً كان الاختلاف فى رأى حتى فى فهم كتاب الله وسنة رسول الله . وكلما استنار العقل البشرى أمكنه أن يدرك حقائق الأشياء على وضعها الصحيح . إذاً فمن الواجب أن يحترم كل منا رأى أخيه . وقد شاهدنا فى مصر — وفيها مسلمون ومسيحيون — أنهم كانوا يقولون — حينما أرادوا الاتحاد ضد الإنجليز — الدين لله والوطن للجميع . وهذا مع اختلافهم فى الدين ، فما بالنا لا نقول ذلك ونحن مختلفون فى المذهب فقط .

يجب على الطرابلسيين — من العرب والبربر ، وقد جمع بينهم الإسلام ، ووحدت بينهم مصالح الوطن ، وأحكم صلتهم الجوار والنسب — أن يعيشوا إخواناً متحابين فى الله ، متحدين فى العمل لخير وطنهم ، عاملين على النهوض به ، وتخليصه من سيطرة الغاصب ، ولكل فى مذهبه ما يصحح به دينه ، ويوصله إلى الله الذى وجدت المذاهب لمعرفة وفهم شرائعه .

بشر بن صفوان

ولاه يزيد بن عبد الملك على إفريقية سنة ١٠٣ . وقد نكل بآل موسى بن نصير تنكيلاً فظيماً ، واستصفى أموالهم لنفسه ، ثم رجع إلى يزيد فوجده توفى سنة ١٠٥ وتولى هشام بن عبد الملك ، فردّه إلى إفريقية ، وغزا صقلية ، ورجع إلى القيروان فمات بها سنة ١٠٩ ، وكانت ولايته سبع سنين .

عبيدة بن عبد الرحمن

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في المحرم أو في صفر سنة ١١٠ م كان بشر ، وكان محل إقامته القيروان .

يزيد بن مسلم الكندي

كان عاملاً على طرابلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن ، وكان المستنير ابن الحبش الحارثي قد كلف بغزو صقلية من طرف عبيدة ، فتناقل عن غزوها حتى جاء الشتاء وصعب ركوب البحر ، ثم جهز نفسه وغزاها ، وبينما هو في طريقه إليها هاج به البحر ، وأغرق كل ما معه من السفن بما فيها ومن فيها ، ورمى بالسفينة التي كان بها على طرابلس ، فأمسكه يزيد حتى جاءه كتاب عبيدة يأمره بالقبض عليه وإرساله إليه موثقاً ، فنفذ يزيد أمر عبيدة وأرسل إليه ابن الحبش كما أمر ، فأوجعه ضرباً ، وطاف به القيروان على حمار شهيراً به لتقصيره في غزو صقلية ، وتأخيره إلى وقت الشتاء حتى كان ذلك سبباً في غرق الجيش وخسارة المسلمين ، وعزل هشام عبيدة سنة ١١٤ ودامت ولايته أربع سنين وستة أشهر .

عبيد الله بن الحجاب^(١)

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية في ربيع الآخر سنة ١١٦ ، وقيل سنة ١١٤ ويقال إنه هو الذي بنى جامع تونس . وقد ظهر لهشام — في عدة مناسبات —

(١) وقيل اسمه عبيد الله بن عبد الرحمن

عجزه عن القيام بأمور المسلمين ، وبإخضاع من بقى من البربر مناوئاً للعرب ، فعزله فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ .

* * *

يشعر المتتبع لأحداث إفريقية بأنه منذ أن تولى يزيد بن مسلم سنة ١٠٢ إلى أن تولى كلثوم بن عياض سنة ١٢٣ قد قل النشاط الحربى فى إفريقية ، وأهمل أمر الفتح ومحاولة إخضاع من لم يخضع من البربر . ولولا ما كان من أمر عبدة لابن الحبحاب بغزو صقلية وفشله فيه لقلنا إنه لم يكن هناك نشاط . ويظهر أن هشاماً أدرك هذا ، خصوصاً لما ظهر له عجز عبيد الله بن الحبحاب ، فتدارك الأمر ، وولى على إفريقية كلثوم بن عياض ليجدد النشاط فى إخضاع من بقى مناوئاً للعرب .

كلثوم بن عياض

ولاه هشام بن عبد الملك على إفريقية فى جمادى الآخرة سنة ١٢٣ ، وخرج معه جماعة من الشام ، وكتب معه إلى والى كل بلد أن يخرج معه لقتال البربر ، فخرج معه أهل مصر ، وأهل برقة وأهل طرابلس .

صفوان بن أبى مالك

لما وصل كلثوم إلى طرابلس ، وكان الحاكم عليها صفوان ابن أبى مالك ، أعد صفوان جيشاً وخرج معه إلى إفريقية ، فوصلوا القيروان فى رمضان من هذه السنة . وكان الجيش يقتل بنحو ثلاثين ألفاً : عشرة من بنى أمية ، وعشرون من مختلف العرب . وخرج كلثوم لقتال البربر ، واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفارى ، وعلى الحرب مسلمة بن سودة الجذامى القرشى .

وما زال بعض الرؤساء من البربر يتربصون بالعرب ويتحينون الفرص للوثوب عليهم ، ومن هؤلاء الرؤساء عكاشة^(١) بن أيوب الفزاري ، وهو من قبيلة هواة من البراة الصفرية ، وكان يقيم بنواحي قابس ، فجمع هواة وثار بها على مسلمة بن سودة منتهزاً غياب عياض بن كلثوم عن القيروان ، وأرسل عكاشة أخاه إلى صبراته فحصر أهلها في المسجد ، وجعل عليهم حبيب بن ميمون . . وبلغ خبر ما حل بأهل صبراته إلى صفوان حاكم طرابلس ، فخرج لنجدتهم ، وحاول أخو عكاشة أن يدافع عن صبراته ، ولكنه ما لبث أن غلب على أمره ونجا برأسه منهزماً بعد أن قتل أكثر أصحابه من زناتة وهرة وغيرهم ، ولحق بأخيه عكاشة في قابس . . وكتب كلثوم بن عياض إلى صفوان بطرابلس يستنجد به على عكاشة ، فأنجده بأهل طرابلس . . ولكن جيوش البربر تكاثرت على كلثوم فقتل قبل أن يصل إليه صفوان في نجده ، ولما بلغ صفوان قابس بلغه قتل كلثوم وأصحابه فرجع إلى طرابلس ، وتفرق جيش كلثوم ، فرجع أهل إفريقية ومصر إلى إفريقية ، وذهب أهل الشام إلى الأندلس ، وكان من بينهم عبد الرحمن ابن حبيب الآتي ذكره ، وكان ذلك سنة ١٢٤ أو ١٢٥ .

لم ييأس العرب من النصر برنجوع صفوان إلى طرابلس وقتل حنظلة بالرغم على مكانتهما المرموقة بينهم . وانفسح المجال أمام البربر ، فتحصن سعيد بن بحرة وأصحابه بقابس وتنحى عنها عكاشة بنحو عشرين كم . . وأعاد العرب جمع صفوفهم ، فخرج عبد الرحمن بن عقبة الغفاري في أهل القيروان لقتال عكاشة فلقيه بين القيروان وقابس ، فانهزم عكاشة وقتل عامة أصحابه ، ثم جمع جموعه وأعاد الكرة على عبد الرحمن ، فهزم عكاشة ، وأعاد الكرة الثالثة فهزم ، وفي الرابعة استعان بعبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري فخرج إليهم عبد الرحمن ، فقتل عبد الرحمن وأصحابه ، وكان ذلك سنة ١٢٤ وتقدم عكاشة وعبد الواحد في جموعهما إلى القيروان .

(١) جاء في بعض الكتب بتشديد الكاف

حنظلة بن صفوان الكلبي

بعد قتل عبد الرحمن بن عقبة كان عكاشة وعبد الواحد يهددان القيروان بجموعهما ، وأسند هشام بن عبد الملك^(١) ولاية إفريقية والمغرب إلى حنظلة بن صفوان في صفر سنة ١٢٤ ، فأخذ في الاستعداد للدفاع عن القيروان . وعكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن يزيد من برابرة هوار . ومن المتمذهبين بمذهب الخوارج الصفرية الذين يستحلون أموال أهل السنة ، ويستبيحون نساءهم وقتلهم ، وكان معهما من البربر جموع عظيمة قدرت بثلاثمائة ألف . ولما وصلوا القيروان خرج إليهم حنظلة فهزموه ، وتقدموا لحصار القيروان ، فأعاد حنظلة جمع شمله وتأهب لقتالهم ، وأخرج كل ما في خزائنه من السلاح والعتاد ، ودعا الله بطلب النصر ، وأمن المسلمون على دعائه ، وخرج للقائهم خارج القيروان والتحم الجيشان بمكان يقال له القرن قرب القيروان ، وكانت حرباً في أشنع صور الحروب القاسية ، فهبت ريح النصر على العرب وهزم البربر ، وقتل عبد الواحد ، وجيء برأسه وبعكاشة أسيراً إلى حنظلة ، فقتله حنظلة صبراً . وقتل في هذه المعركة ما يزيد على مائة وسبعين ألفاً ، وكان هذا سنة ١٢٤ وتسمى واقعة القرن .

وسمع الليث بن سعد بنجر هذه المعركة فقال : « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن » .

معاوية بن صفوان

كان عامل حنظلة على طرابلس ، فكتب إليه حنظلة يستنجده ، فأنجده بأهل طرابلس ولما وصل إلى قابس بلغه خبر هزيمة عكاشة وعبد الواحد ، فأمره

(١) توفي هشام في ربيع الآخر سنة ١٢٥ . ومدة خلافته ١٩ سنة وسبعة أشهر ، وعشرة أيام

حنظلة أن يتقدم بجيشه إلى حرب البربر بنفزاوة فذهب إليهم وقاتلهم حتى قتل ، فبعث حنظلة زيد بن عمرو الكلبي إلى جيش معاوية ورجع به إلى طرابلس .

عبد الرحمن بن حبيب

هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع . كان من أنصار كلثوم ، ومن المهزمين في معاركه مع عكاشة إلى الأندلس سنة ١٢٣ . وقتل والده حبيب مع كلثوم . وهو أول متغلب على إفريقية ، واستقل بها أيام حكمه عن بني أمية وخلع طاعة أبي جعفر المنصور .

ورجع من الأندلس إلى تونس في جمادى الأولى سنة ١٢٧ ، ودعا أهلها إلى نفسه فأجابوه وحاول حنظلة أن يدخله تحت طاعته فأبى وقتل رسل حنظلة .

واعترم عبد الرحمن أن يحتل القيروان ويضمها إلى تونس ، فأرسل إلى حنظلة يطلب إليه التخلي عنها ، وأنه مصر على حربها إن لم يفعل . . وكان حنظلة تقياً ورعاً ، فلم يسعه - أمام إصرار عبد الرحمن على الحرب - إلا أن يتنازل له عن القيروان ، حقناً لدماء المسلمين . وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٩ . ودخل عبد الرحمن القيروان ، وتغلب على إفريقية كلها واستقل بها . وكتب إليه مروان بن محمد بولايتها . وفي سنة ١٣١ جدد سور طرابلس من جهة البر . . وانتقل الناس إليها من كل مكان .

وفي هذه السنة قتل مروان بن محمد ، وانقرضت دولة بني أمية من المشرق ، بعد أن ملكت إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر ، وخمسة أيام ، وتولى الملك فيها أربعة عشر ملكاً . . وظهرت على أعقابها دولة بني العباس . والله يرث الأرض ومن عليها .

الدولة العباسية

وفي سنة ١٣٤ تولى الخلافة أبو العباس السفاح . وهو أول حاكم في الدولة العباسية فأقر عبد الرحمن بن حبيب على إمارة إفريقية .

إلياس بن حبيب

عين عبد الرحمن أخاه إلياس عاملاً على طرابلس ، وما زال العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر وتدير مكائدهم . وكان رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي رئيس الإباضية ، فقبض عليه إلياس وضرب عنقه . . ويظهر أن هذا العمل من إلياس لم يقع موقع الرضا من أخيه عبد الرحمن .

حميد بن عبد الله العكي

وأراد عبد الرحمن أن يسترضى الإباضية ، فأقال أخاه إلياس وعين بدله حميد بن عبد الله العكي ، ولكن هذا لم يرض الإباضية ولم يهدئ من ثورة نفوسهم وأخذوا يتلمسون أسباب الثورة للانتقام من إلياس أخى عبد الرحمن .

عبد الجبار بن قيس

وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة ، وتقدم إلى قيادتهم أحد رؤسائهم وهو عبد الجبار بن قيس المرادى ، فالتفوا حوله ، وأعلنوا الثورة على العكي ، فخرج لمحاربتهم وأتاب عنه في القيام بشئون المدينة بكر بن عيسى .

فحاصروا العكي في بعض القرى فطلب منهم الأمان فأمنوه ، وأخذوا من أصحابه نصير بن راشد مولى الأنصار ، فقتلوه في عبد الله بن مسعود التجيبي ، وخرج إليهم بكر بن عيسى يدعوهم إلى الصلح فأبوا ، وقتلوه ، واستمروا في ثورتهم إلى أن استولى عبد الجبار على كل البلاد ما عدا المدينة داخل السور .

يزيد بن صفوان المعافى

لا ندرى ما فعل الله بالعكي بعد أن أمنه الإباضية في إحدى قرى طرابلس . غير أنه لما لم يمكنه التغلب على الإباضية كتب عبد الرحمن بن حبيب بولاية طرابلس إلى يزيد بن صفوان المعافى ، وأرسل مجاهد بن مسلم الهوارى إلى هواره يستألفهم ويغيرهم بعبد الجبار ، فأقام فيهم شهراً يحاول إغراءهم بعبد الجبار والانتفاض عليه ، ولكن هواره لم تصغ إلى قوله ، وطردته فرجع خائباً ولحق بيزيد بن صفوان في طرابلس .

ولم ير عبد الرحمن بن حبيب — وهو في القيروان — بداً من مواجهة القوة بالقوة ، فأرسل إلى طرابلس محمد بن مفروق في خيل ، وكتب إلى يزيد بالخروج معه فخرجوا لقتال عبد الجبار ، فلقاهم هو والحارث بن تليد في أرض هواره^(١) ، فقتل يزيد ومحمد بن مفروق ، وانهزم مجاهد بن مسلم ، ثم اجتمع له جمع كبير فرحف بهم إلى عبد الجبار والحارث بن تليد ، فهزم مجاهد ثانية ، واستولى عبد الجبار والحارث على طرابلس كلها ، وطاردت خيل عبد الجبار مجاهد بن مسلم وعمرو بن عثمان ، فلجأ عمرو إلى سرت ، فأدرسته خيل الحارث وقتلوا بعض أصحابه ، ونجا هو على فرسه جريحاً ، واستولى الحارث على عسكره .

(١) كانت هواره تسكن السواحل من صرمان تقريباً إلى قرب سرت ، وتمتد شرق جبل نفوسة وجنوبيه

واستفحل أمر عبد الجبار والحارث ، ثم اختلفا ، فاقتتلا ، فقتلا سنة ١٣١
ونكب الإباضية بموتهما نكبة كبيرة .

إسماعيل بن زيان النفوسى

وبعد قتل عبد الجبار والحارث ولّى البربر عليهم إسماعيل بن زيان النفوسى
فعظم شأنه ، وسار بجيشه إلى قابس ، وكان بها شعيب بن عثمان ابن عم عبد الرحمن
وكان قد استعد للقاء إسماعيل بن زيان . وخرج عبد الرحمن بن حبيب من
القيروان للقاء إسماعيل . وقد كان جيش شعيب ، وجيش عبد الرحمن يمثلان
كماشة وقع البربر بين فكئها ، وقد التقت خيل إسماعيل بخيل شعيب قريباً من
قابس ، فقتل إسماعيل وأصحابه ، وأسر من البربر خلق كثير ، وتشئت جمعهم ،
وأغذّ عبد الرحمن السير إلى طرابلس ومعه الأسرى وكتب إلى عمرو بن عثمان
فى سرت فقدم عليه . وولى عبد الرحمن على طرابلس عمرو بن سويد المرادى .
وقد سفر الجوى بين إلياس وأخيه عبد الرحمن . وصدرت أعمال من عبد الرحمن
أوغرت صدر إلياس ، وذلك أن عبد الرحمن كان يرسل أخاه إلياس لقتال
البربر وإخضاعهم ، وكلما حصل انتصار على يديه نسبته عبد الرحمن لابنه
حبيب . ومن أجل ذلك صار يتربص به الدوائر . . وقد مرض عبد الرحمن
وكان قد كلف إلياس بمهمة ، فجاء إلياس ليعوده ويودعه . وقد وجد فى وجوده
عنده وهو مريض فرصة لقتله ، وبينما هو يهيم بالانصراف لاحت له منه غرة ،
فطعنه بسكين بين كتفيه نفذت إلى قلبه ، ثم احتزّ رأسه ، وتملك أبواب القصر ،
واحتل القيروان وتولى السلطة . . وكان قتل عبد الرحمن سنة ١٣٧ . وولايته
عشر سنين وسبعة أشهر ، .

* * *

كان إلياس يظن أنه بقتل أخيه عبد الرحمن يتم له الأمر ويستولى على زمام

الحكم في القيروان ، ولكن النتيجة جاءت بعكس ما قصد إليه ، فإن حبيب ابن عبد الرحمن ما لبث بعد قتل أبيه أن ثار بعمه مطالباً بدم والده ، وحصلت بينهما حروب بقرب القيروان ، فطلب حبيب عمه للمبارزة ، وقال له : لا داعي لهذا التطاحن بين المسلمين . فلنخرج للمبارزة فأينا قتل صاحبه تم الأمر للثاني واستراح الناس من القتال ، فتبارزا ، وبعد تطاحن شديد طعن حبيب عمه طعنة أودت بحياته واحتر رأسه ، ودخل القيروان ظافراً ، ورأس عمه ورؤوس كثير من أنصاره محمولة على الرماح . وكان ذلك سنة ١٣٨ . ومدة ولاية إلياس بعد قتله أخاه نحو ثمانية عشر شهراً .

ثورة ورفجومة

ورفجومة هذه قبيلة كبيرة من قبائل البربر المشهورة ، وهي على مذهب الصفرية إحدى فرق الخوارج الذين يستحلون من أهل السنة ما حرم الله ورسوله .

وما كاد حبيب بن عبد الرحمن يستقر به الحكم في القيروان حتى ثارت به ورفجومة برياسة عاصم الورفجومي ، فأرسل عاصم عبد الملك بن أبي الجعدي لقتال حبيب ، ولم يصمد حبيب لقتال ورفجومة ، فلم يلبث أن قتل في المحرم سنة ١٤٠ .

وبعد قتل حبيب تغلبت ورفجومة على إفريقية ، واحتلت القيروان ، وعسفت بأهلها ، وأذاقهم أنواع العذاب ، وربطوا دوابهم في المسجد ، وقتلوا كل من وجدوه من قریش . واشتد البلاء على أهل القيروان فهجروها فراراً من الظلم ، وأرسلوا إلى أبي جعفر المنصور يستنجدون به . ولم تكن ورفجومة تعبر بهذه القسوة الشاذة على آراء جميع قبائل البربر

وخصوصاً الإباضية منهم ، فسرعان ما أنكرت عليها هواره وزناة من بربر طرابلس ، ونهضوا لقتالها بزعامه عبد الأعلى بن السمح ، وسيأتى خبر ذلك .

أبو الخطاب

هو عبد الأعلى ، أبو الخطاب بن عبد الرحمن بن السمح الماعزى النينى ، من رجالات العرب المشهورين ، وكان إباضى المذهب ، ومن أجل ذلك التف حوله البربر الإباضية الذين جمعهم به نحلة المذهب ، وانضوا تحت رايته ، وكان من أكبر أصحابهم وأشدهم تمسكاً بمذهبه . . وكان من أشد خصوم سياسة العرب فى إفريقية ، وقتلهم انتصاراً لبنى مذهبه . وقد أخلص للبربر إخلاصاً جعله منهم فى محل التقدير والإعجاب واختاروه إماماً لهم .

وأبو الخطاب من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا المذهب الإباضى عن أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة بالبصرة ، ثم جاء إلى إفريقية مع الأربعة الآخرين .

ولما وصلوا بلدة صياد المجاورة لزنزور اجتمع عليهم كثير من البربر ، وكانت بلدة صياد إذ ذاك وما جاورها من مواطن البربر ، وكان مذهب الإباضية قد انتشر بينهم بواسطة سلمة بن سعيد وأعوانه . واجتمعت كلمة البربر على أبى الخطاب وانتخبوه إماماً لهم وأصبح عنده جيش عظيم ، واتفقت كلمتهم على فتح طرابلس .

ويقول الشماخى فى كتاب السير : « فلما بايعوا أبا الخطاب قبيل ذلك ودخل مدينة طرابلس سنة ١٤٠ ومعه جماعة المسلمين ^(١) على حين غفلة من أهلها ، وأدخلوا الرجال فى الجوالق ، فلما توسطوا المدينة أشبهوا السلاح وقالوا :

(١) يعنى جماعة الإباضية

« لا حكم إلا لله »^(١) .

وقبض أبو الخطاب على عمرو بن سويد المرادي^(٢) عامل طرابلس من قبل أبي جعفر المنصور وعزله عن الحكم ، وخيره بين البقاء في الأمان ، وبين الخروج من المدينة فاخترار الخروج وسافر إلى المشرق ، واستقر أبو الخطاب في طرابلس . وبعد أن استتب الأمر لأبي الخطاب عين عمر بن يحيى مكانه عاملاً على سرت . . . وكان البربر يتوقعون هجوم ابن الأشعث عليهم ، من الشرق ، ففر أعرابي بابن يحيى في سرت ، فقال له : نخشى أن يباغتنا محمد بن الأشعث من الشرق . فقال له العربي : « لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة ، وهو في جند أمير المؤمنين برجال مشمرين ، وخيل مضمرات ، وسيوف مهندات ، بل يأتيكم جهاراً نهاراً » . وقتل ابن يحيى مع أبي الخطاب^(٣) .

ويقر غير الشماخي إن أبا الخطاب احتل طرابلس في صفر سنة ١٤١ وولى عليها رجلاً من أصحابه يقال له عبد الله رحيمة .

وبعد أن رتب من أمورها ما كانت الحاجة تدعوا إليه سار في جيش كبير إلى القيروان لقتال ورفجومة ، فخرجت ورفجومة لقتاله خارج القيروان بزعامة عبد الملك الورفجومي . وبينما هم في حرب طاحنة مع أبي الخطاب ثار بهم سكان القيروان ، فكانت هذه الثورة سبباً في انهزامهم أمام أبي الخطاب ، وقتل رئيسهم عبد الملك ، وركبهم أبو الخطاب وقومه بالسيوف ، وأسرفوا في قتلهم ، واستولى على القيروان سنة ١٤١ .

(١) هذه الكلمة هي التي اتخذها الخوارج ذريعة للخروج على سيدنا علي وأصبحت شعاراً لهم ، ولا ندرى كيف يقوها الإباضية وهم ينكرون أنهم من الخوارج .

(٢) لم يعين الشماخي اسم عامل المنصور . وقد قلت إنه ابن سويد على سبيل التقريب لأنه هو الذي عينه عبد الرحمن بن حبيب عاملاً عليها قبل موته ، ولا يبعد أن يكون أبو جعفر أقره بعد وفاة عبد الرحمن .

(٣) ملخص من كتاب السير للشماخي .

ولاية أبي الخطاب

وباستيلاء أبي الخطاب على القيروان أصبح والياً على إفريقية . وهو أول وال على إفريقية من الإباضية . وقد بلغه أن أبا جعفر المنصور أرسل جيشاً من مصر لإخضاع إفريقية ، فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي^(١) وعاد إلى طرابلس للاستعداد للقاء جيش أبي جعفر . وأصبحت طرابلس والقيروان تحت حكم أبي الخطاب .

أراد أبو جعفر المنصور أن يرجع إفريقية إلى العباسيين ويدخلها تحت نفوذهم بعد أن نبذ عبد الرحمن بن حبيب طاعتهم واستبد بها . وقد جاءت هذه الفكرة أيام أن كان أبو الخطاب صاحب الدولة والصولة في طرابلس ، وكان يأتمر بأمره من البربر مئات الألوف مما يجعل غزو إفريقية مهمة شاقة ، ولكنه اعتزم الأمر وتوكل على الله .

والذي يمعن النظر في حروب أبي الخطاب مع جيوش أبي جعفر المنصور لا يشك في أنها حروب سياسية قصد منها توسيع النفوذ ، والاحتفاظ بالسلطة على أكبر عدد ممكن من الناس ، وعلى أوسع رقعة من الأرض ، فجيوش أبي جعفر تريد أن ترجع للعرب ما فقدوا من إفريقية ، وتحفظ لهم بسلطتهم عليها . وجيوش أبي الخطاب ترى أن إفريقية بلادهم ، وهم أولى بحكمها ، خصوصاً وقد أصبحوا مسلمين يتعبدون على مذهب عبد الله بن إباح الذي يعتقدون أنه لا ينقص عن أى مذهب من مذاهب المسلمين .

(١) هو من أبناء رستم أمير فارس في حرب القادسية وكان من موالى العرب . وهو من رؤساء الخوارج وقدم إلى إفريقية مع طلائع الفتح ، وأخذ بمذهب الإباضية . ا هـ من ابن خلدون . (انظر ص ١٠٦) اختط تاهرت سنة ١٤٤

عمرو أبو الأحوص العجلي

كنيته أبو الأحوص . وهو أول من وقع اختيار أبي جعفر عليه لقيادة الجيش الذى أعده لغزو إفريقية ، وإنقاذها من ثوار البربر . . . ويظهر أن أبا جعفر لم يكن على علم بكثرة البربر ، وما أصبح لهم من القوة زمن أبي الخطاب لأنه لم يرسل الجيش الكافى لإخضاع البربر ، وكانت النتيجة أن هزم أبو الأحوص .

وسار أبو الأحوص إلى إفريقية . وقد بلغت أخباره أبا الخطاب فاستعد للقاءه ، ولم ينتظره حتى يدخل عليه طرابلس ، بل سار إليه حتى لقيه فى سرت ، فى مكان يقال له مغمداس على شاطئ البحر . وقد التقى الجيشان فى معركة انجلت عن هزيمة أبى الأحوص ، ورجع هو وأصحابه إلى مصر مفلولى الجناح ، واستولى أبو الخطاب على عسكره ، ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس . وكان ذلك سنة ١٤٢ .

محمد بن الأشعث

كانت الهزيمة التى أصابت جيش أبى جعفر فى إفريقية حافزاً له على الاهتمام بأمر إفريقية وإعادة الكرة عليها فى جيش أكثر واستعداد أقوى . ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر لغزو إفريقية ، فلا يمكن أن تصل واحداً من عشرين من جيش البربر الذى يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش . ولكن النصر بيد الله ، والله مع الصابرين .

وابن الأشعث هذا ، هو محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي ، كان والياً على مصر حينما رجع أبو الأحوص مهزوماً من إفريقية ، وقد وقع اختيار أبي جعفر المنصور عليه لغزو إفريقية ، فجهز له جيشاً من أربعين ألف مقاتل ، وزوده بما يلزم له من العتاد ، وأسند إليه إمارة إفريقية ، فكان أول أمير عليها من قبل العباسيين . وسار إليها سنة ١٤٤ (١) . وكان معه الأغلب بن سالم ، ابن عقال ، بن خفاجة ، بن سودة ، التيمي . وهو جد الأغالبة الذين أسسوا دولة بني الأغلب في إفريقية . وسيأتي ذكرها .

واتصلت أخبار ابن الأشعث بأبي الخطاب في طرابلس ، فخرج للقائه في نحو مائتي ألف مقاتل من البربر ، وعسكر في تاورغة ، أوفى ورداسة على بعض الروايات . وعلم بذلك بن الأشعث فاستعد للقائه . والتقى الفريقان قرب تاورغة ، وكشرت الحرب عن أنيابها ، فكانت في أبشع صور الفظاعة والقسوة . وذكر الشماخي في كتاب السير (٢) أنه استشهد من البربر في هذه المعركة نحو اثني عشر ألفاً ودارت الدائرة على البربر فهزموا ، وقتل أبو الخطاب وأصحابه سنة ١٤٤ ، وأرسل رأسه إلى أبي جعفر ببغداد ، وتقدم أبو هريرة الزناتي وجمع فلول البربر ، وأعاد بهم الكرة على ابن الأشعث ، فهزمه ابن الأشعث في ربيع الأول سنة ١٤٤ ، وتبع البربر في الجبال حتى كسر شوكتهم وشتت شملهم ، وتم له الاستيلاء على طرابلس . وبموت أبي الخطاب انتهت إمارة الإباضية على إفريقية ، وكانت مدة ولايته سنتين .

وقد تحريت كثيراً لتحديد المكان الذي وقعت فيه المعركة ممن لهم خبرة بجهات تاورغة وما عساه أن يقارب الحقيقة ، فظهر لي أن هذه المعركة كانت قريبة من قصر قداس غربي تاورغة ، وهو قصر قديم بين سوفجيين وزنزم على طريق

(١) وقيل سنة ١٤٣

(٢) كتاب السير في علماء الإباضية للشيخ أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي . توفي

سنة ٩٢٨ وقبره معروف تحت قصبة ابن مادي بجبل يفرن .

سرت . وما زال بعض الناس من الطاعنين في السن يحكى قصة معارك هائلة وقعت في تلك الناحية من زمن بعيد . . وما زالوا يشاهدون بقايا عظام وجماجم آدمية توجد قريباً من تلك الناحية ، مما يستأنس به لصحة هذا التقدير . ولا يبعد أن تكون كلمة قدّاس محرفة عن ورداسة التي يقال إنها وقعت فيها هذه المعركة ، وهي غير معروفة الآن . ويشهد لوقوعها في ورداسة بيت شعر قيل في هذه المعركة وهو :

قد لقي البربر يوماً شاسا وساقها الحينُ إلى ورداسا
وذكر تاروغة إنما جاء للتقريب لشهرتها ، لا للتحديد ، لأن جيشين يتألفان من مائتين وأربعين ألف مقاتل يلتحمان في معركة لا شك أنهما يحتاجان إلى عشرات الكيلومترات ليتسع مجال الكر والفر لهذا العدد الهائل ، ولذلك فلا يبعد أن تشغل المعركة ما بين تاروغة وقداس .

المخارق بن غفار الطائي

وتقدم ابن الأشعث إلى طرابلس فاستولى عليها ، وولى عليها المخارق بن غفار الطائي ، وسار إلى القيروان لطرده ابن رستم منها . وقد بلغ ابن رستم خبر انتصار ابن الأشعث على البربر وقتل أبي الخطاب فهرب من القيروان ونزل في مكان مدينة تيهرت^(١) ، وبقي هناك . . ودخل ابن الأشعث القيروان غرة جمادى الأولى سنة ١٤٤ .

وفي سنة ١٤٥ أمر ابن الأشعث ببناء سور القيروان ، وأتمه سنة ١٤٦ . وأرسل إلى زويلة وودان جيشاً واستولى عليهما ، وكانتا مسكونتين بالإباضية ، فحاولوا الدفاع عنهما ، وكان رئيسهم عبد الله بن حيان الإباضى ، وكان يقيم بزويلة ،

(١) شرع في بنائها سنة ١٦١ على أنقاض مدينة قديمة .

فقتل ، وقتل معه أناس كثيرون ، وبذلك دانت إفريقية لابن الأشعث ، واستتب له الأمر فيها .

وفى سنة ١٤٧ ثار عليه موسى بن عجلان - وهو أحد جنوده - فأخرجه من القيروان ورجع إلى المشرق . وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وعشرة أشهر .

عيسى بن موسى الخراساني

لما تغلب الجند على ابن الأشعث وأخرجوه من القيروان ولّوا عليهم عيسى ابن موسى الخراساني في ربيع الآخر سنة ١٤٨ ، وتولى أمور الناس من غير عهد من المنصور ، ولا انتخاب من العامة ، وقد استند الجند في ذلك على القوة والإرهاب ولم يقر المنصور هذا العمل ، فعزل عيسى بعد ثلاثة أشهر من ولايته ، وولّى بعده الأغلب بن سالم . وفى أيام موسى كان العامل على طرابلس المخارق ابن غفار .

الأغلب بن سالم التميمي

كنيته أبو عقال . وكان رجلاً شهماً ، صائب الرأى ، محباً للمشورة . قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث الخزاعي . ولما رجع ابن الأشعث إلى المشرق أرسل إليه المنصور عهد الولاية على إفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٤٨ وكان المخارق عاملاً على طرابلس فأبقاه الأغلب على عملها ومرت سنة ١٤٩ ولم يحصل فيها من الأحداث ما يستحق الذكر .

ومنذ أن انتشرت مذاهب الخوارج في إفريقية سنة ١٠٠ كان البربر أول من اعتنق هذه المذاهب ، ووجد دعايتها منهم قلوباً صاغية للمتطرف منها

وغير المتطرف . وشحنوها ضغينة ضد العرب بدعوى أنهم غرباء عن إفريقية ، وتأثر البربر بعامل العنصرية وعامل المذهبية ، وأصبح لكل من هذين العاملين أثره السيئ على نفوس البربر في كراهة العرب ، لأن البربري يشعر بأنه من غير جنس العرب ، وله مذهب غير مذاهب العرب ، ولذلك فقد كثرت الاصطدام بينهم . وكانت سلطة الحكم هي محل التنازع وملتقى الخلافات .

ومنذ أن ابتدأت أقدام العرب تثبت في إفريقية ، وأخذ الإسلام في الانتشار كانت أكثر النحل ثورة بالعرب هم البربر المتأثرين بمذاهب الخوارج وكان الإباضية أقرب طوائف البربر إلى العرب ، وأقل نزاعاً معهم ، ولذلك نجد أكثر الثوار على أمراء إفريقية العرب من الصفرية وغيرهم من النحل المتطرفة . وكان الخوارج ينتهزون أدنى الأسباب للثورة على العرب . وكان أبو قرّة الصفرى في طليعة الناقمين على العرب ، فما كادت تمضى على حكم الأغلب ابن سالم سنتان حتى ثار عليه أبو قرّة سنة ١٥٠ في ناحية الزاب . والتفت حوله جموع من البربر لا تحصى ، فخرج الأغلب لقتالهم ، ففر أبو قرّة وتشتت جموعه ، وأراد الأغلب أن يطارده ، ولكن رؤساء الجند أبوا عليه ذلك ، واكتفوا بما حصل . ولما أصر الأغلب على رأيه خالفوا عليه ، وأخذوا يتسللون إلى القيروان وساءت الحال بين الأغلب وجنده ، وسنحت الفرصة لبعض خصومه للوثوب عليه ، وكان الحسن بن حرب الكندى حاكم قابس يربص بالأغلب ، فانتهاز فرصة تدمير الجند فاستألم وثار على الأغلب . وبعد حروب بينهما قتل الأغلب في شعبان سنة ١٥٠ . ومدة حكمه سنة وثمانية أشهر .

المخارق بن غفار الطائى

وبعد موت الأغلب اجتمعت كلمة أصحابه على حاكم طرابلس المخارق ابن غفار فولوه عليهم ، وحملوا على الحسن حاكم قابس ففر إلى تونس ، وقام المخارق بأمر إفريقية ما عدا تونس .

آل المهلب

آل المهلب بيت عربي عريق في المجد ، له المكانة الأولى في أيام العرب ووقائعهم ، ورثوا الكرم والشجاعة كابراً عن كابر . وكانت لهم المكانة الممتازة أيام الدولتين : الأموية والعباسية ، وكانوا من خير الولاة في إفريقية ، رفعوا من ذكر العرب وأقدارهم ، وكان لهم المقام الأول في حرب الخوارج في إفريقية والشرق . وكان للمهلب بن أبي صفرة القيدح المعلى في قتالهم وتشتيت جموعهم . وأول ولاتهم في إفريقية عمرو بن حفص ، وآخرهم محمد بن مقاتل العكسى .

عمرو بن حفص بن قبيصة

لقبه (هزَارْمَرْد) وهو أول وال من آل المهلب على إفريقية ، ولاه عليها أبو جعفر المنصور سنة ١٥١ . وكان مركز ولايته القيروان . وسار إلى طنبنة فبنى سورها واستخلف على القيروان قريبه حبيب بن حبيب فتار عليه البربر وقتلوه .

الجنيد بن بشار الأسدى

ولى عمرو على طرابلس الجنيد بن بشار الأسدى . وفى سنة ١٥٣ ثار عليه برابر طرابلس بزعماء يعقوب بن ليب بن يزيد بن يطفوف الملووزى الإباضى المغيلى ، وكنيته أبو حاتم ، فأمد عمرو الجنيد بن بشار بالجوش لمحاربة يعقوب ولكن كثرة البربر تغلبت على الجنيد وأصحابه فانهزموا إلى قابس ، ودخل أبو حاتم طرابلس وأقام بها أشهراً . وكثرت الثورات في إفريقية ، وانتفضت على عمرو من كل جانب .

ورأى البربر فى انتفاض إفريقية فرصة لانتزاع الحكم من العرب فاجتمع أمراء قبائلهم من كل مكان ، وذهبوا إلى عمرو فى طنبّة ، وأحاطوا بها فى اثنى عشر معسكراً لا يقل ما فيها من المحاربين عن خمسة وسبعين ألفاً ، ومن أشهر هؤلاء الأمراء أبو قرة المغيل الخارجى الصفرى أمير تلمسان ، وكان معه أربعون ألفاً. وعبد الرحمن بن رستم الإباضى فى خمسة عشر ألفاً جاء بهم معه من مكان تاهرت . وأبو حاتم فيمن معه من برابر طرابلس. وعاصم السدراتى وكان معه آلاف من الإباضية . والمسور الزناتى فى عشرة آلاف من الإباضية . وأمم من البربر من زناتة وصنهاجة وهوارة لا تحصى . . وقال ابن حداث : ثار يعقوب بن ليبب - أبو حاتم - سنة ١٥٠ وغلب على إفريقية كلها ، وفتح القيروان ، وبلغت عساكره من الخيل خمسة وسبعين ألف فارس ، ومن الرجال ٣١٥ ألفاً . . . كل هذه الجموع الحاشدة وجيش عمرو لا يتجاوز ١٥٥٠٠ .
وعلم عمرو ألا سبيل إلى التغلب على هذه الأمم المجتمعة من طريق الحرب ، فسلّك مع رؤساء البربر طريق الوعود ، والرشوة ، والهدايا . وأول من قبل هداياه أخو أبى قرة ، ووعد به بأن يعمل على صرف أخيه ، وتفريق الصفيرية عنه ، وقد فعل ، ونجحت الحيلة ، وتفرق الصفيرية عن أبى قرة ، وهاجم عمرو ابن رستم فانهزم أمامه ورجع إلى تاهرت ، وقتل من أصحابه نحو ثلاثة آلاف . ورجع عمرو إلى القيروان ، وما زالت جيوش البربر حولها كثيرة ، وقد أدخل عمرو إلى القيروان كل ما يحتاج إليه من المؤن والعتاد الحربى .

وأقبل أبو حاتم فى مائة وثلاثين ألفاً وحاصر القيروان ، وكان عمرو يخرج كل يوم لقتالهم . وكان البربر من الكثرة بحيث كلما فנית أمة جاءت أختها . . وطال الحصار على عمرو ومن معه فى القيروان ، وفى ما عندهم من المتاع حتى أكلوا الدواب والسنائير ، وقل جند عمرو من طول الحرب وكثرة الموتى ، فاضطرب أمره وضاق بالحياة ذرعاً . وأشيع أن يزيد بن حاتم بعثه المنصور لنجدة عمرو فكبر على عمرو أن يقال يزيد أخرج عمراً من الحصار ، فقال عمرو : « إنما هى رقدة

وأبعث إلى الحساب» ، وخرج إلى العدو فما زال يقاتل حتى قتل في نصف ذى الحجة سنة ١٥٤^(١) واستولى أبو حاتم على القيروان، بعد حصار دام نحو سنة، وبايعه الإباضية والبربر بالولاية على إفريقية. وكان ما وقع بين عمرو وبين البربر من الوقائع ثلاثمائة وخمساً وسبعين واقعة في مدة لا تتجاوز سنة على رواية الطبرى، ولا تتجاوز سنتين على رواية الرقيق. عليه وعلى آل المهلب جميعاً رحمة الله.

وقد استاء المنصور لقتل عمرو، فأرسل يزيد بن حاتم إلى إفريقية للأخذ بثأر عمرو من أبي حاتم.

يزيد بن حاتم

هو يزيد بن حاتم، بن قبيصة، بن المهلب. وكنيته أبو خالد، كان شجاعاً مقداماً، ذا نجدة ومروعة. وكان شبيهاً بجده المهلب بن أبي صفرة في الكرم والشجاعة، وكان من خواص المنصور ووجوه ولاته.

ولاه المنصور إفريقية سنة ١٥٥. وكان أبو حاتم الإباضى إذ ذاك مستولياً على طرابلس والقيروان. ويقال إنه كان مستولياً على إفريقية كلها.

وبلغته أخبار يزيد بن حاتم، فخرج إلى طرابلس للقائه، فغدر به أهل القيروان فرجع لقتالهم فقاتلهم، ووكل عليهم جرير بن مسعود المديونى ورجع إلى طرابلس ينتظر ورود يزيد بن حاتم.

ولما وصل يزيد بن حاتم إلى طرابلس انضم إليه جماعات من البربر لقتال أبي حاتم الإباضى. وكان مع أبي حاتم جيوش كثيرة، فالتقى بها يزيد واحتدم القتال بين الفريقين، وانجلت المعركة عن هزيمة أبي حاتم فالتجأ إلى جبل نفوسة في فلول من جيشه، فطارده يزيد إلى أن أدركه في جندوبة، فقتله في

(١) هذه الرواية منقولة عن الرقيق. وقال الطبرى سنة ١٥٣

فلاثنين ألفاً من أصحابه ، وتفرقت جموع البربر واستولى يزيد على طرابلس .
كان أبو حاتم من أئمة الإباضية المشهورين . وبمناسبة قتله نقل الأستاذ
الشماعى فى كتاب السير خرافة من صنع الذين يعملون لتفريق الكلمة ، ورفع
أقدار بعض الناس على حساب الطعن فى أقدار غيرهم . قال الأستاذ الشماعى
ما نصه :

« إن مكان المعركة يستضىء نوراً كل ليلة ، وقد اشتهر عندنا — من غير أن
أراه — أن النور ينزل على قبره — يعنى قبر أبى حاتم — وقيل لم يزل ينزل حتى
دفن إلى جنبه أعرابى فكف » اهـ . ما نقله صاحب السير .

ومثل هذه الخرافة لا يصح من الأستاذ الشماعى أن يسود بها صحائف كتابه
فإن أى إنسان لا يصدق أن النور الذى كان ينزل على قبر أبى حاتم انقطع لما
دفن الأعرابى إلى جانبه . ولكن الذى اختلق هذه الخرافة يريد أن يرفع من
شأن أبى حاتم بالطعن فى العرب . وهو خطأ فى التقدير يؤدى إلى الفتنة بين
المواطنين وإلى تأريث الكراهة بينهم . ولو اقتصر الخرافة على مدح أبى حاتم
لما عانا شئ منها ، ولما تعرضنا لها بنقد .

وقد ذكر مثل هذه الخرافة فى حكاية قتل مهدي النفوسى حينما قتل وعلق
رأسه على باب سور طرابلس ، فكانت أسارير وجهه تنبسط حينما يقولون له
انتصر أصحابك ، وتنقبض حينما يقولون له انتصر العرب . وأغرب ما فى الموضوع
أن البارونى باشا ينقل هذه الحكايات فى كتابه « الأزهار الرياضية » ولا يعلق
عليها بشئ .

ويجب على الطرابلسيين من العرب والبربر أن يتجنبوا كل ما من شأنه
الطعن والتحقير ، وما يوجب الفرقة وتغيير النفوس ، فقد جرت هذه الأوصاف
على الوطن أكبر الولايات وأشد النكبات ، ونحن فى زمن أحوج ما نكون فيه
لجمع الشمل واتحاد الكلمة .

سعيد بن شداد

وبعد أن قضى يزيد على أبي حاتم وجيشه ولى على طرابلس سعيد بن شداد وسار إلى القيروان فدخلها بدون حرب يوم الإثنين لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ١٥٥ ، وأقر الأمن ، واطمأن الناس ، وباشروا أعمالهم ، وأرجع إلى البلاد بعض ما فقدته من النشاط التجارى والصناعى ، ورتب أسواقها ، وجعل لكل صناعة سوقاً خاصة بها .

وفى سنة ١٥٦ ثار عليه بناحية طرابلس أبو يحيى الهوارى (بن قرياس)^(١) فتصدى له عبد الله بن السمط الكندى — قائد جند طرابلس من قبل يزيد ابن حاتم — فالتقى به على شاطئ البحر ، وأسفرت المعركة عن هزيمة بن قرياس ، وقتل عامة أصحابه ، وتم الأمر فى إفريقية ليزيد بن حاتم المهلبى وضبط أمورها .

وكان يزيد هذا شجاعاً مشهوراً بالكرم ، أغرى كرمه به الشعراء ، ودلهم عليه ، فتباروا فى مدحه ، ونالوا من عطائه .
ومن مدحه من الشعراء ربيعة بن ثابت الرقى ، قصده ذات مرة ، فشغل عنه بعض الوقت ، فانصرف مغاضباً وقال :

أرأنى — ولا كفران لله — راجعاً
بخفى حنين من عطاء ابن حاتم
فبلغ يزيد ذلك ، فردّه وملاً له خفيه ذهباً ، فأخذ يمدحه ويفضله على يزيد ابن أسد السلمى . ومن شعره فى مدحه :

حلفت يميناً غير ذى مثنوية يمين امرئ آلى وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيديين فى النداء يزيد سليم والأغر بن حاتم

(١) ذكره ابن خلدون باسم يحيى ابن فوناس .

فهمّ الفتى الأزدى إتلافُ ماله وهمّ الفتى القيسىّ جمعُ الدراهم
فلا يحسب التتمامُ أنى هجوته ولكننى فضلت أهل المكارم

ويزيد هذا هو القائل فى نفسه :

لا يَألفُ الدرهمُ المضروبُ خرقتنا إلا لماماً يسيراً ثم ينطلقُ
يمرُّ مرّاً عليها وهى تلفِظُها إننى امرؤٌ لم يحالفُ صُرقى الورقِ

وكان يزيد هذا يضرب به المثل فى الكرم وعظم الهمة .

توفى بالقيروان فى ١٨ من شهر رمضان سنة ١٧٠ أو ١٧١ . ومدة ولايته
خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وفى سنة ١٥٧ انتقضت عليه ورفجومة ، ولولا عليهم رجلا اسمه أبو زرجومة
فأرسل إليهم يزيد جيشاً فهزموه ، فأرسل إليهم ابنه المهلب فى جيش ، وأمدّه
بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبى ، فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل .

وفى سنة ١٦١ انتقضت نفراوة ، ودعوا إلى مذهب الإباضية فهزمهم .
وركدت ريح الخوارج من البربر ، وتداغت بدعتهم إلى الاضمحلال .

وكان يزيد بمكان من التقوى وخوف الله . وكان عادلاً فى أحكامه حازماً
فيها . وكان يقول : « والله ما هبت شيئاً قط هبتي من رجل ظلمته ، أنا أعلم
أن لا ناصر له إلا الله ، فيقول الله حسبك ، الله بينى وبينك » .

داود بن يزيد

وقبل أن يموت يزيد استخلف ابنه داود على إفريقية حتى يأتى التقليد
من بغداد لمن يختاره الخليفة لولاية إفريقية . ولم يمهل البربر داود فثاروا به ،
ولكنه انتصر عليهم وقتل كثيراً منهم ، واحتفظ بولاية إفريقية ، حتى صدرت

أوامر هارون، الرشيد بولاية روح بن حاتم ، وهو عم داود ، بعد تسعة أشهر ونصف من ولايته .

روح بن حاتم

هو أخو يزيد بن حاتم، وكنيته أبو خالد . ولاه الرشيد على إفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٧١ .

وفي هذه السنة رغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت في موادعته فوادعه . قال ابن خلدون واستكان البربر للغلب ، وفرضت عليهم الضرائب ، واستقر الإسلام .

وتوفي روح ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان سنة ١٧٤ . ومدة ولايته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر .

علي بن زياد العبسي^(١)

وفي أيام ولاية روح — وكان مقرها القيروان — كان يوجد بتونس العلامة الفقيه الأستاذ علي بن زياد العبسي الطرابلسي ، سمع من مالك ، والثوري ، والليث بن سعد ، وابن لهيعة ، ولم يكن بإفريقية مثله . . أخذ عنه البهاول بن راشد، والإمام سحنون ، وشجرة بن عيسى ، وأسد بن الفرات . وكان يقول : إنني لأدعو الله عز وجل لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت العلم عليه . . ولم يكن سحنون يقدم عليه أحداً من أهل إفريقية . . وهو أول من أدخل موطأ مالك لإفريقية وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه ، وهو معلم سحنون . . وسأل سحنون شرحبيل قاضي طرابلس عن أصل علي بن زياد فقال : كشفنا عن أصله فإذا هو من العجم ، وكان أوله من طرابلس ، ثم سكن

(١) ملخص من رياض النفوس للمالكي ، ولم يذكر تاريخ ولادته .

مدينة تونس . . وكان البهلول يفرع إلى علي بن زياد في مشكلات العلم . قال
سحنون : ما بلغ البهلول شسع على بن زياد ، ويقول ما أنتجت إفريقية مثل
علي بن زياد . وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي
ابن زياد ليخبرهم من هو على الصواب .

أرسل إليه أمير إفريقية ورسول الخليفة يستشيرانه فيمن يلي القضاء فامتنع
عن الذهاب إليهما ، فحضرأ إليه في منزله ، فلما قيل له إنهما بالباب حول وجهه
إلى الحائط ، فدخلا عليه وسأله الوالي بلسان رسول الخليفة عمن يلي القضاء في
إفريقية ، فحول وجهه إلى القبلة وقال : ورب هذه القبلة ما أعرف بها أحداً
يستوجب القضاء ، قوموا عني .

وبعث روح بن حاتم — وكان بالقيروان — في طلبه ليؤليه القضاء فامتنع
ورجع من فوره إلى تونس . . .

أراد يوماً أن يصلى بجامع القيروان فأتى إلى سارية ، فأراد أن يكبر فارتعدت
فرائضه خوفاً من الله ، ثم تحامل على نفسه وكبر فتغير لونه .
وله مواقف محموددة في العلم والزهد والخوف من الله .
توفي سنة ١٨٣ عليه رحمة الله .

نصر بن حبيب المهلبى

بويج له في العشر الأخير من رمضان بعد وفاة روح . ومدة ولايته سنتان
وثلاثة أشهر .

الفضل بن روح بن حاتم

ولاه الرشيد إفريقية في المحرم سنة ١٧٧ .

يحيى بن موسى

وولى الفضل من قبله يحيى بن موسى عاملاً على طرابلس . وفى جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ثار الجند على الفضل ، وقدموا عبد الله بن عبد ربه بن الجارود ، وتزعم الثورة من غير إذن الرشيد ، وأبقى يحيى بن موسى عاملاً على طرابلس . وانتشرت الثورة فى إفريقية كلها ، وقتل الفضل فى شعبان سنة ١٧٨ ، ودامت ولايته سنة وخمسة أشهر ، وهو آخر أمير من آل المهلب فى إفريقية ودامت ولايتهم فيها سبعة وعشرين سنة من سنة ١٥١ إلى سنة ١٧٨ .

عبد الله بن الجارود

وبعد أن قتل الفضل تولى ابن الجارود الأمر من بعده ، وكانت له مع البربر وقائع هائلة ، وتغلب على جزء كبير من إفريقية . وأعطاه الرشيد الأمان فاستجاب للطاعة ، واتخذ القيروان محلاً لحكمه وكتب إلى عامل طرابلس يحيى ابن موسى أن أقدم إلى القيروان فأنى مسلم إليك أمرها ، فخرج يحيى بمن معه ، فلما بلغ قابس تلقاه بها عامة الجند من القيروان ، ومعهم النضر ابن حفص وعمرو بن معاوية . وخرج ابن الجارود من القيروان واستخلف عليها المقرح بن عبد الملك ليحافظ على الأمن حتى يصل يحيى بن موسى . وكانت مدة ابن الجارود سبعة أشهر .

وكان رجل يسمى العلاء بن سعيد أراد أن يزاحم يحيى بن موسى على القيروان فانتهاز فرصة تخلى ابن الجارود عنها ودخلها قبل أن يصل إليها يحيى وقتل جماعة من أصحاب ابن الجارود . . . وجاء يحيى بمن معه ، وطلب إلى العلاء أن يتخلى عن القيروان ، وأن يفرق أصحابه إن كان فى الطاعة ، فأجاب العلاء الطلب ، وصرف أصحابه إلى مواضعهم وسلم البلد إلى يحيى ورجع إلى طرابلس .

ولما تخلى ابن الجارود عن القيروان ذهب إلى طرابلس ، وفي نيته أن يذهب إلى المشرق ، فوصل إلى طرابلس قبل العلاء بن سعيد ، فلقى بها يقطين بن موسى فخرج معه إلى المشرق ، فالتقوا في الطريق بهرثة بن أعين قادماً إلى إفريقية والياً عليها من قبل الرشيد .

كان العلاء كتب إلى هرثة أنه هو الذي أخرج ابن الجارود من القيروان يريد بذلك الواقعة بآبن الجارود لأنه قتل الفضل واستبد بإفريقية بدون إذن الرشيد ، وقد صدق هرثة قوله وكافأه بجائزة سنوية . . . ولما التقى هرثة بآبن الجارود ، وأخبره آبن الجارود بالحقيقة ، وهي أنه هو الذي سلم القيروان ليعحي بن موسى ، وأن العلاء خرج من القيروان بناء على تهديد يعحي — لما علم هذا قدم يعحي على العلاء ، وأرسل آبن الجارود إلى الرشيد ليعتذر له مما فعل ويقدم له الطاعة .

هرثة بن أعين الهاشمي^(١)

لما شق آبن الجارود عصي الطاعة في إفريقية وقتل الفضل ، لم يكتف منه الرشيد بالاعتذار فيما بعد ، بل فكر فيمن يخلفه فوقع اختياره على هرثة بن أعين ، فولاه على إفريقية سنة ١٧٩ ، وقدم إليها يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من هذه السنة .

سفيان بن أبي المهاجر

وولى هرثة على طرابلس سفيان بن أبي المهاجر ، وفي أيامه أمر هرثة ببناء سور طرابلس من جهة البحر . وبني القصر الكبير ليرابط به الجند

(١) ضبطه في خلاصة تاريخ تونس بضم الياء

والمدافعون عن البلاد لرد الأعداء عن الثغر. وكان الذى يشرف على عملية البناء زكريا أبو قادم، وهو أحد خواص هرة.

وفى أيام هرة استراح الناس، وأمنوا وانصرفوا إلى أعمالهم... ولكن البربر لم تهدأ نائرتهم بعد، وكل ما نزل بهم من الهزائم والقتل فى حروب أبى الخطاب وأبى حاتم وغيرها لم يثن من عزمهم، ولم ينسهم الأخذ بالثأر من العرب كلما سنحت لهم الفرصة. فخرج من بينهم أحد رجالاتهم، وهو عياض بن وهب الهوارى، ودعا إلى الثورة على هرة، فسرعان ما ابوا نداءه ونشبت الحرب بينهم وبين هرة. وحاول هرة أن يقضى على الفتنة فاستعصت عليه، وكثرت الخلافات وأغلقت زمام الأمر من يده، فلم يسعه إلا أن يستأذن الرشيد فى الاستقالة فأذن له، ورجع إلى المشرق فى رمضان سنة ١٨١. وسجنه المأمون لآتهامه بمالاته لإبراهيم بن المهدي. ومات فى السجن سنة ٢٠٠ ولا ندرى ماذا حصل لعياض الثائر على هرة.

محمد بن مقاتل بن حكيم العكى^(١)

وبعد أن قبل الرشيد استقالة هرة أسند إمارة إفريقية إلى محمد بن مقاتل ابن حكيم العكى سنة ١٨١^(٢). وهو أخو الرشيد من الرضاة. وكان سيئ الخلق ضعيف الإرادة فثار عليه تمام بن تميم التميمى سنة ١٨٣ بتونس، ودخل عليه القيروان الخمس بقين من رمضان من هذه السنة، فانتزعها منه، واستسلم له، وطلب الأمان على حياته فأمنه، واشترط عليه أن يخرج إلى طرابلس فخرج إليها، وكانت ولاية العكى ستين وعشرة أشهر.

(١) ضبطه ابن أى زرع فى تاريخه « الأنيس المطرب » بضم العين .

(٢) يقال إنه قدم إفريقية فى رمضان من هذه السنة .

وكان إبراهيم بن الأغلب والياً على الزّاب من قبل هارون الرشيد ، فقدم لقتال تمام في القيروان ، ففر تمام إلى تونس ، وكان هذا بعد أن استسلم له ابن مقاتل . ودخل الأغلب المسجد فخطب في الناس — وكان لسنا فصيحاً — فحثهم على التمسك بالعكبي ، وأفهمهم أنه هو الأمير من قبل الخليفة واستقدمه من طرابلس وسلم له إمارة القيروان . . . والتقى تمام مع إبراهيم بن الأغلب في حروب كثيرة . وفي المحرم سنة ١٨٤ استسلم تمام للأغلب وقدم الطاعة للعكبي . وكثرت شكايات الناس إلى الرشيد في العكبي وفساد حكمه وسوء سلوكه ، فعزله في منتصف جمادى الآخرة سنة ١٨٤ .

وذكر ابن أبي زرع في تاريخه « الأنيس المطرب » سبباً آخر لعزله ، وهو أن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المؤسس الأول لدولة الأدارسة بالمغرب كان له مولى يقال له راشد ، هو الذي أشرف على تربيته ، وهرب به من المشرق إلى المغرب خوفاً على حياته ، وكان شجاعاً مقداماً ، وذا رأى صائب .

ولما أرسل الرشيد سليمان بن جرير إلى المغرب ليقتل إدريس أخذ يحتال عليه حتى قتله بالسم سنة ١٧٧^(١) ، وبقي راشد يدير مملكة الأدارسة ويتولى تربية إدريس الثاني ، فكان لا بد من التخلص من راشد فأوعز الرشيد إلى إبراهيم بن الأغلب بقتله وأخذ يحتال له حتى قتله حوالي سنة ١٨٨ .

وأراد محمد بن مقاتل العكبي أن يتزلف إلى الرشيد بهذا العمل ، فأرسل إليه يخبره بأنه هو الذي دبر قتل راشد . ولكن الرشيد تحقق أن الذي دبر قتل راشد هو إبراهيم بن الأغلب ، فعزل العكبي عن إفريقية وولّى بدله ابن الأغلب . وفي هذا الحادث يقول ابن الأغلب فيما كتب به إلى الرشيد :

ألم ترني بالكيد أرديت راشداً وإني بأخري لابن إدريس راصد

(١) يقال إنه وضع له السم في « دلاءة » والدلاءة كلمة بربرية اسم للبطيخة الخضراء .

تناوله عزي على بعد داره بمحتومة قد هيأتها المكاييد
فتاه أخوعك بمقتل راشد وقد كنت فيه شاهداً وهو راقد

وإلى هنا انتهى دور من أدوار الحكم في إفريقية كان ولايتها فيه خاضعين
لأوامر الخلفاء في دمشق وبغداد من الأمويين والعباسيين . ودخلت في دور
فيه كثير من الحرية في العمل والاستقلال بالرأى ، مع بقاء شيء من الارتباط
بالخلافة العباسية ببغداد لا يعدو تلك التقاليد الدبلوماسية التي تشعر بالموودة
والارتباط الأدبي . . هذا الدور هو قيام دولة الأغالبة .

* * *

وقبل أن ندخل في الكلام على دولة الأغالبة يحسن أن نذكر شيئاً من
نظام الحكم في إفريقية الذي كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، وخلفاء بني
أمية والعباسيين .

كانت مهمة العرب في إفريقية — في عهد الخلفاء الراشدين — مهمة الفاتح ،
وكانت عسكرية بحتة ، وطم من السلطان ما لقواد الجيوش ، ولم تكن لهم فيها
إدارات ودواوين لأن الأمور فيها إذ ذاك لم تستقر ولم يتخذها العرب دار مقام .
وجاء دور الأمويين والعباسيين ، وكثر فيه تردد العرب على إفريقية
فاتحين ، فاتسعت فيه فتوحاتهم . . فكان عصر الفتح وتمدث الثورات ونشر
السلام ، وتعاليم الإسلام ، وتفهم الناس فضائله ، وما ترمى إليه دعوته من خير
لل بشرية وسعادتها .

واقترضت ظروف الاستقرار أن يوضع نظام حكومي يتناسب مع الوضع
القائم إذ ذاك ، فكان كما يأتي :

يعين الخليفة الوالي (الأمير) ومحل إقامته دار الإمارة بالقيروان التي بناها
عقبة ابن نافع بجوار الجامع الأعظم . . والوالي يعين العمال على المقاطعات ،
ومحل إقامتهم عواصم المقاطعات . . فعامل طرابلس يقيم بمدينة طرابلس لأنها

عاصمة القطر ، وهكذا في غيرها من المقاطعات .

ويعين الولى (الأمير) رئيساً على ديوان الخراج ويسمى (رئيس ديوان الخراج) وهو يساوى وزير المالية . . ويعين رئيساً على البريد ، ويسمى (صاحب البريد) وهو يساوى مدير مصلحة البريد . . ويعين رئيساً على ديوان الجند ، ويسمى (رئيس ديوان الجند) وهو يساوى وزير الحربية ، ويأحق به قائد الأسطول ، ويسمى (مقدم العمارة) وهو يساوى وزير البحرية . . وينشئ ديوان الرسائل ويشمل كل ما يتعلق بالرسائل والمكاتبات . . ويعين قاضياً . والقاضى يختار نواباً عنه فى الجهات البعيدة وهو مرجعهم فى كل ما يتعلق بهم .

وما كاد هذا العصر ينقضى حتى اطمأنت نفوس البربر إلى الإسلام ، وتذوقوا آداب القرآن ، واهتدوا بهديه ، وألفوا عادات العرب ، وتسموا بأسمائهم ، واقتبسوا الكثير من طبائعهم ، واقتنع الكثير منهم بما ترى إليه سياسة الإسلام من الأخوة والمحبة ، فأصهروا فى العرب ، وأصهر العرب فيهم . وأصبحوا هم والعرب إخواناً ، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى . وانتشرت فى إفريقية بل وفى المغرب أيضاً - آداب العرب وصناعاتهم ، فوجد فيها البربر غذاء روحياً ومادياً . وتمكن بعض الأمراء مثل حسان ابن النعمان من إدخال بعض النظم على الإدارات بقدر الضرورة .

وقد دامت مدة ولاية الأمويين والعباسيين فى إفريقية ١٣٤ سنة ، أى من سنة ٥٠ إلى سنة ١٨٤ . وعددهم ستة وعشرون أميراً ، أولهم عقبة بن نافع ، وآخرهم محمد بن مقاتل العكى .

دولة الأغالبة

دولة عربية إسلامية ، قامت في شمال إفريقيا سنة ١٨٤ . وكان نظام الحكم فيها فردياً وراثياً ، منحصرأ في بني الأغلب .
وأهم الوظائف فيها هي :

١ - صاحب الخراج . . . وأول من أنشأ هذه الوظيفة هو حسان بن النعمان أيام كان والياً عليها من قبل عبد الملك بن مروان سنة ٧٧ ، ثم توسع فيها الأغالبة بما يتفق مع ثروة البلاد أيام حكمهم ، وهى من أكبر الوظائف خطراً في الدولة ، لأنها تتعلق بثروة البلاد .

٢ - صاحب البريد . . . وهو بمثابة وزير المواصلات ، وسمى صاحب البريد دون أن يضاف إلى شىء آخر ، لأن للبريد أهمية كبرى في الدولة لأنه يتعلق بنقل أخبار الدولة . . . وكان للبريد محطات فيها خيل وبغال . وكلما وصل عامل البريد محطة غير دابته التى كان يركبها ، بعد أن أجهداها في السير للوصول إلى المحطة التى بعدها في أقصر وقت ممكن . ويضاف إلى صاحب البريد رئاسة البوليس السرى .

٣ - قائد الجيش . . . وهو يقوم مقام وزير الحربية .

٤ - مقدم العمارة . . . وهو بمثابة وزير البحرية .

وكان لدواة الأغالبة أسطول عظيم . وكانت له الغلبة في البحر الأبيض المتوسط على أسطول روما . . . وقد فتح صقلية ، وفالورية ، وسردانيا ، ومالطا . وكان مؤلفاً من عدة أنواع من السفن لأغراض مختلفة . وإليه يرجع الفضل في حراسة السواحل .

٥ - العامل ، ووظيفته إدارية ، ينظر إلى المصاحبة الوطنية من حيث الإدارة والتنظيم .

٦ - الحاجب ، هو مدير التشريعات ، وله نفوذ كبير في القصر .

٧ - القضاء ، كان متمشياً مع أحكام الكتاب والسنة ، والقياس ، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص . وكان لا يتولاها إلا من توفرت فيه قوة الإدراك والتبحر في العلم بعد استشارة أهل الحل والعقد في البلاد .
وكان القضاء مستقلاً عن الإدارة الأميرية ، ولا يتدخل الأمير في شؤون القاضي وهو حر في أحكامه . ويعين القاضي نواباً عنه في الأماكن البعيدة من محل عمله في داخل المملكة .

٨ - الجند : ينقسم الجند إلى ثلاثة أقسام : الحرس الأميرى وهو المخصص لحراسة الأمير ، وليس له عمل غير ذلك . والجيش : وهو مركب من عدة عناصر : من العرب ، والبربر ، وغيرهم ، وكلهم مأجورون « مرتزقة » لا غاية لهم من عملهم إلا الحصول على الأجر ، وما يقع في أيديهم من الغنائم . . . أما المحافظة على الوطن وكيان الدولة فهما من الأمور التي لا تخطر لهم على بال . . . وقد كان هذا الجند المأجور من أقوى أسباب سقوط دولة الأغلبة .
أما سلاح الجند ، فكان القوس ، والرمح ، والسيف ، والكبش ، والمنجنيق . هذه هي أهم الوظائف التي كانت تعتمد عليها دولة الأغلبة في تسيير دفة الحكم وإقرار الأمن .

إبراهيم بن الأغلب

هو إبراهيم بن أبي العرب الأغلب ، بن سالم أبي عقيل ، بن خفاجة التميمي ، وهو أول من أسس دولة الأغلبة . . . وكان ماضى العزم ، قوى الإرادة ، صائب الرأي ، وشجاعاً مقداماً ، وعالمًا وخطيباً . سمع من الليث بن سعد ، ووهب له جلاجلَ أم ولده . . . شاع ذكره بين الناس ، واتجهت إليه أنظارهم . . . وقد وقع عليه اختيار هارون الرشيد فولاه على الزاب . . . والزاب

يطلق على عدة بلدان بجوار بسكرة ، وكل منها يكون قري متجاورة ، كل منها يسمى الزاب منها زاب بسكرة ، وزاب طلوقة ، وزاب الدوسن ، وبسكرة قاعدة هذه البلدان كلها . فاضطلع بالأمر ، وأحسن السيرة ، ورضيته الكافة ، واستقل بالولاية غير منازع وتوارثها بنوه خلفاً عن سلف كما سنا ذكره .

تقدم أن العكي كان ضعيف الإرادة ، وتبين للرشيد عجزه عن إدارة الحكم . ونتيجة لهذا العجز طمع فيه بعض الثوار فثاروا به . وقد رفع الأهالي رغبتهم إلى الرشيد في تعيين إبراهيم بن الأغلب بدله . فاستجاب الرشيد لهذه الرغبة فعزله وولى بدله إبراهيم بن الأغلب .

وقد اشترط إبراهيم لنفسه شروطاً أقره عليها الرشيد ونفذها له ، وهى ثلاثة :
أولاً : أن يستقل بإدارة شئون إقليمية الداخلية عن الخليفة .

ثانياً : أن يتولى إمارة إفريقية ذريته من بعده (بطريق الوراثة) .

ثالثاً : ألا يدفع الإعانة التى كانت تدفعها إفريقية لمصر ، وقدرها مائة ألف دينار ، واشترط على نفسه أن يدفع للخليفة خراجاً سنوياً قدره أربعون ألف دينار فوافقه الرشيد على ما طلب ، وولاه أميراً على إفريقية فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ وهو أول أمير من بنى الأغلب على إفريقية ، وأول من جعل إمارة إفريقية وراثية فى ذريته فى العهد الإسلامى .

ومن قوله — وكان قد خلف زوجه بمصر :

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلا وذكرك يثنى دائماً عنق
ولا ذكرتك إلا بت مرتقباً أرعى النجوم كأن الموت معتنى

بنى مدينة القصر القديم سنة ١٨٥ على ثلاثة أميال من القيروان ، وسماها العباسية ، ولها الآن بقايا آثار تعرف بقصور الأغالبة .

وفى هذه المدة كان سفيان بن أبى المهاجر عاملاً على طرابلس من مدة هرثمة فأقره إبراهيم بن الأغلب . ويظهر أن أهل طرابلس كانوا غير راضين عن

سفيان بن أبي المهاجر فدبروا الثورة ضده ، وثاروا عليه سنة ١٨٩ بزعمامة إبراهيم ابن سفيان التميمي ، وأخرجوه من داره ، وقتلوا أصحابه ، وأمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج .

إبراهيم بن سفيان التميمي

وولى أهل طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي ، وما كان إبراهيم الأغلب ليقر هذا العمل من أهل طرابلس ، فهاجم طرابلس ، واستولى عليها ، وقبض على إبراهيم بن سفيان ، فعاهده على الطاعة ، فعفا عنه ، وأقره على عمله بطرابلس .

عبد الله بن إبراهيم الأغلب

كنيته أبو العباس . ولاه والده على طرابلس سنة ١٩٦ ، فثار به جندها فأخرجوه منها ، ثم جمع لهم من انضم إليه من البربر وغيرهم ، وأعاد الكرة عليهم فغلبهم واستولى على طرابلس ، ولكن والده ما لبث أن عزله وولى بدله سفيان بن أبي المهاجر للمرة الثانية .

سفيان بن أبي المهاجر

هذه هي المرة الثانية يتولى فيها عمل طرابلس ، إلا أنه في المرة الأولى كان معيناً من قبل هرثمة بن أعين ، أما في المرة الثانية فكان معيناً من قبل إبراهيم بن الأغلب .

وكانت قبيلة هواة البربرية قبيلة كبيرة ، كثيرة الأفخاذ ، ذات جموع كثيرة ، تحيط منازلها بطرابلس من كل جهة . وكان ما بين المدينة وجبل

نفوسة قرى ودساكر متصلة العمران . وكانت قبيلة هواره إباضية المذهب ، وأكثرها خاضع لحكم أبي منصور صاحب جبل نفوسة الذي كان تابعاً لإمامة الإباضية بتيهت ، وبعضها خاضع لحكم الأغالبة بمدينة طرابلس . وقد وقع بينهم وبين عامل الأغالبة بطرابلس خلاف أدى إلى تعصبهم عليه وأرادوا أن ينتهزوا فرصة ليستولوا على مدينة طرابلس ويجعلوها تابعة لصاحب جبل نفوسة فثاروا عليه سنة ١٩٦ ، فخرج إليهم بعسكره ، والتقى بجموعهم في وادي الرمل ، فتغلبوا عليه ، ورجع الجند إلى طرابلس منهزمين ، فتبعته هواره وحاصروا المدينة ثم اقتحموها عليه فخرّبوها وهدموا أسوارها . قال ابن خلدون : وتولى كبر ذلك منهم عياض ووهب . وبلغ الخبر إبراهيم بن الأغلب بتونس ، فأرسل ابنه عبد الله في جيش كبير ^(١) ، فاسترد المدينة من هواره وجدد السور . . .

ولم تهدأ ثائرة هواره . وإزاء ما لاقوه من شدة عبد الله الأغلب استغاثوا بعبد الوهاب بن رستم إمام الإباضية بتيهت . وللعلاقة المذهبية بينهم لم يسعه إلا تلييتهم ، واجتمع عليه هواره وقبائل نفوسه وكثير من قبائل البربر ، وحاصروا ابن الأغلب في المدينة ، وقد بذل كل جهده في الاحتفاظ بها ، فسد باب زناتة وصار يدافع من باب هواره المعروف الآن بباب المنشية ، وفي أثناء حصار المدينة قتل مهدي النفوسى .

قال في كتاب السير للشماخي عند ذكر هذه الحادثة ما نصه :
 « وهناك مات مهدي النفوسى ، وذلك أنه خرج من المعسكر إلى شاطئ البحر ، فسبحوا إليه حين أبصروه منفرداً فمسكوه وقطعوا رأسه . قال أبو زكريا : إذا قالوا له انهزم المسلمون تعبس ، وإذا قالوا له انهزمت المسودة انبسط وجهه وتبسم ^(٢) . » . ويعنى بالمسلمين الإباضية ، ويعنى بالمسودة عسكر العرب .

(١) في المنهل العذب : في ثلاثة عشر ألفاً

(٢) ذكر هذه القصة أيضاً سليمان باشا البارونى في كتابه « الأزهار الرياضية » ولم يعلق عليها بغير قوله : « وإن الله خرق العوائد فلا غرابة » . يعنى سليمان باشا لا غرابة في أن وجه مهدي = (١٠)

وفي أثناء حصار عبد الله بن الأغلب في طرابلس بلغه وفاة أبيه إبراهيم^(١) ، فصالح ابن رستم على أن تكون المدينة - داخل السور - والبحر لعبد الله الأغلب وخارج السور إلى سرت لعبد الوهاب بن رستم . وبهذا أصبحت جميع الأراضي الطرابلسية داخلة تحت حكم الإباضية ما عدا المدينة داخل السور فبقيت تحت حكم عبد الله بن الأغلب .

وأقر ابن الأغلب على طرابلس سفيان بن أبي المهاجر للمرة الثالثة ورجع إلى القيروان سنة ١٩٧ وسلم له أخوه زيادة الله الأمر وولى عهد أبيه . وكانت وفاة إبراهيم بن الأغلب في شوال سنة ١٩٦ ، وعمره ست وخمسون سنة وولايته اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر .

ولم يستقم أمر عبد الله بن الأغلب بعد أبيه لأنه كان سيئ السلوك جائراً في الحكم ، وقد وعظه بعض الأخيار من علماء زمانه فلم يتعظ ، فدعوا عاياه فقبل الله منهم ، فخرجت له قرحة تحت أذنه فمات منها ليلة ١٦ من ذى الحجة سنة ٢٠١ ودامت ولايته خمسة أعوام وشهراً .

زيادة الله بن الأغلب

هو زيادة الله بن إبراهيم ، بن الأغلب . وكنيته أبو محمد ، وهو زيادة الله الأول^(٢) تولى ولاية إفريقية في عهد المأمون بن الرشيد ، وبويع له يوم الجمعة

= النفوسى ، بعد أن قطع رأسه ، يضحك إذا قيل له انتصر الإباضية ، ويعبس إذا قيل له انهزموا . وأعتقد أن هذه خرافة نقلت بدون تمحيص ، والحامل على اختراعها الغلو في رفع شأن مهدى النفوسى . وإن دلت هذه الخرافة وغيرها على شيء فإنما تدل على الطعن في رواية الأخبار . وقلة التحرى في نقلها . . . أما الأستاذ الشاخي فلم يعلق عليها بشيء .

(١) لما مات إبراهيم بن الأغلب عهد بالإمارة لابنه عبد الله وكان إذ ذاك في طرابلس ، وأمر ابنه زيادة الله أن يقوم بالأمر إلى أن يأتي أخوه عبد الله من طرابلس .

(٢) له حروب كثيرة أعرضنا عن ذكرها .

لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٢٠١ بعد وفاة أبيه بأيام ، وجاءه التقليد من المأمون ، وكان أعلم أهل بيته ، فأحسن والده تربيته ، وشغل مجلسه بالعلماء ، فبرع في العربية وآدابها . وحظيت إفريقية في أيامه بحظ وافر من العمران حتى بلغ خراجها ثلاثة عشر ألف مليون من الدراهم^(١) . وقد ابتلى بما يبتلى به الأمراء من اللهو والإسراف في الملذات ، فساعت سيرته مع جميع الناس حتى مع جنده فثاروا عليه . . وفي سنة ٢٠٢ هرب أخوه الأغلب إلى المشرق خوفاً منه . واتخذ زيادة الله الأغلب بن عبد الله غلبون وزيراً له .

وزيادة الله هذا هو الذى أسند قضاء إفريقية إلى أسد بن الفرات صاحب مالک بن أنس ، ولاء قيادة الجيش الذى أرسله لغزو صقلية ، وفتحها سنة ٢١٢ وفى صقلية يقول ابن حمدیس :

ذكرت صقليةً والهوى يهيج للنفس تذكارها
فإن كنتُ أخرجتُ من جنة فإني أحدثُ أخباراً

وضاق الناس ذرعاً باستهتار زيادة الله ، وثارت عليه جميع النواحي ، وتقلص حكمه عن إفريقية ما عدا طرابلس وقابس والقيروان فتمسكوا به ولم يقطعوا عنه الجباية وكان يشعر بإسرافه في المعاصي فيسلى نفسه بقوله : « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنيان جامع القيروان . وقنطرة أبي الربيع . وحصن مدينة سوسة . ولولاية أحمد بن أبي محرز قضاة إفريقية » .

توفي زيادة الله يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب سنة ٢٢٣ ، وعمره إحدى وخمسون سنة ودامت ولايته إحدى وعشرين سنة ، وسبعة أشهر ، وثمانية أيام .

الأغلب بن إبراهيم

هو أخو زيادة الله الأول . ولقبه أبو عقال . ويقال له جزر . . تولى بعد أخيه زيادة الله ، وأبقى سفیان ابن أبي المهاجر عاملاً على طرابلس . وثارت عليه قبائل زواغة ولواته من برابر طرابلس ، وقتلوا سفیان بن أبي المهاجر عامله على طرابلس . وما زال بالثوار حتى تغلب عليهم . وكان حسن السيرة . توفي ليلة الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ٢٢٦ .

محمد بن الأغلب

كنيته أبو العباس ، ولى بعد أبيه أبي عقال . وهو الذى أسند قضاء إفريقية إلى الإمام سحنون سنة ٢٣٤^(١) ، وأسند قضاء طرابلس إلى شرحبيل . وفى زمن غير معلوم أسند قضاؤها إلى أبي العباس بن بطريقه من أصحاب سحنون .

(١) سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠ ، وتلقى العلم بإفريقية عن علي بن زياد وأسد بن الفرات ، ثم توجه إلى المشرق سنة ١٨٨ فزار مصر والحجاز والشام ، وأخذ الفقه عن عبد الرحمن بن القاسم ، وابن الماجشون ، ووكيع بن الجراح وغيرهم وعاد إلى القيروان سنة ١٩١ ، فأظهر بها علم أهل المدينة ، ومذهب مالك ، وهو أول من ثبته في إفريقية . ولما اشتهر سحنون خاطبه الأمير أبو العباس في إسناد قضاء إفريقية إليه . وبعد امتناع منه دام نحو سنة لم يسره - إزاء إلحاح الأمير - إلا القبول على شروط منها إلزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مع الخصوم ، وأن يطلق يده في جميع الناس فقال الأمير : « نعم : لاتبدأ إلا بهم ، وأجر الحق على مفرق رأسى » . وأحدث تقليداً في القضاء ، فأنشأ وظيفة صاحب المظالم يفصل في القضايا الصغيرة ويحس إلى الناس في الأسواق والمجتمعات نهيلاً عليهم ، وطالباً للسرعة في حل النزاع . وكانت الحسبة تابعة للأمرأ فأحيلت في عهد سحنون إلى القضاة ، وهى أشبه بالشرطة البلدية . ولشدة تمسكه بالعدالة سمى « سراج القيروان » ولم يمنعه القضاء من بث العلم ، فقد جاء إليه طلبته من الأندلس وجميع أقطار إفريقية تخرج عليه نحو سبعمائة رجل . وكان يدرس بجامع عقبة بالقيروان . وألف كتاباً كبيراً في مذهب مالك سماه المدونة الكبرى . . توفي يوم ٦ من رجب سنة ٢٤٠ في دولة محمد بن الأغلب . ودفن بالقيروان وقبره هنالك معروف .

توفي محمد بن الأغلب لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٤٢ ، ودامت ولايته خمس عشرة سنة ، وثمانية أشهر ، واثني عشر يوماً . وعمره ست وثلاثون سنة .

أحمد بن محمد الأغلب

كنيته أبو إبراهيم . ولى إفريقية بعد وفاة أبيه محمد سنة ٢٤٢^(١) . وكان حسن السيرة .

عبد الله بن محمد الأغلب

ولاه أخوه أحمد عاملا على طرابلس . . وفى سنة ٢٤٥ ثار برابر طرابلس على أحمد الأغلب . ومنعوا عليه العشور والصدقات التى كانوا يؤدونها . وحاصروا أخاه عبد الله فى طرابلس ، فجلا عنها إلى لبدية وتمحصن بها . وكاتب أخاه فى القيروان ، واتفقا على أن يرسل كل منهما جيشا للطباق على طرابلس من الشرق والغرب ، وكان جيش القيروان بقيادة أخيها زيادة الله ، ووقع البربر بين جيشين ، والتحم الفريقان فى معركة كانت حامية دامية ، فهزم البربر ، وقتل منهم خلق كثير ، وطاردتهم الخيل فقتلت من أدركته ، وأسر كثير منهم فضربت أعناقهم ، واستولى على معسكراتهم ، فأذعن من أفلت منهم من الموت وقدم الطاعة .

توفى أحمد يوم الثلاثاء الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٢٤٩ . وعمره ثمان وعشرون سنة . ودامت ولايته سبع سنين ، وعشرة أشهر ، وسبعة أيام .

(١) فى خلاصة تاريخ تونس : بويج بعد وفاة عمه أبى العباس .

زيادة الله الأغلب

هو زيادة الله بن محمد الأغلب . وهو زيادة الله الثاني . تولى بعد أخيه أحمد^(١) . وتوفي في آخر ذي القعدة سنة ٢٥٠ . ودمت ولايته عاماً وسبعة أيام ولم يكن له من الأعمال ما يستحق الذكر .

محمد بن أحمد الأغلب

هو أبو الغرائق . تولى بعد . وفاة عمه زيادة الله . وكان جواداً إلى حد الإسراف ، حسن السيرة ، ثم غلب عليه هو الأمراء . . ولقب بأبي الغرائق — وهي نوع من الطيور — لشغفه بصيدها . . فتح جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ . وأسر ملكها . وعين محمد بن قهر بن عاملا على برقة . . وبني حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر ، على مسافة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب . وما زالت آثارها باقية إلى اليوم ، وقد احتفظت له الأيام بإطلاق اسمه على بئر شرقي اليهوديات بأرض سرت ما زالت تسمى « أم الغرائق » . توفي في اليوم السابع من جمادى الأولى سنة ٢٦١ . ومدة ولايته عشر سنوات ، وخمسة أشهر ونصف .

إبراهيم بن الأغلب

هو إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلب . وهو إبراهيم الأصغر ، ولد يوم عيد الأضحى سنة ٢٣٠ ، وتولى بعد أخيه أبي الغرائق . وكان أبو الغرائق أوصى لابنه بالإمارة ، وأن يكون أخوه إبراهيم وصياً عليه إلى أن يكبر ، ولكن

(١) في خلاصة تاريخ تونس : بويج بعد وفاة أبيه أبي إبراهيم

الناس طالبوا بإمارة إبراهيم لما عرفوه فيه من الحزم وحسن السيرة .
 وفي أيام إبراهيم هذا غزا العباس بن أحمد بن طولون إفريقية لأخذها من
 الأغالبة . وقد ذكر بعض المؤرخين أن برقة كانت في سنة ٢٦١ تابعة لأحمد
 ابن طولون بمصر ، وعليها محمد بن فرج الفرعاني عاملاً عليها من قبله ، فثار
 به أهله في هذه السنة وأخرجوه منها ، ونقضوا عهد ابن طولون ، فأرسل إليهم
 جيشاً مع غلامه لؤلؤ ، وأمره بملايئمتهم ، فلم تفلح الملاينة ، وأرسل إلى ابن طولون
 بخبرهم ، فأمره بالاستعداد عليهم ، فضيق عليهم الحصار ، ونصب عليهم
 المجانيق ، فسلموا إليه ، ودخل البلد ، وقبض على جماعة من أهلها ، وفضع في
 قتلهم ، واستعمل عليهم أحد الموالى ورجع إلى مصر ، وكان ذلك قبل خلاف
 العباس على أبيه .

وقد تقدم أن أبا الغرائق بنى حصوناً ومحارس كثيرة على ساحل البحر على
 مسافة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب ، ويفهم من هذا أن برقة كانت
 تابعة لأبي الغرائق . وسيأتى أن ابن طولون افتك برقة من ابن قهرب عامل
 الأغالبة فيها وهذا يتنافى مع أنها كانت تابعة لابن طولون . اللهم إلا إذا قلنا
 إن ابن طولون كان يملك الجزء الشرقي من برقة مما يلي الحدود المصرية ، وأن
 أبا الغرائق كان يملك الجزء الغربي من برقة : أجداوية وما ولاها .

العباس بن أحمد بن طولون

قدم العباس بن أحمد بن طولون من مصر سنة ٢٦٧ أيام إبراهيم بن الأغلب
 آنف الذكر إلى إفريقية لأخذها من الأغالبة . . . ذلك أن العباس حصل
 بينه وبين والده أحمد ملك مصر نفور ، فخرج مغاضباً له إلى إفريقية لاغتصابها
 من بني الأغلب ، ولينشئ فيها ملكاً بعيداً عن والده ، فأخذ معه ثمانمائة فارس ،
 وعشرة آلاف راجل ، وخمسة آلاف جمل . وأخذ معه من خزائن

مصر ثمانمائة حمل جل من الدنانير الذهب ، وسار إلى إفريقية . . . وقد أشار عليه أحمد بن محمد الكاتب — وهو أحد رجالاته المخلصين له — بالتأخر حتى يصانع البربر ويجعل له فيهم يداً ، فلم يسمع لقوله ، وأرغمه على السير معه . وأغذت في السير ليدرك إفريقية قبل أن تلاحق به خيل والده ، وقبل أن يتمكن بن الأغلب من الاستعداد للقائه . . . ومر ببرقة في ربيع الآخر فافتكها من ابن قهرب عامل الأغلبة ، وفر ابن قهرب إلى تونس ، وتلبث ابن طولون في برقة حتى رتب أموره وهياً جنده وسار إلى طرابلس .

وكان ابن قهرب قد وصل إلى تونس وأخبر إبراهيم بن الأغلب بما حصل ، فاستعد للقاء بن طولون ، وجهاز جيشاً من ألف وستمائة فارس خيلاً جرداً لاراجل معها بقيادة ابن قهرب ، وأدرك به طرابلس قبل أن يصلها ابن طولون ، وجمع من جيشها وبربرها جيشاً وسبقه إلى لبده .

ووصل ابن طولون في جيش جرار ، فالتقى به ابن قهرب شرقي لبدة بنحو ١٥ كم ، وانجلت المعركة عن هزيمة بن قهرب ، وطاردته خيل ابن طولون إلى طرابلس فتحصن بها . . . ولما مر ابن طولون بلبدة خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه ، ولكنه لم يرع حتى هذا الإكرام ، فأمر بنهبها فنهبت على غرة ، وقتل رجالها ، وانهكت حرمتها . . . وفي هذه المعركة يقول ابن طولون مفتخراً :

لله كدرى إذ أعدوا على فرسى	إلى اللقاء ونار الحرب تستعز
وفي يدي صارم أفرى الرؤوس به	في حده الموت لا يبقى ولا يندر
إن كنت سائلة عني وعن خبري	فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أما إن سألت فما	فوق المنعخر بالجوود المنعخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة إذ	بالسيف أضرب والهوامات تبندر
إذاً لشاهدت مني ما تناقله	عني الأحاديث والأبناء والخبر

وحاصر ابن طولون طرابلس ثلاثة وأربعين يوماً لا يقدر منها على شيء ، ونصب عليها المجانيق ، وقطع عليها السبل .

وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى الوادى الذين يسكنون خارج المدينة وكانوا من البربر الإباضية ومن أتباع إلياس أبى منصور النفوسى صاحب جبل نفوسة ونالوا من حرمتهم وأموالهم ، فاستغاثوا به من ظلم جيش ابن طولون .

إلياس أبو منصور

إلياس أبو منصور صاحب جبل نفوسة ورئيس الإباضية به ، وهو من بلدة تندمير ، وكان غير خاضع لحكم الأغالبة ، بل كان يدين بالطاعة لإمام الإباضية بتيهرت . وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس : « أن أقبل بسمعلك وطاعتك ، وإلا وطئت بلدك بخيلى ورجلى ، وأبحت حرملك » فرد عليه إلياس : « أما إنك أقرب الكفار منى ، وأحقهم بمجاهدتى ، فقد بلغنى من قبىح أفعالك ما لا يسعنى التخلّف معه عن جهادك ، وأنا على إثر رسالتى إليك^(١) . . فجهز جيشاً من اثنى عشر ألف مقاتل ، والتقى بابن طولون فى قصر حاتم^(٢) سنة ٢٦٧ ، فهزم ابن طولون ، وتشتت شمله واستبيحت أمواله ، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد . ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين ، ويستبيحون دمائهم ما داموا محاربين لهم ، ولا يستبيحونها فى حال السلم . . . ورجع ابن طولون إلى المشرق مهيفض الجناح محطّم الآمال^(٣) ، وأرسل إليه والده جيشاً فى طلبه فتنرق عنه أصحابه ، وقبض عليه وأرسل إلى والده مقيداً .

وجاء إبراهيم بن الأغلب من تونس فى جيش عظيم للملاقاة ابن طولون ،

(١) الأزهار الرياضية للشيخ سليمان باشا البارنى .

(٢) قبيلة الخواتم ما زالت معروفة إلى الآن ، وتنسب إلى ترهنة ، ووادى الخواتم معروف ينسب إليهم . وبه بقايا أبنية لا يبعد أن تكون بقايا قصر حاتم .

(٣) ذكر فى المنهل العذب زيادات لا فائدة من ذكرها .

فوجده قد انكسر جيشه ، ورجع إلى المشرق . . وبحث ابن الأغلب عن أموال ابن طولون فأخذها ممن وجدت عندهم ، وكان الجندى يبيع دنائير ابن طولون سرّاً بأى ثمن خوفاً من وجودها عنده .

وبعد أن انتهت حرب ابن الأغلب مع ابن طولون ، بقي ابن قهرّب في طرابلس . إلا أن البربر ما زالوا غير مطمئنين إلى حكم الأغالبة في طرابلس ، وكان أكثر بواديها يدينون بالطاعة لحاكم جبل نتوسة . . فأعادوا الثورة على طرابلس سنة ٢٦٩ وقتلوا بن قهرّب عامل الأغالبة ، واشترك في الثورة هواة ولواتة . وقد أرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله في جيش ، فتغلب عليهم ، وأمعن في قتلهم واستولى على طرابلس ولم يعبر أحد باستيلاء البربر على طرابلس في هذه المرة وقد يفهم هذا من سياق الكلام . . وأعادوا الثورة في سنة ٢٨٠ فهزمهم أيضاً . وفي رجب سنة ٢٨١ انتقل إبراهيم بن الأغلب إلى تونس للإقامة بها . . ولم ينس ابن الأغلب اعتداء ابن طولون عليه ، فهو ما زال يفكر في الانتقام منه وقد اعتزم الأمر في غزوه في مصر . وفي المحرم سنة ٢٨٣ جهّز جيشاً وخرج من تونس لعشر خلون من المحرم ، فأقام برّقادة إلى سبع بقين من صفر ، ثم خرج بجميع من معه قاصداً غزو ابن طولون في مصر ، ووصل إلى قابس في ربيع الأول ، فاعترضته نفوسة في قصر مانو لتمنعه من الذهاب إلى ابن طولون .

ويبدو أن معارضة نفوسة لابن الأغلب ليست من مصلحتها في شيء ، بل المصاحبة في ذهابه ، لأنه سيذهب في جيش كبير يكافئه نفقات كبيرة ، وهذا مما يضعف ابن الأغلب ويسهل على نفوسة الثورة عليه إن أرادوا . ولذلك فقد عارض الفكرة كثير من أعيانهم منهم أفلح بن العباس ، وسعد بن أبي يونس عامل قطارّة : — تيجي — ومعبّد الجناوني ، ولكن رجحت كفة الأكثرية . وتجمعت جيوش البربر في قصر مانو ، وهو قصر قديم على ساحل البحر بقرب قابس ، وكانوا زهاء عشرين ألفاً ، فهزمهم ابن الأغلب هزيمة منكرة .

قال في الأزهار الرياضية^(١) . « فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً ، وتطارح منهم في البحر بشر كثير ، وقتلهم فيه حتى غلبت حمرة الدم على الماء » . ثم قال : « وقد فل فيها حد سيوف نهمه وفيت فيها أبطالهم ، وأبقت فيهم ثلثة عظيمة ، وهى المصيبة الكبرى التى تضعضع بها ركن الإمامة بتيهت إذ كانوا حصنها المنيع . ولما ضعفوا أخذت فى التفتقر وطمع الأعداء فيها حتى اضمحل أمرها » . ولم تن هذه المعركة الهائلة من عزم ابن الأغلب ، بل ظل على عزمه على غزو ابن طولون ، فسار إلى طرابلس ، وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله . . . وسبب ذلك أن المعتضد بالله العباسى كتب إلى إبراهيم يعنفه على أعماله فى تونس ، وقال له : إن لم تنته فسلم الأمر إلى محمد بن عمك زيادة الله ، وقد رأى فى هذا تهديداً له بابن عمه ، فقتله خوفاً أن يعزله المعتضد ويوليّه مكانه .

وسار إبراهيم فى جيشه من طرابلس إلى تاورغمة ، وهناك قتل خمسة عشر رجلاً وأمر بطبخ رؤوسهم ، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه فارتاع الجند لذلك ، وقالوا إنه خولط فى عقله ، فلما رأى ذلك خاف انصراف الجند عنه فرجع إلى تونس . وفى سنة ٢٨٩ أرسل ابنه عبد الله لغزو إيطاليا . . . وبنى إبراهيم الحصون والمخارس على الساحل ، حتى كانت النار توقد فى سبته بالمغرب للإنذار بمجيء العدو ، فتوقد فى تلك الليلة بالإسكندرية .

وهو الذى أسند قضاء طرابلس إلى موسى بن عبد الرحمن أبى الأسود المعروف بالقطان . صحب محمد بن سحنون وسمع منه . وكان يحسن المسائل والتكلم فى رأى على مذهب مالك وأصحابه . ولأه إبراهيم بن أحمد قضاء طرابلس فبغى وأذى فعزله وحبس فى الكنيسة دهرأ ثم أطلقه .

(١) الأزهار الرياضية ، فى أئمة وملوك الأباضية للشيخ سليمان باشا الباروفى ، وقد ذكر أن كثيراً من رجال نفوسة لم يوافقوا على معارضة ابن الأغلب ، وقد ذكرنا بعضهم . وبسبب هذه المخالفة نزلت بهم تلك الكارثة العظيمة .

وقد أصيب إبراهيم — بعد ستة أعوام من ولايته كان فيها مثال الاستقامة — بحالة عصبية جنونية أتى فيها أعمالاً لا تتفق مع العقل ولا مع الإنسانية ، فكان يكسر القتل في أقاربه ، وأبنائه ، وإخوته ، وخدمه ، وأنصاره : فقد قتل ابنه بين يديه صبراً ، وقتل ثمانية إخوة له ضربت أعناقهم بين يديه . وقد ولدت له بنات أخفهن عليه أمه خوفاً عليهن من القتل ، وربهن من غير أن يشعر بوجودهن ، حتى اجتمع عندها ست عشرة بنتاً كآتهن البدور . وقد رأت منه أمه مرة انشراحاً في نفسه وهدوءاً في أعصابه ، فرأت — لهذه المناسبة — أن تزيده سروراً وانشراحاً ، وظنت أن علمه بهؤلاء البنات خير وسيلة لذلك ، فقالت له : يا سيدي لقد رببت لك وصائف ملاحاً ، وأحب أن تراهن ، فقال نعم ، فأتت بهن إليه ، وسمتهن له واحدة واحدة حتى عدتهن له ، وبعد انتهاء المجلس أخذتهن معها وخرجت ، وكان ثمن هذه المقابلة حياة هؤلاء النميات الاثنتي عشرة ، فإن أمه ما كادت تغيب عنه ومعها البنات حتى قال لخدام له أسود — وكان بجواره — : اذهب إليهن وأتني برؤوسهن ، فبهت الخادم ، فراجع ، فهدده بالقتل إن لم يفعل ، فذهب الخادم بالخبر إلى أمه ، فذهلت وكادت تصعق ، وأمرت الخادم أن يراجع ، فأفهمها ألا فائدة من المراجعة ، فذهب إليهن الأسود وقتلهن الست عشرة ، وأتى برؤوسهن معلقة من شعورها ، وطرحها بين يديه . ولا ندري أى المجرمين أقسى من صاحبه قلباً : إبراهيم الذى قسا قلبه وتحمجرت عواطفه ، أم ذلك الأسود الذى كان أقسى جلاد على أولئك الفتيات الوداعات .

توفى إبراهيم ليلة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٢٨٩ وعمره اثنتان وأربعون سنة وولايته ٢٨ سنة ، وستة أشهر واثنا عشر يوماً .

عبد الله بن إبراهيم الأغلب

هو عبد الله الثاني ، وكنيته أبو العباس ، ولى بعد أبيه إبراهيم . وكان شجاعاً عاقلاً . وفي سنة ٢٨٤ - في حياة والده - خرج لمحاربة نفوسة ، فقتل منهم كثيراً وأسر نحو ثلاثمائة ، ولما رجع بهم إلى والده إبراهيم قتلهم عن آخرهم وشق على قلوبهم فأخرجها ، وأخرج بعضها بيده ، ونظمت في حبال وعلقت على باب تونس ، ولعمري إنها لقسوة فظيعة .

وقتل عبد الله في شعبان سنة ٢٩٠ . غدر به الجند فقتلوه وهو نائم ، ويقال إن هذا الغدر كان بإيعاز من ابنه زيادة الله .

زيادة الله بن عبد الله الأغلب

هو زيادة الله الثالث . وكنيته أبو مضر . ولى الحكم بعد قتل أبيه واتخذ رقادة عاصمة للملكة ، وعين أخاه أحمد عاملاً على طرابلس ، ووقف في وجوه الثوار حتى تغلب عليهم ، واقتصر من قاتلى والده خوفاً من أن يقال إنه متواطئ معهم . وقد ابتلى بحمى اللهو التى تصيب الأمراء دائماً ، واشتغل بما لا يعنى ، فكان ذلك سبباً في تغلب أعدائه عليه .

وفي أيام زيادة الله أراد الله زوال دولة الأغلبة فأصابت في أيامه بالترف والانحلال الخلقى ، وكان هو مثال الانحلال . . . وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الداعى لدولة العبيديين وناصرته قبائل كتامة ، فكان ما فيه زيادة الله من الانشغال باللهو والقعود عن واجبات الدولة من أقوى الأسباب التى مهدت لانتشار دعوة العبيديين . . وقد وقعت حروب بين الداعى وزيادة الله ، كان أشدها واقعة الأربؤس من أعمال الكاف بتونس وكانت الهزيمة فيها على زيادة الله ،

وقتل أكثر جنده ، ولم يمكنه الصمود أمام هجمات الداعى ، فجمع ماله وولده وهرب إلى مصر في ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ٢٩٦^(١) وترك إفريقية تندب حظها من إهماله وسوء أعماله ، وأرسل إلى أخيه أحمد في طرابلس فأخذه معه إلى مصر . واحتل أبو عبد الله الشيعى رَقّادة غرة رجب سنة ٢٩٦ واستولى على أكثر إفريقية .

وكانت ولاية زيادة الله خمسة أعوام ، وأحد عشر شهراً ، وأربعة أيام . وبخروج زيادة الله من إفريقية انتهت دولة الأغلبة . وقد حكمت إفريقية مائة وإحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر . . . وتولى الحكم فيها أحد عشر أميراً ، أولهم مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الأول ، وآخرهم زيادة الله الثالث . والملك لله يؤتیه من يشاء .

قال ابن خلدون : وكان انقراض دولة بنى الأغلب آخر عهد العرب بالدولة والملك في إفريقية وذهبت ريحهم ، فلم تقم لهم بعد ذلك دولة . . وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى . يدعون إلى الخلفاء الأمويين بالأندلس تارة ، ويدعون إلى الهاشميين من بنى العباس وبنى الحسن تارة أخرى . ثم استقلوا آخر الأمر بالدعوة لأنفسهم اه .

(١) ثم انتقل إلى فلسطين ومات بالرملة سنة ٣٠٣ ودفن ببيت المقدس

الدولة العبيدية

هى دولة شيعية ، تعظم أهل بيت النبوة وتنسب إليهم وتنصر لهم ، وتعالى بعض أفرادها فى تعظيمهم إلى درجة لا يقرها الدين الإسلامى ولا العقل السليم . أسسها عبيد الله المهدي سنة ٢٩٦^(١) .

وقد تكلم فيها كثير من علماء المسلمين ، ورموها بالفسق تارة وبالكفر أخرى . وقال فيها ابن تيمية « بقى ولاية القاهرة نحو مائة سنة على غير شريعة الإسلام ، وهم فى الباطن إسماعيلية ، ونصيرية ، وقرامطة وباطنية »^(٢) . وقال الغزالي فى الرد عليهم : « ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض . وكانوا ينادون بين القصرين فى مصر : من لعن الصحابة فله دينار وأردب ، وكانوا شر الخلق »^(٣) .

ونسبت إلى مؤسسها عبيد الله المهدي فقتيل لها الدولة العبيدية ، ودولة العبيديين . ويقال لها الدولة الفاطمية ، والدولة العلوية . ويقول الأستاذ حسن إبراهيم صاحب كتاب « المعز لدين الله » ، « وعلى أى نسبة فهى إسماعيلية وخلفاؤها قاطبة إسماعيليون » . وقد نفى ابن حزم فى جمهرة الأنساب شرف العبيديين وقال : هذه دعوى مفتضحة ، وكذب فاحش .

وأكبر داعية للدولة العبيديين هو أبو عبد الله الحسين الصنعاني الشيعي

(١) دامت الدولة العبيدية إلى المحرم سنة ٥٦٧ . وبقيت فى الحكم ٢٦٩ سنة وثمانية أشهر ، وأحد عشر يوماً ، منها أربع وستون سنة وشهر فى إفريقية . والعبيديون ينسبون إلى أول خلفائهم وهو عبيد الله المهدي ، بن محمد الحبيب ، بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام ، ابن جعفر الصادق .

ويقول ابن خلدون : ولا يلتفت لإنكار هذا النسب . وله على صحته حجج ، ويخرج فى رواية من ينكره أو يقدح فيه . وقد ذكر فى الجزء الثالث ص ٣٦٠ ما يؤيد به رأيه

(٢) انظر تاريخ ابن غالب « التذكار »

وهو الذى نشر دعوتها ، ومهد لها ، وحارب من أجلها . وهو من الدهاة المفكرين ولهذا فهي أسست بدعوة الدين بخلاف ما تقدمها من الدول .

عبيد الله المهدي^(١)

هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها . وهو عراقي الأصل ، ولد في الكوفة سنة ٢٦٠ ، واختبأ في بلدة سلمية بؤرة الاسماعيليه الباطنية في شمال الشام . ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلمية كان يعرف باسم سعيد بن أحمد ، ابن محمد ، ابن عبد الله ، بن ميمون القداح .

وفي منطقة سلمية ومصيف — من بلاد الشام — مات على بن الحسين ، ابن أحمد ، بن محمد ، ابن إسماعيل ، بن جعفر الصادق . وأقام له الإسماعيلية — جماعة أغا خان — مزارات سرية . . . فرسم دعاة الباطنية بعد موته خطة جديدة لدعوتهم قرروا فيها نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي^(٢) ، وهو سعيد بن أحمد القداح وقرروا تغيير اسمه من سعيد ابن أحمد القداح — وهو اسمه الحقيقي — إلى عبيد الله المهدي . . . وكلفوا بالدعاية له رجلين وهما حسن بن فرح ، بن حوشب ابن زاذان الكوفي ، وأبو عبد الله الشيعي . وأرسلوا ابن حوشب إلى اليمن ، واشتهر فيه باسم منصور اليمن . وأرسلوا أبا عبد الله الشيعي إلى إفريقية .

وقد أصاب أبو عبد الله الشيعي من النجاح في إفريقية ما لم يصبه ابن حوشب في اليمن . وبعد أن اطمأنوا إلى إنتشار دعوتهم في إفريقية أرسلوا إليها سعيد ابن أحمد القداح الذى سموه عبيد الله المهدي .

(١) ملخص مما كتبه الأستاذ محب الدين الخطيب في مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى سنة ١٣٧٣ الموافق ٦ يناير سنة ١٩٥٤ .

(٢) يفهم من كلام القرامطة في هذا الموضوع أن التبنى بالنكاح الروحي هو إذن حامل أسطورة الحلول الإلهي لمن يشاء في حمل لقبه ، لاعتبارات تؤهله لحمل هذا اللقب ، وتجعله خلفاً أو ابناً روحياً له ولو كان من غير نسله ، لأنهم يرون أن الإمامة ليست محتكرة تورث في عائلة مخصوصة .

وقد انتبعت حكومة بنى الأغلب إلى هذه الدعوة الخبيثة — ولكن بعد فوات الوقت. فقبضت على ابن قلداح وسجنته. وتمكن أبو عبد الله الشيعي من مهاجمة السجن وإخراجه فقيوت شوكتة وكثر أنصاره. وقد بلغه أن أبا عبد الله الشيعي — داعيته — يعمل ضده فقبض عليه وقتله، وانتقم الله منه بيد صديقه.

هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيدين المنسوبين إليه. وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان، وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون، وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذي ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرناه آنفاً. وقد جاء في كتب الإسماعيلية الحديثة أكثر من دليل على أن عبيد الله المهدي هو سعيد بن أحمد من ذرية ميمون القداح وأنه سعيد الخير الملقب بالمهدي. ومن أراد أن يصف العبيدين بأنهم غير إسماعيلية، أو أنهم يعملون لخير الإسلام والمسلمين فلن يجد على صحة دعواه دليلاً واحداً.

* * *

ولما ذهب عبيد الله المهدي إلى المغرب. مرّ في طريقه بطرابلس فتوقف فيها مدة لنشر دعوته، فأرسل زيادة الله بن الأغلب إلى أخيه أحمد — عامله بها — أن يقبض عليه، ولأمر ما لم يفعل، واعتذر بأنه أفلت منه. ويقال إنه رشاه بمال كثير. وسافر عبيد الله من طرابلس بعد أن تخرج مركزه فيها إلى المغرب. وأول ظهوره بسلامة جسمه^(١) في ذي الحجة سنة ٢٩٦. وأسس دولته فيها. ودخل رقادة في ربيع الآخر سنة ٢٩٧. واستولى على ممتلكات بنى الأغلب وكانت شيئاً كثيراً. وبويع له فيها بالخلافة كما بويع له بالقيروان

(١) ضبطها صاحب نزعة الأنظار : بفتح السين وسكون الجيم وفتح اللام.

فى تسع بقين من هذا الشهر . وبهذه المبايعه أصبحت دولة العبيدين ظاهرة فى الوجود .

وكانت قبيلة كتامة البربرية أول من ناصر عبيد الله الشيعى ، ودولته . ولما استقر أمره فى رقادة والقيروان وجد معارضة كبيرة لمذهب الشيعة من أنصار مذهب مالك وبعض الحنفية ، حتى شعرت نفسه أن دولته لا تستقر فى إفريقية وفيها هذه المعارضة القوية ، لأن المعارضين لا ينظرون إلى دولته أنها دولة عربية فاطمية ، ولا إلى مذهبه أنه من مذاهب أهل السنة ، بل ينظرون إلى دولته أنها دولة بربرية تناصر مذهباً اشتمل على كثير من المخالفات لما يراه المسلمون من الاحترام لصحابة رسول الله الأولين . ومن هذه الناحية كان أنصاره من كتامة يرون أن لهم الحق فى أن يكون نصيبهم فى هذه الدولة أكبر من غيرهم . وكان أبو عبيد الله الحسين الداعى يؤيد كتامة فى وجوب تقديمهم على غيرهم .. وشعر أبو عبيد الله الشيعى بتأييد الداعى لكتامة فى رأيهم ، فتسرب إلى نفسه سوء الظن به ، وشعر بخرج مركزه ، فسعى إلى استمالة الصنهاجيين إليه ليستعين بهم على كتامة أعدائهم ، وقد تم له ذلك فانتصر بهم على الداعى وعلى الكتاميين ، وقتل بعض كبار الكتاميين فخافوه ، ثم قتل الداعى — فى خبر سيجىء — وأراد المهدي أن يبتعد عن القيروان محل النزاع ومعارضة المالكية فبنى المهديّة وانتقل إليها ، وسلط أنصاره على سكان الضواحي فأرهبوهم محاولين إخضاعهم بالقوة .

ولم يفد عبيد الله انتقاله للمهديّة ، ولا ما استعمله مع الناس من إرهاب وبطش ، فقد اشتدت عداوة المالكيين له ، وصاروا ينظرون إلى دعوته نظرتهم إلى دعوة المبتدعة مما زاد فى قلقه وزعزع مركزه ، فجأهروه بإنكار مذهبه وأعرضوا عنه . وتدرجت معارضتهم له من رفض مذهبه إلى رفض طاعته ، وامتنعوا عن دفع الضرائب . وحاول التغلب عليهم من طريق استعمال القوة فلم يزدادوا إلا تمادياً فى عداوته ، وقد حصلت مناظرات بين الشيعيين والمالكيين

انتصر فيها المالكيون . وأفحموهم بالحجة ، وأصبح عبيد الله ومذهبه أبغض الناس والمذاهب إلى أهل إفريقية .

وقد بدا لرجال الدولة الفاطمية أن بقاء دولتهم في إفريقية مهددا بالزوال ما دام المالكية يناهضونهم . وأصبحوا يحسبون لهذا الأمر حسابه .

ومات المهدي سنة ٣٢٢ وخلفه بنوه وأحفاده وورثوا عنه هذه الفكرة وانتهت الدولة الشيعية إلى المعز لدين الله وأبدى محاولات في المغرب بواسطة جوهر الصقلي ، وبالرغم على ما سفك فيها من دماء فقد باءت بالفشل ، فازداد خوفه على الفاطمية ، وأحس بأن إفريقية لم تعد معقلا للفاطمية ، فاتجه بتفكيره إلى مصر ، وأنه يجب على الدولة الفاطمية أن تتخذ منها مركزاً إذا أرادت البقاء . وواتته الظروف بفساد حكم الإخشيديين في مصر ، وتآلم المصريين من حكمهم ، وبموت كافور الإخشيدى ، فغزاها بجيش جرار بقيادة جوهر الصقلي ، ثم رحل هو إليها سنة ٣٦١ . وخلف على إفريقية بنو زيرى الصنهاجيين الذين كانوا أيدوا الفاطميين ضد الكتاميين ، وضد ثورة ابن كيداد وأخلصوا للفاطميين الإخلاص كله . وذهب المعز إلى مصر وهو في مأمن من متابعته بسوء ، وبقي بنو زيرى في إفريقية نواباً عن الفاطميين فيما تركوا لهم من ملك . وعلى الرغم من استقلال بنو زيرى بإفريقية ، فإن ما بقي لهم من الصلة بالفاطميين كان يذكر المالكيين دائماً بمذهب الفاطميين الذين كانوا ينظرون إليه كمذهب من مذاهب المبتدعة . وقد أدرك بنو زيرى أن أمرهم لا يستقر ما دام الناس يعتبرونهم نواباً للفاطميين أهل المذهب المبتدع . ولا بد لهم من الانتماء إلى مذهب الإمام مالك ، واقتناع الناس بصحة هذا الانتماء .

واشتدت الفتنة على الشيعة أيام المنصور ، وهوجمت دار الإمارة وأحرقت الأسواق ، وحاول المنصور أن يكبح جماح الفتنة فتعذرت عليه ، وأيقن ألا سبيل إلى إطفائها ولا إلى استقرار ملكه إلا بانتائه إلى المالكية ، واقتناع الناس بصحة هذا الانتماء ، وقد كان ذلك . وانتهى ملك بنو زيرى إلى المعز بن باديس

فأعلن انتماءه إلى مذهب المالكية وأرغم الناس على اعتناقه ، وقضى على الشيعة ومذهبهم في إفريقية . وانتقم الشيعة في مصر من بني باديس بتسليط العرب عليهم ، وكان ما سنده من أمر دخول العرب إفريقية .
هذا مختصر ما حصل بين مذهب الشيعة ومذهب المالكية .

أما الإباضية فكان موقفهم من الشيعة هو موقفهم من أهل السنة : موقف التحفظ وعدم الامتزاج ، والنظر إلى غير العنصر البربري نظرة الغريب المحتل . وعلى هذا دأبوا ، ولم تمنح لهم فرصة للشورة إلا ثاروا .

ماكنون بن ضبارة اللحياني

وأول ما افتتح به عبيد الله عمله في طرابلس أن عين ماكنون عاملا عليها . وانتهر البربر فرصة ابتداء العهد الجديد وعدم استقرار الأمور ، فثارت هوارة بزعامة أبي هارون الهواري وانضم إليهم جماعات من زناتة ولسماية وغيرهم من القبائل البربرية ، وحاصروا طرابلس ، وتحصن ماكنون بداخل السور . فأرسل إليهم عبيد الله المهدي نجدة بقيادة تمام بن معارك — أبا زاكى — وهو ابن أخى ماكنون فحارب البربر خارج المدينة وانتصر عليهم ، وبعث برؤوس كثير منهم إلى المهدي برقادة وبقي ماكنون بطرابلس ، وقد بلغ المهدي أن تمام ابن أخى ماكنون يتآمر عليه ويحرض ضده ، فأوعز إلى ماكنون أن يقتله ، فقتله غرة ذى الحجة سنة ٢٩٨ .
وأمن ماكنون ثورة البربر ، وخلا له الجو ، فتطاول في الحكم ، وبسط أيدي بني عمه من كتامة في أموال الناس والتدخل في شؤونهم ، وامتدت إلى حرماهم ، فثار به أهل طرابلس سنة ٣٠٠ وأخرجوه منها فامحق بالمهدي برقادة ، وأغلق أهل طرابلس أبواب المدينة ، وقتلوا من كان بها من كتامة أنصار ماكنون^(١) .

(١) يقول الأستاذ العملى في تعريبه كتاب (ليبيا) : وفي سنة ٣٠٠ أباد سكان طرابلس الحامية التي كانت لها من قبل الإباضيين اه . وماكنون بربرى معين على طرابلس من قبل عبيد الله ، ويظهر أن أنصاره من كتامة كانوا إباضيين .

محمد بن إسحاق القرشي

ولقبه ابن القرلين وبعد أن طرد الطرابلسيون ماكنون عامل المهدي قدموا عليهم محمد بن إسحاق القرشي « ابن القرلين » ، فأرسل عبيد الله المهدي إلى طرابلس أسطولا بحرياً ، فتلقيه أهل طرابلس بأسطولهم فأحرقوه وقتلوا من فيه . وأرسل إليهم ابنه أبا القاسم في جيش على طريق البر في جمادى الأولى من سنة ٣٠٠ ، فاعترضته هوارة فأوقع بها . وحاصر طرابلس المدينة حتى فنى ما بها من أقوات ، وأكل أهلها الميتة ، ولم يمكن ابن إسحاق المداومة على الحرب . فتقدم أهل طرابلس لأبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم على أن يسلموا إليه محمد بن إسحاق ، ومحمد بن نصر ورجلا آخر يقال له الحوحيحة ، فقبلوا ذلك وسلموهم إليه ، ودخل طرابلس ^(١) ، وفرض على أهلها غرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار ^(٢) ، وقتل من كان فيها من الأغالية بتهمة أنهم المدبرون لهذه الفتنة . وتولى جباية مال الغرامة رجل يقال له خليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس وخليل هذا هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته وقد قتله ابن كيداد اليفرني لما استولى على القيروان سنة ٣٣٢ .

وبعد أن استقرت الحال في طرابلس رجع أبو القاسم الشيعي إلى رقة ^(٣) ومعه الرجال الثلاثة الذين ذكرناهم آنفاً ، فقتلهم بعد أن طاف بهم في شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم .

(١) يفهم من رحلة التيجاني أنه دخلها سنة ٣٠٣

(٢) وقيل أربعمائة ألف . ورواية المؤنس ثلاثمائة وأربعون ألفاً .

(٣) رقة مدينة بافريقية تقع جنوبي القيروان بنحو ستة أميال بناها إبراهيم بن أحمد الأغلب سنة ٢٦٣ . ووقعت فيها حروب هائلة بين أبي الخطاب بن السمع وبين قبيلة ورفجومة . ويقال إنها سميت رقة لكثرة ما رقد فيها من القتلى في هذه الملحمة .

حباسة بن يوسف الكتامي^(١)

ابتدأ عبيد الله المهدي أمره من المغرب وسار إلى المشرق ، ولما هدأت الحال في طرابلس بعد ثورة أهلها على عامله ما كنون شرع في الخطوة الثانية إلى الشرق للقضاء على بقية الأغالبة والعباسيين وطردهم من سرت وبرقة ، فجهز جيوشاً كثيرة سنة ٣٠١ بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي وتوجه إلى سرت لأنها إذ ذاك ما زالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب ، وهرب من كان بها من جند العباسيين والأغالبة ، وتقدم إلى أجدابية ، فهرب من كان فيها من الأغالبة والعباسيين ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون حرب ، واحتل مدينة برقة . . . وكان عبيد الله يمد حباسة بالجيوش بدون انقطاع .

وكان حباسة مستبدّاً وقاسياً ، لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً ، فكان لا يفي بوعده ، وكالما دخل مدينة قتل من أهلها وأخذ أموالهم ، ووجد جماعة في برقة يلعبون بالحمام فأمر بهم فأجلسوا حول نار ، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى ، ثم أمر بهم فألقوا في النار . . . ونادى في برقة : من أراد العطاء فليأت إلينا ، فحضر إليه من الغد نحو ألف رجل ، فأمر بهم فقتلوا جميعاً ، ثم وضع جثثهم بعضها على بعض ، وجيء له بكرسي فوضع على الجثث وجلس عليه ، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم ، وقد مات منهم جماعة من فظاعة ما رأوا ، وقال لهم : إن لم تأتوني غداً بمائة ألف مثقال قتلتم جميعاً ، فأحضروها له .

وقتل حباسة في هذه السنة حارثاً ونزاراً ابني حمال المزاني في نفر من أبناء

(١) كان من أتباع عبد الرحمن النعمان ، أغار على الإسكندرية بأسطول مكون من مائتي مركب أيام المقتدر العباسي فاحتلها لعبد الرحمن القائم ، وتقدم إلى الصعيد ، فبعث إليه المقتدر جيشاً لمحاربتة بقيادة بكير التركي .

عمومتهم في مدينة برقة ، وباع نساءهم ، وأخذ جميع أموالهم وقد ضاق أهل برقة بقبیح أفعاله ، فشكوه لعبيد الله المهدي ، فاعتذر ، وحلف أنه ما أمر بشيء من ذلك ، وكتب إلى خباسة أن يرسل عن برقة فرسل إلى جهة مصر ، وأتى أموراً أقبح مما كان يفعل في برقة . . .

وفي سنة ٣٠٢ غزا أبو القاسم الإسكندرية ولم يوفق في هذا الغزو ورجع مهزوماً . وفي هذه السنة ثار أهل برقة على عامله وقتلوه ، وقتلوا كثيراً من رجال كتامة . . فأرسل إليهم المهدي الجيوش سنة ٣٠٣ لتأديبهم على ثورتهم على عامل ابنه أبي القاسم ، وكانت الجيوش بقيادة أبي مديني بن فروخ اللهيضي . وقد استمر على حرب مدينة برقة وحصارها ثمانية عشر شهراً مع حصار شديد حتى افتتحها سنة ٣٠٤ ، وقتل أكثر أهلها ، وأحرق كثيراً منهم ، واستباح ما فيها من أموال ، وبعث بجماعة من وجوه أهلها إلى المهدي فأمر بقتلهم وبقي أبو مديني ببرقة إلى أن مات بها سنة ٣٠٦ .

وفي سنة ٣٠٤ حارب المهدي أهل صقلية . وغزا مصر في ذي القعدة سنة ٣٠٦ فاستولى على الإسكندرية وأكثر الصعيد . . . وفي هذه السنة ابتداء في إنشاء المهديّة ، وانتقل إليها في شوال سنة ٣٠٨ . . .

وشعر الناس — لا فرق بين السنيين والإباضيين — بسوء معاملة عبيد الله وأنصاره ، ولسوا في أحكامهم القسوة والجور ، فحقدوا عليهم وصاروا يتر بصون بهم . وثار نفوسة سنة ٣١٠ على عبيد الله ، وقدموا عليهم أبا بطّة ، وهو أحد رجالاتهم ، فعظم شأنه ، وقويت شوكته . فأرسل إليهم عبيد الله أحد رجاله على بن سلمان الداعي في جيش ، فحاربت نفوسة وقتلوا كثيراً من جنوده ، وفر على طرابلس ، ثم أمده عبيد الله بالجيوش ، وأعاد الكرة على نفوسة وحاصرها .

وولّى محمد بن عمر النفطى قاضياً على طرابلس .

ومضت مدة نحو اثنتي عشرة سنة لم نهتد إلى ما وقع فيها من أخبار وحوادث .

وسياتي عما قريب ما يفيد تدمير أهل السنة وعلماء القيروان من أعمال العبيدين حتى أنهم ناصروا عليهم ابن كيداد .

قال صاحب البيان المغرب : ملك المهدي جميع المغرب ، وإفريقية ، وطرابلس ، وبرقة ، وجزيرة صقلية ، وتوفي منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ ، وعمره ثلاث وستون سنة ، ومدة ولايته ٢٤ عاماً وعشرة أشهر .

محمد بن عبيد الله المهدي

كنيته أبو القاسم ، ولقبه القائم بأمر الله . ويقال إن اسمه نزار . كان عهد له أبوه المهدي بالأمر من بعده وتولّى بعد وفاة أبيه . وفي أيامه ظهر مخلد بن كيداد وثار عليه في ناحية طرابلس .

مخلد بن كيداد^(١) صاحب الحمار

هو مخلد بن كيداد اليَفسَريّ ، ابن سعد الله ، بن مغيث ، بن كرمان ، بن مُخلد ، بن عثمان ، بن وريمة ، بن تبقراسن ، بن سميدان بن يفرن ، ويَفرَن هذا أخو مغراو الذي تنسب إليه قبيلة مغراوة . وأمه أم ولد ، واسمها سيكة ، وهي سودانية لأنّ والده كان يغشى السودان للتجارة فاتخذها جارية له . ومات والده وتركه فقيراً لا يملك شيئاً ، وعاش زمناً على إحسان الناس ، ولما كبر خالط النُكَّار وتمذهب بمذهبهم . واشتهر عنه تكفير أهل السنة وسبّ على بن أبي طالب ، ونشأ في مدينة توزر من بلاد الجريد وهو من قبيلة زناتة .

(١) بضم الميم وتشديد اللام . وضبطه صاحب خلاصة تاريخ تونس بفتح الميم واللام وسكون الحاء

وكان يدعى أنه ابن المهدي ، وكان يركب حملاً فسمى صاحب الحمار . وقد ظهر بـجبال أوراس .

وقد ثار على محمد بن عبيد الله المهدي في جهات طرابلس سنة ٣٣٣ ، وحاصر طرابلس وقاتله أهلها . وقد تبعه في بادئ الأمر كثير من البربر . ولشدة جور محمد بن عبيد الله المهدي على أهل السنة ، وظلمه لهم ، وتعذيبه إياهم انضم إلى ابن كيداد كثير من علماء القيروان لأنه كان يخفي أمره عليهم ، وحاربوا معه . . . وقد استفحل أمر ابن كيداد وقويت شوكته ، وهاجم ابن المهدي في رقّادة ففّر أمامه إلى المهديّة .

وسمى ابن كيداد نفسه شيخ المؤمنين . وكان يضمّر لأهل السنة أشدّ العداوة ، لأنه كان نكاريّاً يستحل أموال أهل السنة ونساءهم ، ولكنه اتهم كراهتهم . لمحمد بن عبيد الله المهدي ، فأخفى عليهم عقيدته فيهم وأظهر لهم صداقته واستغلهم ضده . . ولما رأى القدرة من نفسه على ابن المهدي الشيعي غدر بأهل السنة ، وخلى بينهم وبين الشيعي يقتلهم ويستبيح منهم ما حرّم الله ، ولولا أنه خاف أن يقال عنه قتل أنصاره فينفض الناس من حوله لنفعل بهم أكثر مما فعل الشيعي ، وقد قتل الشيعي منهم خلقاً كثيراً . . ومع ذلك فقد افتضح أمر ابن كيداد وتحقق البربر كذبه فانفضوا من حوله .

كان ابن كيداد قاسي القلب ، جباراً شديد البطش بأعدائه ، تدل أفعاله على نبذ الأديان ، وعدم احترام الإنسانية . . . دخل القيروان بعد أن خرب البلاد ، وقتل الرجال ، وسبى النساء ، وشق فروجهنّ ، وبقر بطون الحوامل ، والتجأ الناس إلى القيروان حفاة عراة ، ومات كثير منهم عطشاً وجوعاً ، وشكا إليه بعض الناس ما حل بالبلاد من خراب ، فقال لهم في سخرية واستهزاء : « وما يكون لو خربت مكة أو بيت المقدس !! »

توفي أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي في ١٣ من شوال سنة ٣٣٤ . ودامت ولايته اثنتا عشرة سنة .

إسماعيل بن محمد القائم

هو أبو الطاهر ، ولقبه المنصور ، عهد له أبوه في حياته بالإمارة ، وبويع بها بعد وفاته ، وكان ابن كيداد ما زال قائماً بالثورة ، فخرج لقتاله وهزمه . وأعاد ابن كيداد الكرة فهزم أيضاً في معركة شديدة . وفر إلى قلعة كتامة ، فتبعه إسماعيل وحاصره بها . واقتحمها عليه وظفر به مشحناً بجراحه ، ومات متأثراً بها ، فسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه ، وبقي مصلوباً حتى تمزق جلده وأذرت الرياح وكان ذلك في المحرم سنة ٣٣٦ . . . وواصل ابنه الثورة مطالباً بثأر أبيه فأرسل إليه المنصور زيرى بن مناد فقتله . وانتهى أمر ابن كيداد وابنه . وفي سنة ٣٣٦ بنى المنصور مدينة المنصورية ، وهي منسوبة إليه . ويقال لها صبرة ، وهي على نصف ميل من القيروان ، وانتقل إليها سنة ٣٣٧ ، وتوفي في العاشر من شوال سنة ٣٤١ ، وعمره تسع وثلاثون سنة ، ومدة ولايته سبعة أعوام ونصف شهر .

زيان الصقلي

كنيته أبو الفتوح . ولاه إسماعيل المنصور عاملاً على طرابلس . وقام بأعباء الحكم فيها ، وعنى بإصلاح سور المدينة ، وزاد في جميع جهاته البرية والبحرية في أيام المعز سنة ٣٤٥ .

المعز لدين الله

هو معد بن إسماعيل المنصور ، وكنيته أبو تميم . ولد بالمهدية في ١١ من رمضان سنة ٣١٩ وعهد له والده بالخلافة بعده ، ويقال بويع له في حياته ، وجددت له البيعة يوم وفاته ، وفي يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة ٣٤١

جلس على سرير الملك ، وسلم الناس عليه بالخلافة ، وهو الخليفة الفاطمي الرابع . وكان عالماً فاضلاً جواداً منصفاً ، وهو أول خليفة من العبيديين ملك مصر . وفي سنة ٣٤٢ ولى باسيل الصقلي عاملاً على سرت ، وولّى على أجدابية ابن كافي الكتامي . وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب . وكان له فتح في صقلية سنة ٣٤٥ . . . وفي أيامه دخل اليهود إفريقية .

وبدخول برقة تحت حكمه أصبحت حدود مملكته على حدود مصر ، ومكنه هذا الجوار القريب من استطلاع أحوالها والوقوف على حقيقة حكم الإخشيديين فيها . وصارت نفسه تنازعه إلى احتلال مصر من الإخشيديين ، وأصبح يتحين الفرص وفي صفر سنة ٣٥٥ مات كافور الإخشيدى فاضطرب حبل الأمن في مصر ، فكان ذلك مما شجع المعز على الإقدام فاعتزم الأمر وأخذ يعد العدة لذلك ، وأمر بحفر الآبار ، وبناء القصور في طريق مصر . وقد بنى على رأس كل ثلاثين ميلاً قصرًا من القيروان إلى مصر . وجشد الجيوش الحرارة ، وجمع الأموال اللازمة لها ، واختار لقيادة هذا الجيش الفاتح مملوكه جوهرًا الصقلي ، وزوده بالأموال الكافية ، وأمر قواده ، وعماله في جميع النواحي أن يترجلوا في ركابه . وقد استكملت جميع الوسائل والمعدات للجيش ولم يبق إلا الرحيل ، وكان الجيش يُرَبَّى على مائة ألف .

وفي يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٥٨ ابتدأ هذا الجيش مسيره إلى مصر ، بقيادة جوهر الصقلي^(١) . وانساب في تلك البطائح يملأ ما بين تونس ومصر ، لا يتجاوز الطرف أوله ولا ينتهي إلى آخره . وقد وصف ابن هاني كثرة هذا الجيش بقوله :

ألا إن هذا حشدٌ من لم يذق له غرارَ الكرى جفن ولا بات يهجعُ
إذا حلَّ في أرض بناها مدائنًا وإن سار في أرض غدت وهي بلكعُ

(١) كنيته أبو الحسن . توفي بمصر سنة ٣٨١ ولم يبق شاعر بمصر لإرثائه .

وقد أنفق المعز على تجهيز لهذا الجيش أربعة وعشرين مليوناً من الدنانير .
 وحينما مر جوهر ببرقة كان بها أفلح الكتامي عاملاً عليها من قبل المعز ،
 فأنتفت نفسه أن يترجل في ركاب جوهر كما أمر المعز عماله أن يترجلوا في ركابه .
 وقدم له خمسين ألف دينار على أن يعفيه من ذلك ، فأبى جوهر إلا أن يترجل
 في ركابه كغيره من العمال والقواد ، ورد عليه المال ، فترجل الكتامي . وبعد
 مسير خمسة أشهر دخل مصر يوم الثلاثاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ ، ولم يجد
 عناء في فتحها ، ووضع أساس القاهرة إثر دخوله ، وأرسل إلى المعز يبشره
 بالفتح ويستقدمه إلى مصر .

وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ شرع في بناء الأزهر وانتهى منه في رمضان سنة ٣٦١ ،
 وفتح دمشق سنة ٣٥٨ بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد جوهر . وأخذ المعز
 يفكر في الانتقال إلى مصر ويعبد له العدة .

رحلة المعز إلى مصر

بعد أن تم فتح مصر ، وأسست القاهرة ، وتم بناء الأزهر . وبعد أن وطد
 جوهر ملك سيده المعز في مصر ، وفتح دمشق — بعد كل هذا لم يبق للمعز
 إلا أن يرحل عن إفريقية مسقط رأسه ، وموطن آبائه وأجداده ، ليتمتع بملك
 مصر ، ويتمثل بما قاله فرعون « أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري
 من تحتي » .

وفي ٢٢ من شوال سنة ٣٦١ رحل المعز لدين الله من المنصورية^(١) إلى
 سردانية — وهى بلد قريب من القيروان — فأقام بها حتى لحق به أهله وماله

(١) نسبة إلى المنصور بن بلكين بن زيرى . وتسمى صبره أيضاً

وجنده ، وأخذ معه ألف جمل محملة بالمال ، وفي أول صفر سنة ٣٦٢ رحل إلى مصر ، واستخلف على إفريقية بُلَكين بن زيرى ، وسماه يوسف ، وكنيته أبو الفتوح ، وذلك لتكون مملكتهم في المغرب حصناً لمملكتهم في المشرق ، ولتحول إفريقية بينهم وبين زناته المواليين لبني أمية . وكانت صنهاجة تناصر العلويين . واستثنى من إفريقية طرابلس وسرت وبرقة ، فلم يدخلها تحت حكم بُلَكين وألحقها بمصر ، وولى عليها عبد الله بن يَخْلِف الكتامى ، تقليلاً من نفوذ بُلَكين ، لأن سياسة الفاطميين كانت مبنية على الاعتماد على أنصارهم ، وإشعار هؤلاء الأنصار بدوام صلتهم بهم ، مراعين في ذلك مصلحتهم بقدر الإمكان . . . وكان مقر يخلف الكتامى طرابلس .

وسار بُلَكين مع المعز إلى قابس يودعه ويتلقى إرشاداته ووصاياه ، وقد أوصاه بثلاث : ألا يرفع السيف عن البربر . ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولى أحداً من أهل بيته .

ورحل المعز من قابس يوم الأربعاء العاشر من ربيع الأول سنة ٣٦٢ ، ودخل طرابلس يوم الأربعاء ٢٤ من الشهر المذكور ، وكان معه جماعة من الإباضية فهدوا إلى إخوانهم في جبل نفوسة فلم يبالهم ، وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين . . . ورحل عن طرابلس يوم ١٧ من ربيع الآخر ووصل إلى سرت في اليوم الرابع من جمادى الأولى . . . ورحل عنها ونزل بقصره الذى بنى له في أجداية . ورحل عنها ونزل بقصره المعروف بالمعزية^(١) في برقة في أواخر رجب . وكان معه الشاعر محمد بن هائى الأندلسى ، وكان يتغالى في مدح المعز إلى حد الكفر ، وله أشعار صريحة في ذلك ، منها قوله يخاطب المعز :

فكأنما أنت النبيُّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

(١) يوجد الآن مكان في برقة يقال له العزيات قريباً من طريق العبد جنوبى الجبل الأخضر ، وهذا المكان آثار بناء قديم ، ولا يبعد أن تكون آثار قصر المعز ، ولطول الزمن حرفت إلى العزيات . وطريق العبد - على ما يقال - هو الذى سلكه جوهر الصقل فى مجيئه إلى مصر .

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذى تجدى شفاعته غداً حقاً ونحمدُ أن تراه النار

ومن شعره فى المعز :

النورُ أنت وكلُّ نورٍ ظلُّمةٌ والفوقُ أنت وكلُّ فوقٍ دُونُ
فارزُك عبادك منك فضل شفاعته واقربُ بهم زلنى فأنت مَكِينُ

ومنه :

تدعوهُ مُنتقماً عزيزاً قادِراً غفَّارٌ مُوبِقَةٌ الذُّنُوبُ صَفْوَها
أقسمتُ لولا أن دُعيتَ خليفةً لدُعيتَ من بعد المسيح مَسِيحاً
شهدتُ بمفْخَرِكِ السمواتِ العِلا وتنزلُ القرآنُ فيك مَدِيحاً

ومنه :

وَعَلِمْتَ من مَكْنُونِ سرِّ الله ما لم يُؤْتَ فى المَلَكُوتِ مِكَائِيلَا
لو كان آتَى الخَلْقَ ما أوتِيَتْهُ لم يَخْلُقِ التَّشْبِيهَ والتَّأْوِيلَا

وقال فيه :

ونورُ هُدًى فى جِسمِ نورٍ يمدُّهُ شُعاعٌ من الأعلى الذِّى لم يَحْسَمْ
فأقسمُ لو لم يأخذِ الناسُ وَصْفَهُ عن الله لم يُعْقَلْ ولم يُتَوَهَّمْ

وبمثل هذا الإغراق فى الكفر يمدح ابن هانئ المعزَّ الفاطمى ، ولمثل هذه المكفرات يصغى المعز ولا ينكرها ، فأى مكفرات بعد هذه يا ترى ينكرها المعز . وابن هانئ هو محمد بن هانئ . ويلقب بأبى القاسم ، وأبى الحسن ، وهو من قبيلة الأزد ولد بإشبيلية من بلاد الأندلس . وقد وجد مقبولا بساحل البحر ببرقة ولم يعرف قاتله . ولما بلغ المعز خبر وفاته تأسف وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

وكان المعز وأجداده يستمعون إلى مثل هذه المكفرات ولا ينكرونها . وكانت أيمان كتامه أيام المهدي : « بحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة » وقد قتلوا العروس مؤذن مسجد ابن عياش بعد أن ضربوه بالسياط وقطعوا لسانه لأنه أذن ولم يقل حتى على خير العمل ، وكانوا يمنعون الناس من صلاة الضحى وصلاة التراويح . . . وعلى كل حال فإن الذين يريدون الطعن على أعمال العبيدين يجدون أكثر من دليل على أنها لا تتفق مع تعاليم الإسلام ، ولا مع ما كان عليه نبي الإسلام .

وواصل المعز سيره من برقة ، فوصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢ . ووصل مصر يوم السبت الثاني من شهر رمضان من هذه السنة ، ودخل القاهرة يوم الثلاثاء الخامس منه . ودخل من الباب القبلي وهو باب زويلة^(١) ووفد عليه أعيان القاهرة فأكرمهم وأحسن استقبالهم .

وامتد ملك المعز من مضيق سبته بالمغرب إلى مكة بالمشرق . وكان يصدر أوامره بالقاهرة ، فيأتمر بها سكان سواحل المحيط الأطلنطي .

ويظهر أن المناطق الجنوبية من إفريقية التي كانت يسكنها البربر لم تدخل تحت نفوذه ، لأنه تقدم أنه لما مر بطرابلس وكان معه جماعة من البربر فروا إلى إخوانهم بجبل نفوسة . وهذا يدل على أن جبل نفوسة لم يكن تحت نفوذه ، وقد تقدم أنه كان تابعاً لتيهت عاصمة إمارة الإباضية ، ويظهر أنها هي أيضاً لم تكن تحت نفوذ المعز .

وبقى المعز في مصر سنتين ونصفاً . وتوفي بالقاهرة في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٦٥ . ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر ودامت دولة الفاطميين ٢٦٠ سنة ، منها اثنتان وخمسون سنة بالمغرب

(١) لما بنى جوهر القاهرة كان معه طوائف كثيرة من البربر . وكانت طائفة منهم تسمى زويلة ، فسكنت بقرب هذا الباب فسمى باسمها وما زال معروفاً بها إلى الآن . ويسميه العامة بوابة المتولى غلطا . وبجواره حارة تسمى حارة زويلة

ومائتان وثمان سنوات بمصر . وعدد خلفائها أربعة عشر خليفة ، أولهم عبید الله المهدي ، وآخرهم العاضد الذي توفي بمصر يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ ، وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب . والملک لله وحده . يؤقئ الملک من يشاء وينزع الملک من يشاء .

الدولة الصنهاجية

نسبة إلى صنهاجة ، وهى قبيلة بربرية من قبائل البربر ذات الشهرة والمكانة الكبيرة فى إفريقية ، وكانت تناصر العلويين ، ولذلك كانت محل ثقة المعز لدين الله . . . وكان بيت آل زيرى من بيوتاتها المشهورة لذلك اختصه المعز بثقته ، وجعل رجالاته خلفاءه على إفريقية من بعده .

والدولة الصنهاجية ، وإن كانت تمثل الدولة العبيدية فى إفريقية ، ولكنها هى ذات النفوذ الفعلى والسلطان المباشر فى إفريقية . . . وقد حكمت إفريقية ١٨٢ سنة ، من سنة ٣٦١ إلى سنة ٥٤٣ ، وتولاها ثمانية أمراء من آل مناد ، أولهم بلكين بن زيرى ، وآخرهم الحسن بن على . وفى سنة ٤٠٦ انقسمت الدولة الصنهاجية إلى قسمين : شرقية ، وعاصمتها القيروان ، وغربية وعاصمتها قلعة بنى حماد^(١) .

(١) قلعة بنى حماد تقع فى جبل كنامة . وهى مشهورة فى إفريقية ، ولها تاريخ مجيد بما تعاقب عليها من الملوك وعظماء الرجال ، و بما كان لها من الشأن الرفيع فى حروب إفريقية عامة ، وحروب العرب والبربر خاصة . أسسها حماد بن بلكين بن زيرى سنة ٣٩٨ . وكانت تسكن حولها فى جبل كنامة قبائل عياض من بنى هلال . وقد شيد حماد بنيانها ، وأحكم أسوارها ، وأكثر فيها المساجد والفنادق وكل شئ يوفر للناس أسباب الراحة . وقد اتجهت إليها أنظار طلاب العلم والتجار ، وأصحاب الحرف والصنائع فأخذوا يهاجرون إليها أفواجا . وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة . وتوفى حماد سنة ٤١٩ . وحماد هذا عم باديس . وكان باديس أرسله لمحاربة زناقة ، وكانت خالفت عليه سنة ٣٨٨ وجعل له ملك جميع ما يفتحه ، فانتصر عليها ، وبنى القلعة ، وجعلها قاعدة ملكه . وانقسمت دولة صنهاجة إلى دولتين : شرقية وقاعدتها القيروان . وغربية وقاعدتها القلعة .

بلكين^(١) بن زيرى^(٢)

كنيته أبو الفتوح ، ولقبه سيف الدولة ، وسماه المعز لدين الله يوسف ، وهو أول أمير فى الدولة الصنهاجية . وحينما سافر المعز إلى مصر استخلفه على إفريقية والمغرب فى شوال سنة ٣٦١ . وقد فصل عنه طرابلس وسرت وبرقة كما تقدم . ولما مات المعز لدين الله ، وتولى بعده العزيز بالله نزار أرسل إليه يوسف بلكين سنة ٣٦٧ هدية وطلب منه أن يضيف إليه هذه المقاطعات الثلاث ، فجدد له العهد بالإمارة على إفريقية وأضافها إليه ، فرحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامى الذى كان مولى عليها من قبل المعز لدين الله ، وبعث يوسف بلكين إليها عماله .

عوصلة بن بكار

ولاه بلكين عاملا على طرابلس بدلا من عبد الله بن يخلف . وعوصلة هذا أحد موالى بلكين جاء به من مدينة بونه .

(١) كتبه بعض المؤرخين بالحجيم ، وبعضهم بالقاف ، وهذا يرجح القول بأنه بالكاف المعطشة التى تخرج بين القاف والكاف . وضبطه صاحب خلاصة تاريخ تونس بضم الباء واللام وتشديد الكاف . ولبلكين مكانة ممتازة لدى المعز لدين الله لما ناله على يديه من نصر على خصومه . وذلك أن محمد بن الحسن بن خزر المغراوى كان مخالفاً على المعز فى المغرب الأوسط . وكان جباراً طاغية ، فخافه المعز على إفريقية ، فأرسل إليه بلكين فى جيش كبير ، فانهزم محمد بن الحسن . وقد كبر عليه أن يهزم ، فتحامل على سيفه وقتل نفسه . وقتل اثنا عشر من أمراء زناتة ، وأسر منهم كثير ، وكان ذلك سنة ٣٦٠ ، فسر المعز بذلك وعظم بلكين فى نظره ، فاستخلفه عنه فى إفريقية . وأتاب عنه فى طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامى ولم يجعل لبلكين ولاية عليه ولا على صاحب صقلية .

(٢) ذكر فى الأئیس المطرب لابن أبى زرع أن زيرى بن عطية أرسل هدية إلى المنصور ابن أبى عامر ، وكان فيها عدة أحمال من قسى الزارة . والزارة قرية بطرابلس تصنع فيها القسى الجيدة . . . وكان هذا حوالى سنة ٣٧٧ . وهى المعروفة عندنا بعين زارة .

وتوفى بلكين بن زيرى^(١) يوم ٢٣ من ذى الحجة سنة ٣٧٣ . ومدة حكمه اثنتا عشرة سنة .

المنصور بن بلكين

كنيته أبو الفتوح ، ولقبه عدّة العزيز بالله . تولى الإمارة بعد وفاة والده بلكين ، وأقر عوصلة عاملاً على طرابلس وكان المنصور جواداً حازماً ، عادلاً . . . وفي أيامه أرسل أخاه يطّوفت إلى القيروان فاحتلها . وفي سنة ٣٨١ ختن ولده باديس فأرسل إليه عوصلة عاملاً على طرابلس — هدية فيها مائة حمل من المال . . . وكانت زويلة السودان تابعة له ، وعامله عليها ابن الخطاب ، فأرسل إليه هدية بهذه المناسبة ومن ضمنها زرافة وبعض مصنوعات السودان . . . ودامت إمارته نحو ١٣ سنة وتوفى يوم الخميس الثالث من ربيع الأول سنة ٣٨٦ .

باديس بن المنصور

تولى إمارة إفريقية بعد وفاة أبيه المنصور سنة ٣٨٦ . وأقر ولاية عوصلة على طرابلس . وطلب عوصلة من الحاكم بأمر الله المنصور خليفة مصر أن يعفيه من عمله بطرابلس ، ويأذن له في الالتحاق به في مصر ، فأعفاه من الوظيفة ، وأذن له في القدوم إلى مصر فالحق به .

يانس الصقلي

تقدم أن المعز لدين الله لما سافر إلى مصر استخلف عنه بلكين بن زيرى ، وجعل إمارة إفريقية في بيت آل زيرى على أنهم خلفاء للدولة الفاطمية

(١) وقعت حروب كثيرة بين زناتة وصنهاجة . وفي رمضان سنة ٣٦٠ وقعت بينهم حروب شديدة عقر فيها فرس زيرى فكبى به ووقع بين الصفيين ، واحتدمت عليه الحيل من الفريقين : فريق يريد قتله وفريق يريد إنقاذه . وقتل في هذه المعركة .

فى إفريقية . واستمروا تابعين لدولة الفاطميين بمصر إلى أيام المعز بن باديس كما سياتى . إذاً فأمرآل زيرى ليسوا مستقلين بإفريقية ، وإنما هم تابعون للفاطميين فى مصر ، والكلمة العليا فى أمور إفريقية ترجع إلى الخليفة فى مصر . وعلى هذا الأساس اعتبر يانس نفسه معيناً فى طرابلس من قبل خليفة مصر ، وليس لأمر إفريقية المعارضة فى هذا التعيين ، وإن كان يعتبر نفسه تابعاً له فى الإدارة . كما يعين الملك موظفاً ، فليس للوزارة المعارضة فى هذا التعيين وإن كان تابعاً لها فى الإدارة .

وقبل أن يسافر عوصلة إلى مصر عين الحاكم بأمر الله خليفة مصر يانساً الصقلى عاملاً على طرابلس ، ولم يأخذ رأي باديس فى هذا التعيين ، وجرت الأمور بدون علمه . ولم يشعر باديس حتى قدم يانس من مصر سنة ٣٩٠ ، وسلم له عوصلة طرابلس وسافر إلى مصر ، وأخذ معه ماله ، وأهله ، وولده . . وكان عوصلة كثير الولد والسرارى ، يقال إنه كان له قرابة ستين ولداً بين ذكر وأنثى ، وله من السرارى ما يربى على الثلاثين . . ووصل إلى مصر فأكرم الحاكم وفادته ، وقلده ولاية دمشق وأعمالها وما بها . . . واستولى يانس على كل ما تركه عوصلة بطرابلس ودام عوصلة فى الحكم تسعة وعشرين سنة .

ولما بلغ باديس خبر قدوم يانس طلب إليه أن يطلعه على عهد الحاكم له بولاية طرابلس ، فامتنع يانس لاعتماده على مكانته من الحاكم بأمر الله . . فأرسل إليه باديس جعفر بن حبيب لقتاله سنة ٣٨٩ . . . وجمع جعفر الجيش اللازم وسار لقتال يانس بطرابلس ، إلا أنه تلبث بقرية أجاس بقرب قابس نحو ثلاثة أشهر ، وأخذ يكاتب يانس أملاً فى رجوعه ، ولما يئس من الاتفاق معه خيره بين ثلاث : إما أن يرسل سجنه — العهد الذى كتبه له الحاكم — ، وإما أن يقدم إلى باديس للمفاوضة معه فيما جاء من أجله ، وإما أن يناجزه الحرب . فرد عليه يانس : أما القدوم على باديس فلا سبيل إليه ، وأما السجل فأنا أكبر من ذلك ، إذ كنت خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس ، وأما

الثالثة فأنا أوافيك إلى موضعك وأقاتلك به . . وبعد هذا الجواب من يانس لم يبق لدى جعفر أمل في الاتفاق معه ، فزحف إليه والتقوا بزنزور ، فنزل جعفر غربها ، ونزل يانس شرقها ، ثم التقى الجيشان وكانت الهزيمة على يانس ، فقتل أكثر جنده ، وأخذ هو أسيراً ، فطلب من أسريه أن يأخذوه إلى جعفر فأبوا ، وقتلوه وأخذوا رأسه إلى جعفر ، ولجأ المنهزمون من جيش يانس إلى طرابلس .

فتوح بن علي

اجتمعت بقايا فلول جيش يانس بمدينة طرابلس وقدموا عليهم فتوح بن علي ، وهو من أنصار يانس ، وتقدم جعفر بجيشه إلى المدينة وحاصرها فلم ينل منها شيئاً . وفي أثناء حصاره لها وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يخبره أن فلفل بن سعيد وصل إلى قابس وأنه يريد طرابلس لمحاربته ، فارتحل جعفر عن المدينة إلى ناحية الجبل خوفاً من أن يأتيه فلفل من الخلف ، وأصبحوا مهددين بالهجوم من فلفل من الناحية الغربية ومن فتوح من المدينة من الناحية الشمالية . وقد ضاقت به وبأصحابه الحال ، فاعتزموا الرحيل إلى قابس ، وأن يقاتلوا كل من يعترضهم مهما كانت النتيجة . ولما سمع فلفل تنحى عن طريقهم ووصلوا إلى قابس .

يذكر المؤرخون أنه كانت حروب كثيرة بين صنهاجة وزناتة ، وهما من قبائل البربر المشهورة بالقوة والسلطان . وقد ازدادت هذه الحروب بعد أن رحل المعز لدين الله إلى مصر ، واختار لإمارة إفريقية آل زيري الصنهاجيين . ولم يقع هذا الاختيار من بني خزرون الزناتيين موقع الرضا ، وتحملوه على مضض إلى أن تحين الفرصة للثورة . وفي أيام باديس كان الصدام بينه وبين الخزرونيين على أشده ، وكان الخزرونيون في جهات قابس ، وكان قائدهم فلفل بن سعيد ابن خزرون .

وسعيد بن خزرون هذا كان من ملوك مغراوة البرابر ، ومن مشاهيرهم وكانت له صلة قوية بالمنصور بن بلكين وكان أميراً على طبنة . ولما توفي سعيد بن خزرون سنة ٣٨٢^(١) كفنه المنصور في سبعين ثوباً . وفي هذه السنة قدم ابنه فلفل على المنصور في مدينة المنصورية بعد وفاة أبيه ، فزوجه ابنته ، وزفها إليه مزودة بثلاثين حملاً من المال ، وأهدى إليه خيلاً مسرجة بسروج محلاة بالذهب ، وبنوداً مذهبة ، وجعله أميراً على مدينة طبنة بدل أبيه ، ومع هذه الصداقة وهذه المصاهرة فقد كانت له مع باديس حروب كثيرة .

بنو خزرون

أسرة بربرية نسبها في زناته وقد حكموا طرابلس حوالى ١٥٠ سنة . وأول حاكم منهم عليها هو فلفل بن سعيد تولاها سنة ٣٩١ . وآخر حاكم منهم عليها محمد بن خزرون وطرد منها سنة ٥٤٠

فلفل بن سعيد

تعتبر إمارة فلفل بن سعيد على طرابلس عهداً جديداً فيه شىء من الاستقلال بالرأى وعدم التبعية للغير . وقد حملته عداوته للصنهاجيين على أن يستقل بطرابلس وينفرد بها عنهم ما أمكنته الفرصة .

قال التيجانى في رحلته : « وبعد أن انتقل العبيديون إلى مصر استولى بنو خزرون الزناتيون على طرابلس ، وكان بينهم وبين الصنهاجيين وقائع كثيرة وبقيت بأيدى الزناتيين إلى سنة ٥٤٠ » .

وفي أيام بنى خزرون تمتعت المدينة بشىء من الأمن والطمأنينة . أما الدواخل

(١) يقال إن سعيد بن خزرون قتل في حروبه مع زغبة ورياح من بنى هلال ، وهذا بعيد ، لأن بنى هلال لم يدخلوا إفريقيا إلا سنة ٤٤٢ و بعد وفاة المنصور بنحو ٥٦ سنة .

فكانت في اضطراب دائم نتيجة لإغارات العرب المتكررة .

تقدم أن جعفر بن حبيب أرسله باديس لحصار طرابلس وطرده فتوح بن على منها، وقد ارتحل جعفر عنها هارباً حينما علم بأن فلغل بن سعيد وصل إلى قابس يريد محاربته . . . وأسرع فلغل بالقدوم إليها ، ونزل له فتوح عنها فدخلها في رجب سنة ٣٩١ . ووقعت حروب بين فلغل وبين باديس دامت نحو سنتين ، وملك فلغل طرابلس واستبد بها عن باديس . وأراد فلغل أن تكون طرابلس تابعة للحاكم بأمر الله بمصر ، فأرسل إليه بطاعته سنة ٣٩١ فقبل الحاكم طاعته ولكنه لم يعينه حاكماً على طرابلس بل أرسل يحيى بن حمدون الأندلسي وعقد له على طرابلس وقابس ، ووصل يحيى إلى طرابلس في التاسع من ربيع الأول سنة ٣٩٢ فقابلته فلغل بالطاعة ، وارتحل معه هو وفتوح إلى قابس لحصارها وطرده جعفر بن حبيب منها . ولكن جعفر تحصن بالمدينة فلم يمكنهم اقتحامها عليه فرجعوا إلى طرابلس ، وأقام يحيى بن على مع فلغل في طرابلس إلى سنة ٣٩٣ . وقد وجد من فلغل إعراضاً عنه واستبداداً بالأمر دونه ، مع أن يحيى هو المعين من قبل الحاكم بأمر الله والياً على طرابلس وقابس . وقد استاء يحيى من مقابلة فلغل ، فرجع إلى مصر في هذه السنة بعد أن أخذ منه فلغل كثيراً من خيله وخيل أصحابه . وقد وجد الحاكم في نفسه على فلغل بسبب معاملته السيئة ليحیی ففقطعه عنه المدد ، واشتد غضبه عليه .

واستقل فلغل بطرابلس ؛ واستحكمت العداوة بينه وبين باديس وأصبح مقطوع الصلة من خليفة الفاطميين بمصر ، ومن خليفاتهم بإفريقية ، فأرسل بطاعته إلى المهدي محمد بن هشام حاكم قرطبة يستجده ويعده بالطاعة وضرب الدنانير باسمه . وقد مات فلغل سنة ٤٠٠^(١) قبل أن ترجع إليه رسله من قرطبة .

ثورة في برقة

وفي سنة ٣٩٥ كان رجل في برقة ادعى أن اسمه الوليد بن هشام بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الداخل لأنه من بني أمية من ولد المغيرة ، وأنه هرب من المنصور ابن أبي عامر ، وكان يحمل الماء لوضوئه في ركوة على طريقة الصوفية فقبل له أبو ركوة . وذهب إلى الشام ومكة واليمن ، وعاد إلى جهات مصر ، ونزل على بني قرة من بني هلال ، بنواحي برقة ، وأقام فيهم يصلي بهم ويعلم الصبيان القرآن . وانتهر فرصة صلته بالناس من طريق هذه المهنة ، فأخذ يشيع في الناس أن عنده أدلة على أنه سيملك مصر ويهلك الجبابرة ، وما زال بالناس حتى استألمهم إلى دعوته ، وأعلن الثورة ضد الحاكم بأمر الله في مصر ، لأن الحاكم كان قد أسرف في قتل الناس من جميع الطبقات ، وقتل جماعة من بني قرة وأحرقهم بالنار ، وقد وجدت دعوته منهم آذاناً صاغية . . ويقول ابن خلدون : إنه كان بين بني قرة وبين لواتة ومزاتة ، وزناتة — جيرانهم من البربر — دماء وثار قديمة ، فوضعوها واصطلحوا على يد أبي ركوة ، والتفوا حوله ، وبايعوه . وكانت برقة أيام أبي ركوة خاضعة لتنفيذ الحاكم بأمر الله بمصر . وله فيها عامل اسمه أنيال الطويل يمثله ويحكم باسمه ، فعرفه بأعمال أبي ركوة فلم يهتم لها . وفي رجب سنة ٣٩٥ ثار أبو ركوة ببرقة وحاصرها وقتل عاملها من قبل الحاكم بأمر الله بمصر^(١) . وغنم سلاحاً وأموالاً كثيرة . .

وتنبه الحاكم لخطره فأرسل إليه سنة ٣٩٦ جيشاً من خمسة آلاف فارس بقيادة أبي الفتوح الفضل بن صالح ، فبلغ هذا الجيش ذات الحمام^(٢) ، وكانت بينها وبين برقة مفازة معطشة ، فأمر أبو ركوة أتباعه بتغوير المياه على قتلها ،

(١) قال ابن خلدون قتله برمادة ببرقة

(٢) هي المعروفة الآن بالحمام أو حمام مريوط

ففعّلوا وأخذ أبو ركوّة يستعد للقائهم على حدود برقة . . ووصل الفضل بن صالح حدود برقة في حالة عطش وإعياء من طول السفر ، فقاتلهم أبو ركوّة ونال منهم . وانضمت إليه جماعات من كتامة هرباً من ظلم الحاكم ، فقبلهم أبو ركوّة وأمنهم ، وانهزمت عساكر الحاكم ، وقتل منهم خلق كثير ، ورجع أبو ركوّة ظافراً . وقد اغتر أبو ركوّة بهذا النصر في برقة ، فأخذ يفكر في الهجوم على مصر ليحقق لأتباعه ما كان يعدّهم به ، فردّد سراياه على الصعيد وأرض مصر ، وكثر أنصاره وقويت شوكته .

وفي سنة ٣٩٧ شرع الحاكم يدبر الحيل لأخذه ، فأشار على قواده بمكاتبتهم وإظهار ميلهم إليه ، فكاتبوا أبا ركوّة بأنهم على رأيهم وأنها مستعدون للثورة معه ، فانطلت عليه الحيلة ، وزحف بجيوشه على مصر ، على اعتبار أن قواد الحاكم بأمر الله سينضمون إليه ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجموا بجيوش جرارة ، ونحذله ماضى بن مقرب من شيوخ بني قرّة ، فهزم هزيمة منكرة ، ولم يتمكن من الرجوع إلى برقة فهرب إلى بلاد النوبة ، وطورد حتى قبض عليه وسلم إلى الفضل بن صالح فأنزله في خيمة ، ثم جرى به إلى مصر ، وطيف به في شوارعها على جمل لابساً طرطوراً ، وخلفه قرد يصفعه تشهيراً به ، ثم قتل في منتصف شوال سنة ٣٩٧ وصلب .

ورو بن سعيد^(١)

هو أخو فلفل . ولما مات فلفل اجتمعت زناتة وولوا ورّو مكانه والياً على طرابلس . . . وهاجم باديس طرابلس ، فلم يمكن ورّو الدفاع عنها وفر كثير من جندها إلى باديس ، فاضطر ورّو إلى التسليم فسلم هو ومن كان معه من

(١) ضبط في الجزء الثالث من البيان المغرب : بواو وراء مضمومتين ، والراء مشددة ، وبعد الراء واو بدون ألف بعدها . ورسم في تاريخ ابن الأثير بواو وراء مشددة وواو بدون ألف

زناته ، وطلبوا الأمان من باديس فأمنهم ، وأحسن إليهم ، وشرط عليهم ألا يقيموا في طرابلس ، وأقطعهم نفاوة وقسنطينة فانتقلوا إليهما ودخل باديس طرابلس ، ونزل قصر فلفل (١) .

ولم تؤثر الأحداث التي حصلت بين فلفل وورو وبين باديس على علاقة باديس بالحاكم بأمر الله ، فما كاد يتم الغلب لباديس على ورو حتى أرسل إليه الحاكم هدايا كثيرة ، ومرسوماً بإضافة برقة إلى عمله تقديراً لإخلاصه ، ولما أبداه من ثبات في دفاع الخزرونيين ، فوصلته الهدايا سنة ٤٠٣ وعين عاملاً من قبله على برقة .

محمد بن حسن

وعين باديس محمد بن حسن عاملاً على طرابلس بعد أن استسلم ورو وذهب إلى قسنطينة . ولكن ورو لم يف بعهده لباديس ، فلم يلبث أن جمع حوله من زناته وغيرهم وهجم على طرابلس فتصدى لهم محمد بن حسن ، ودافع دون المدينة ، وانجلت الحرب عن هزيمة ورو وأتباعه بعد أن قتل كثير منهم . . ثم جمع شمله وأغار على طرابلس مرة ثانية ، وحاصرها . . وكان خزرون أخو ورو في طاعة باديس فأرسل إليه باديس هو وبعض أمراء زناته بجهة الجريد أن يخرجوا لحرب ورو ، فخرجوا إليه وحاربوه « بعبرة » موضع بين قابس وطرابلس . ولم يلبث خزرون أن اتفق مع أخيه ورو سرا ، وقد أدرك باديس هذا الاتفاق ، فلم يجد خزرون بداً من الجهر بأمره ، وانضمت إليه زناته ، والتحقوا جميعاً بورو سنة ٤٠٤ ، وكان ورو قد وضع رهائن عند باديس . ولما تحقق باديس من خيانة ورو قتل من كان عنده من رهائن زناته .

وتجمعت زناته وضيق الحصار على طرابلس ، ووقف محمد بن الحسن دونها يدافع عنها بكل ما أوتي من قوة .

(١) هذا القصر ما زالت بقاياه في مدينة طرابلس ، وقد طغى عليه البحر ، وتسمى هذه الجهة « فلفل » وصاحب القصر فلفل ، لا فلفل .

وفي سنة ٤٠٥ أرسل وُرو بطاعته إلى باديس، وهذا يدل على أن محمد بن حسن انتصر عليه ولم يتمكن من دخول طرابلس . ومات وُرو في شوال سنة ٤٠٦ وبعد موت وُرو تنازع السلطة بعده ابنه خليفة وأخوه خزرون وانقسمت زناتة بينهما ، وانضم أكثرها إلى ابنه خليفة، فحارب عمه خزرون حتى غلبه ، وبعث بطاعته إلى باديس على أن يحافظ على الأمن ويحفظ عهده بطرابلس فقبل ذلك . . . أما خزرون فبعد أن تغلب عليه ابن أخيه ذهب إلى مصر واستقر بها . ونشأ بها بنوه : خليفة ، وسعيد ، والمنصور .

ويفهم من تعهد خليفة لباديس بالمحافظة على عهده بطرابلس أن باديس عين خليفة عاملاً عليها حينما شرط على نفسه أن يحافظ على عهده بها ، وبقي فيها إلى أن تولى المعز . . يدل على هذا ما سيأتي من أن خليفة جهز حملة بحرية من طرابلس ليهاجم بها فتوح بن القائد حينما علم أنه كاتب المعز ليدخل تحت طاعته . وقد اعتبر المعز هذا العمل من خليفة خيانة ، ونقضاً للعهد الذي أعطاه لوالده ، فجهاز جيشاً لغزو طرابلس وقاده بنفسه .

وفي سنة ٤٠٥ أرسل باديس هدية إلى الحاكم بأمر الله في مصر ، ولما وصلت إلى المهديّة أرسلت في البحر مع يعلى بن فرج . وكان من ضمن الهدية مائة فرس بسرّوجها المذهبة ، وثمانية عشر حملاً من الخبز والتمتع النفيس المذهب وعشرون جارية ، وأشياء أخرى ثمينة . ولما وصلت الهدية ناحية برقة استولى عليها العرب ، وهرب يعلى بن فرج . وهؤلاء العرب من الهلاليين ، وكان شيخهم إذ ذاك مختار بن القاسم ، وقد استغاث بهم فلغل بن سعيد في طرابلس على يحيى بن على فأغاثوه وهزموا يحيى ثم رجعوا إلى برقة . ولما استولوا على الهدية وهرب يعلى الذي أرسلت معه ثاروا على عامل برقة من قبل العبيدين وطردوه واستولوا عايبا . . . ولما زحف إخوانهم الهلاليون على إفريقية سنة ٤٤٢ زحفوا معهم ، وكان من شيوخهم ماضى بن مقرب .

ومما يلفت النظر ما تقدم آنفاً من أن فلغل بن سعيد استنجد بهؤلاء العرب

ضد يحيى بن على إلى آخر ما ذكر . ولم يذكر فيما تقدم أنه حصلت حرب بين فلغل ويحيى بن على ، وكل ما حصل هو أن يحيى بن على استاء من معاملة فلغل له فرجع إلى الحاكم بأمر الله في مصر ، ولم نطلع على ما يفيد أنه وقعت بينهما حرب . وكان باديس جواداً مقدماً يحب العفو عن المسيئين . . توفي بلسعة عقرب آخر ليلة من ذى القعدة سنة ٤٠٦ . ومدة حكمه عشرون سنة وأشهر ،

عبد الله بن الحسن

لما آل الملك إلى المعز بن باديس كان محمد بن الحسن عاملاً على طرابلس من قبل والده باديس ، فخلعه وأتى بدله بأخيه عبد الله . . وقدم محمد بن الحسن على المعز ، وأقام معه في محل الرعاية والتقدير نحو سبع سنوات . وفي سنة ٤٠٦ نقض خليفة بن ورو عهده مع الصنهاجيين الذي كان أعطاه لباديس ، وهاجم طرابلس وضيق عليها ، وطال حصاره لها ، وبذل عبد الله بن الحسن ما أمكن في الدفاع عنها ، وعجز خليفة عن اقتحامها عليه . وفي سنة ٤١٤ تغير المعز على محمد بن الحسن — وكان وزيره وصاحب جيشه — لأموار أنكرها عليه ، منها أنه استأثر لنفسه ببعض الجبايات ، فقتله . وكان هذا العمل من المعز سبباً في ثورة عبد الله بن الحسن على باديس ، وانضمامه إلى الخزرونيين انتقاماً لأخيه ، وفتح المدينة لخليفة بن ورو وفتح له مدينة طرابلس ودخلها .

خليفة بن ورو

اتحدت سياسة عبد الله بن الحسن وخليفة بن ورو ضد الصنهاجيين : الأول موتور بأخيه ، والثاني ثائر عليهم للأخذ بثأر الخزرونيين الذين قتلهم الصنهاجيون . واستعان خليفة بعبد الله على قتل الصنهاجيين الذين كانوا يحاربون

مع عبد الله داخل المدينة قبل أن يثور عليهم فقتلوه قتلًا ذريعاً . فاستغاث نساء المقتولين بالمعز ، فقبض على أولاد عبد الله بن الحسن وجماعته من أهله ، فحبسهم ثم قتلهم .

ولم ينس خليفة لعبد الله بن حسن حروبه معه وشدة دفاعه عن طرابلس ، فلم يلبث — بعد أن أوقع بالصنهاجيين في طرابلس — أن قبض عليه وقتله واستولى على قصره بما فيه من مال ومتاع ، حتى نسائه وبناته ، واتخذ قصره مقراً له ^(١) . ووصل خليفة سلسلة حكم بني خزرون في طرابلس بحلقته الأولى التي كانت انقطعت سنة ٤٠٣ باستسلام ورو لباديس وتعيين محمد بن الحسن على طرابلس .

ويود خليفة ألا يدخل في طاعة صنهاجة ، كما يود أن يحتفظ بطرابلس ، ولكنه واقع بين سلطة العبيديين في مصر وسلطة خلفائهم في إفريقية ، ولأنه أن يأمن شر هذين العدوين ، أو أحدهما على الأقل ، كاتب في سنة ٤١٧ الظاهر خليفة الفاطميين بمصر ، ووعد بالطاعة ، وأن يحتفظ عهده على طرابلس . ثم أرسل أخاه حماداً إلى المعز بن باديس بهدايا من عنده فتقبلها ووصله باديس بهدايا مثلها . وبذلك أمن خليفة بن ورو جانب خليفة الفاطميين بمصر بما وعده به ، وجانب المعز في إفريقية بما أهده له ، وتم لخليفة الأمر في طرابلس .

سعيد بن خزرون

تقدم أن خزرون بن سعيد لما تغلب عليه خليفة ابن أخيه ورو ذهب إلى مصر ، ونشأ بها أبناؤه سعيد وخليفة والمنتصر .
والآن يعود سعيد بن خزرون للأخذ بالتأثر من ابن عمه خليفة بن ورو .

(١) قال صاحب المسألة الشرقية : إن خليفة بن ورو قتل عبد الله بن حسن واستولى على طرابلس وخاطب الخليفة الظاهر سنة ٤١٧ . وبقيت طرابلس بأيدي بني خزرون واستقلوا بها وأصبحوا ملوكها إلى أن قدم العرب الحلاليون وغلبوا المعز بن باديس على إفريقية

فقدّم من مصر سنة ٤٣٣ ، ووصل إلى طرابلس وكان بها ابن عمه خليفة بن وُرو ، وأقام بضواحيها يؤلب عليه البربر ، والتفت حوله زناتة وكثرت أنصاره وهاجم المدينة في جموع كثيرة من زناتة وغيرها . ورأى خليفة بن وُرو ألا قبل له بهذه الجموع فتخلى عن المدينة وفرّ هارباً ، وتمكّن سعيد من دخول المدينة وأصبح حاكماً عليها إلى أن قتل سنة ٤٤٦ .

خزرون بن خليفة

خزرون هذا حفيد وُرو ، وبعد أن قتل والده خليفة لأسباب لم نطلع عليها صار والياً على طرابلس . ويقال إن رئيس الشورى الذى كان زمن والده هو الذى هيا له الأمور حتى تمكن من الحكم .

وفي أيام خزرون هذا ثار الطرابلسيون على مذهب العبيدين الشيعة بزعامة الأستاذ أبى الحسن بن المنتصر ، ونبذوا تقاليدهم الخاطئة وبدعهم الممقوتة ونخلص الطرابلسيون من زيغهم واعتنقوا مذهب الإمام مالك كبقية إفريقية .

وبقى خزرون بن خليفة والياً عليها إلى سنة ٤٥٠ .

المنتصر بن خزرون بن سعيد

المنتصر بن خزرون أحد أولاد خزرون الثلاثة الذين فربهم والدهم إلى مصر وتربوا فيها . وقد جاء إلى إفريقية كما جاء أخوه سعيد من قبل وفي ربيع الأول من سنة ٤٥٠ تقدم إلى طرابلس في جموع كثيرة ليستزعها من خزرون ابن خليفة ، ففر خزرون بن خليفة وترك طرابلس ، فاحتلها المنتصر بن خزرون .

تقدم أن خزرون بن سعيد كان يناصر الصنهاجيين . وكان أخوه وُرو ابن سعيد ثائراً ضدهم . ولما ثار أبو الحسن على مذهب الشيعة في طرابلس كان يحتّمى بسلطة خزرون بن خليفة وهو حفيد وُرو . ولما تولى المنتصر الأمر في

طرابلس — وهو من ذرية خزرون — انتقم من الأستاذ أبي الحسن ، ونفاه إلى غنيمة ، ونكل بكثير من أنصاره .

ولما تغلبت العرب على إفريقية أيام تميم بن المعز قوى نفوذ المنتصر في جهات طرابلس ، ولم يرع عهده للصنهاجيين ، فجمع حوله بني عدى من بني هلال وذهب إلى قلعة بني حماد لغزو بقايا الصنهاجيين هناك ، وأصبح لا يخاف نفوذهم في ناحية القيروان وتونس لأن نفوذ تميم انحصر في المهدية . وتقدم المنتصر إلى أن دخل أشير ، فخرج إليه الناصر من آل حماد وطرده حتى دخل الصحراء ، ولما رجع الناصر عاد المنتصر إلى غزو أراضي بني حماد . وقد احتال عليه الناصر وأوعز بقتله إلى عروس بن هندی — وهو من أنصاره — فقتله غيلة سنة ٤٦٠ .

خليفة بن خزرون

هو أخو المنتصر أحد الثلاثة الذين تربوا في مصر . ولما قتل أخوه المنتصر تولى بعده على طرابلس ، وبقي والياً عليها إلى سنة ٤٨٨ ، وقد ساءت سيرته ، واستبد بالناس حتى سئموا حكمه ، وصاروا يترصون به .

شاه ملك

رجل تركي ابن أحد أمراء الأتراك ببلاد الشرق ، نزل به ضيم في بلده اقتضى خروجه منه . فخرج في جماعة من أنصاره إلى مصر زمن الأفضل أمير الجيوش فنزل ضيفاً عليه وأكرم وفادته ، وأقطعهم أرضاً وأعطاه أموالاً... ولكن هذا التركي كفر النعمة وجحد المعروف ، وأتى أعمالاً أغضبت أمير الجيوش ، فغضب عليه وطرده هو وأتباعه ، فخرج شاه ملك في نحو مائة فارس ، وأمكنهم أن يتحصلوا على سلاح وتوجهوا إلى إفريقية . ولما وصلوا طرابلس تسقطوا أخبارها ، فعلموا أن السكان مستاءون من حاكمهم ويتمنون زواله... وقد أمكن شاه ملك

أن يتصل ببعض الأهالي واتفق معهم على مهاجمة المدينة ، ووعده بفتح أبوابها .
وقد تم ذلك ، ولم يجد شاه ملك عناء في التغلب على المدينة ، فدخلها وفر خليفة
ابن خزر ون^(١)

وقد اتصلت أخبار شاه ملك بتميم بن المعز بالمهدية — وكان أمير إفريقية
إذ ذاك — فأرسل جيشاً إلى طرابلس وحاصرها ، وضيق عليها حتى اضطرت أهلها
إلى فتح الأبواب ، واستسلم شاه ملك ومن معه وأخذ أسيراً إلى المهدية .

وقد احتال شاه ملك في تحسين سياسته مع تميم حتى أصبح منه في محل
الرضا ، ولكن مالبث أن عاوده نكران الحميل فأثنى أفعالا غيرت تميماً عليه ،
فحذر تميم ابنه يحيى من الانقياد إلى آرائه ، فأخذ شاه ملك في التحايل على
يحيى حتى أصبح من أصدقائه . واتفق أن خرج يحيى إلى الصيد في جماعة من
أصدقائه ومعهم شاه ملك فلما أبعدوا حرص أصحاب يحيى عليه ، فقبض عليه
وذهب به إلى صفاقس . وبلغ الخبر تميماً فأرسل في إثرهم جيشاً فلم يدرهم . . .
وخرج حموحا كم صفاقس للملاقات يحيى ، وسار في ركابه ، وأظهر له ما يليق
به من الخضوع والاحترام وكان بين حمو وتميم منافرة ، ولكن هذا لم يمنعه من
احترام يحيى وتكريمه .

وبقى يحيى أياماً عند حمو لم يخاطبه أبوه بشيء . وكان أبوه قد جعله ولي عهد
له ، ولكنه لما وقع في هذه المخالفة بتأثير من شاه ملك أقام أخاه المشى ولي عهده .
ثم إن حمو صاحب صفاقس خاف يحيى على نفسه ، وأن يشور معه الناس
والجند ، فأرسل إلى تميم يطلب منه أبناء شاه ملك ومن معه من الأتراك ، ويرسل
إليه ابنه يحيى ، فتردد تميم أول الأمر ، ثم أرسل أبناء الأتراك إلى حمو ، وأرسل
حمو يحيى إلى تميم ، وبقي يحيى مجبوراً عن والده مدة ، ثم عفا عنه وقربه .
وجعله ولي عهده وجهاز تميم جيشاً إلى صفاقس بقيادة ابنه يحيى ، فحاصرها
براً وبحراً ، وضيقوا على أهلها ، وأقاموا على حصارها شهرين ، ثم استولوا عليها

وفر الأتراك إلى قابس .

ولم تطب نفس المثنى برضاء والده عن أخيه يحيى وإسناد ولاية العهد إليه بعد أن أسندت إليه هو في غياب أخيه يحيى ، فأراد أن يدس له عند والده فلم يقبل والده منه . وانتهى الأمر إلى أن تغير تميم عن المثنى وأمر بإخراجه من المهديّة هو وأصحابه ، فركب في البحر إلى صفاقس ، ففجعه حمّى من دخولها ، فذهب إلى قابس . وكانت تحت حكم مكى بن كامل الدّهْماني ولحق به شاه ملك وأصحابه الأتراك ، فأخذ المثنى يغري كاملاً بغزو صفاقس والمهديّة ، وضمن له الإنفاق على الجيش من ماله ، وما زال به حتى وافق ، وجهزوا جيشاً لغزو صفاقس ومعهم شاه ملك وأصحابه ونزلوا عليها . فأرسل إليهم تميم جيشاً ، ولما علموا ألا قبل لهم به ساروا إلى المهديّة ، وكان يحيى هو الذى تولى الدفاع عنها ، وأظهر من حسن التدبير والشهامة ما نصره على أعدائه ، ورجع المثنى وشاه ملك خائبين ، ولم يبلغوا غرضاً . ونفذ ما عند المثنى من مال ، وأصبح يحيى سيد الموقف .

وإلى هنا انتهى ما عثرنا عليه من أخبار شاه ملك ، ذلك الأفّاق التركى الذى كان يقابل الإحسان بالإساءة والمعروف بالمنكر ، إرضاء لما كان يحيش في نفسه من حب العظمة والسيطرة .

المعز بن باديس^(١)

لقبه شرف الدولة . ونودى به أميراً يوم السبت الثالث من ذى الحجة سنة ٤٠٦ بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام ، اشتغل فيها ذوو الرأى من رجالات الدولة بتهدئة الخواطر ، وتهيئة النفوس للموافقة على إمارته ، وعمره إذ ذاك ثمان سنوات

(١) نعود إلى الكلام على آل زيرى بعد أن استوفينا الكلام على آل خزرون الذين كانوا ينافسون آل زيرى السيادة على طرابلس

وأربعة أشهر . وأخذت له البيعة في اليوم الثاني والعشرين منه .

وفي سنة ٤١٣ تزوج المعز بن باديس . وفي سنة ٤١٤ جهز خليفة بن ورو حملة بحرية من طرابلس على فتوح بن القائل . . وذلك لما بلغه أن فتوحاً كاتب المعز بن باديس في الانضمام إليه فجهز له المعز جيوشاً كثيرة وركب بنفسه قاصداً إلى طرابلس . وفي أيامه قويت شوكة زناتة ووقعت بينه وبينهم حروب استمرت سنين كثيرة . وفي سنة ٤٢٨ هزمهم هزيمة منكرة .

ولما تولى المعز إفريقية كان أكثر الناس على مذهب الشيعة الذي يتمذهب به الفاطميون ولا يقدر أحد أن يجاهر بغيره من المذاهب الأخرى ، اللهم إلا الإباضية الذين كانوا يتهربون وجبل نفوسة وغيرهما من الجهات البعيدة عن نفوذ الفاطميين .

وقد تولى تربية المعز بن باديس وزيره أبو الحسن الزّجال ، وكان عالماً فاضلاً يؤيد مذهب أهل السنة ، إلا أنه كان يخفي أمره على الشيعة ، فحرص على أن يُنشئ المعز على مذهب أهل السنة ، ويحاول صرفه عن مذهب الشيعة ما أمكنه ذلك ، ودأب على ذلك في السرّ ، وفقهه على مذهب مالك ، وقد تم له ما أراد من غير أن يعلم الشيعة بشيء من ذلك .

وفي سنة ٤٣٥ وصلت أخبار إلى الفاطميين بمصر دلت على كراهة المعز لمذهبهم ، فوجدوا عليه وقوى شكهم فيه أنه أصبح يخاطبهم بغير ما ألفوه من آبائهم من ألقاب التعظيم والتفخيم . وقد اقتنع المعز بفساد مذهب الشيعة ، واعتزم القضاء عليه في إفريقية ولكنه كان يتحين الفرص للتخلص منه . . . وكان يوجد في عسكر المعز كثير من الشيعة أنصار الفاطميين . . . قال صاحب البيان المغرب : « وكان المعز ذات يوم يسير في موكبه فكبا به جواده فقال : أبو بكر وعمر ، فسمعها الشيعة فتنادوا لقتله وحال بينهم وبينه أنصاره ومن كان يميل إلى مذهب أهل السنة ويكتم أمره ، ووضعوا السيف في الشيعة حتى قتل منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف ، حتى سمي ذلك الموضع « بركة الدم » . . . »

ونقل ابن الأثير في أسباب قتل الشيعة ما هو معقول أكثر مما تقدم ، فقال :
« إن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون
له ، فاجتاز بجماعة ، فسأل عنهم ، ف قيل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ،
فقال : « رضى الله عن أبي بكر وعمر » . فانصرفت العامة من فورها إلى درب
المقتلى من القيروان ، وهو مكان يجتمع فيه الشيعة فقتلوا منهم ، وكان ذلك رغبة
العسكر وأتباعهم طمعاً في النهب . وانبسطت أيدي العامة في الشيعة . وأغراهم
عامل القيروان وحرّضهم . وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد ، فبلغه
أن المعز بن باديس يريد عزله ، فأراد إفسادها . فقتل من الشيعة خلق كثير ،
وأحرقوا بالنار ، ونهبت ديارهم ، وقتلوا في جميع إفريقيا . واجتمع جماعة منهم
في قصر المنصور قرب القيروان فتحصنوا به ، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم ،
فاشتد عليهم الجوع ، فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم
ولما من كان منهم بالمهدية إلى الجامع ، فقتلوا كلهم »
وكان الشيعة يسمونهم بالمغرب « المشاركة » نسبة إلى عبد الله الشيعي وكان
من المشرق . . . اه ما ذكره ابن الأثير . وانتشر خبر هذا الحادث بين الناس
فتناولوا الشيعة بالقتل في جميع أنحاء إفريقيا .

ولمناسبة الثورة على الشيعة قال فيهم القاسم بن مروان الشاعر :
وسوف يُقتَلون بكل أرضٍ كما قُتلوا بأرضِ القيروانِ

وقال شاعر آخر :

يا مُعزّ الدين عَش في رفعةٍ وسرور واغتيال وجَذَلْ
أنت أرضيتَ النبي المصطفى وعَتِيقاً^(١) في الملاعين السّفَلْ
وجعلتَ القتلَ فيهم سُنّةً بأقاصي الأرض في كل الدول

(١) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه

وقد بلغ من كراهة الناس للمذهب الشيعة العبيديين ، وبدعهم المنكرة أن تركوا صلاة الجمعة وهجرت المساجد . . . وما زال المعز يعمل للقضاء على مذهب الشيعة حتى كانت سنة ٤٤٠ ف أعلن انضمامه إلى الدولة العباسية ، وخطب للقائم بأمر الله ، وقطع الخطبة للفاطميين بمصر ، ومزق أعلامهم وأحرقها ، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماءهم^(١) ، وضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكتب على الآخر : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . وأمر بلعنهم على المنابر فلعنوا بأقبح أوصافهم ، وقضى على الشيعة ومذهبيهم ، وكان هذا مشجعاً للناس على اضطهادهم والفتك بهم كما قضى على مذاهب الصفرية والإباضية^(٢) والنكارية ، والمعتزلة . وحمل كل الناس على مذهب الإمام مالك . وجاعته المراسيم والخلع من القائم بأمر الله العباسي ببغداد مع أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي ، من بني هلال الذين كانوا مع القرامطة ، وانقطعت صلته بالعبيديين في مصر . وكان مذهبيهم قد انتشر في برقة وطرابلس وفي كل مكان شمله حكمهم .

وفي سنة ٤٤٣ أرسل الأمير جبارة بن مختار من برقة بطاعته إلى المعز بن باديس ، وأعلمه بأنه هو وأهل برقة قد نبذوا طاعة العبيديين وأحرقوا أعلامهم ولعنوه على المنابر ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسي . وأول من ثار على مذهب الشيعة في طرابلس ، ونبذ تقاليدهم الباطلة ، ودعوتهم المضلّة هو العلامة الشيخ علي بن محمد المنتصر، وكنيته أبو الحسن ... ولما قتلت زعبة سعيد بن خزرون سنة ٣٨٢^(٣) فتح الأستاذ أبو الحسن

(١) ضربت الدنانير بأسمائهم سنة ٢٩٦ ، وأبطالها المعز بن باديس سنة ٤٤١ بعد أن تعامل الناس بها ١٤٥ سنة .

(٢) بق قليل منهم على مذهبه . . . ويظهر أنهم من سكان جبل نفوسة .

(٣) هكذا يقول التيجاني في رحلته ، وهذه الرواية وما فيها مما يتعلق بأبي الحسن مشكولة عنه ،

وقد حاولت جهدى تنسيقها وعدم تضاربها مع غيرها ، والعهدة عليه .

لخزرون بن خليفة مدينة طرابلس فدخلها . ويدل سياق الكلام على أن خزرون ابن خليفة كان من أعداء العبيديين الشيعة والثائرين عليهم ، ولعله ابن خليفة ابن وُرو ، لأن وُرو وأولاده كانوا ثائرين على باديس كما تقدم .

وفى أوائل سنة ٤٥٠ جاء المنتصر بن خزرون من مصر لأخذ طرابلس ، من خزرون بن خليفة وإرجاعها إلى العبيديين . والمنتصر هو الذى فرّ والده خزرون إلى مصر حينما تغلب عليه خليفة ابن أخيه وُرو . وكان مع المنتصر جيش كبير من زناتة ، فلم يقدر خزرون بن خليفة على مقاومته ففر مختفياً من المنتصر ، ودخل المنتصر المدينة ، وكان من أول أعماله أن تتبع أعداء الشيعة بالنفى والسجن فقبض على الأستاذ أبى الحسن ، ونفاه إلى غنيمة ، واستباح جميع أملاكه وعذب كثيراً من أقاربه بسببه . . . وما يزال المنتصر يكن العطف للعبيديين ، ولذلك انتقم من الأستاذ أبى الحسن . . .

ولد الأستاذ أبو الحسن سنة ٣٤٨ وتوفى بغنيمة سنة ٤٣٢ . . . وغنيمة بلد من بلاد مسلاتة .

وكانت أعمال المعز ضد الشيعة العبيديين ونبد عهدهم مما أوغر صدورهم عليه ، وحملهم على التفكير فى الانتقام منه . . . ولم يجدوا حيلة للانتقام منه ، وإزالة ملكه من إفريقية إلا أن يسلطوا عليه العرب ، ويمدوهم بما يساعدهم على محاربته ، وقد تم لهم ذلك فى خبر يأتى ذكره قريباً .

دخول العرب إفريقية (١)

ليس أحد ينكر شأن العرب في إفريقية ، وأدوارهم الخطيرة فيها . وقد عرف العرب في إفريقية منذ أن دخلوها فاتحين سنة ٢١ ، ٢٢ ، وتكرر ترددهم عليها وفتوحاتهم لها في أزمان مختلفة ذكرنا تواريخها في مواضعها . ومنذئذ صاروا يتكاثرون فيها شيئاً فشيئاً . . . ونقصم الآن الكلام على أخطر أدوارهم فيها ، وهو دخولهم لها سنة ٤٤٢ (٢) ، حينما دخلوها في تلك الجموع الهائلة بإغراء من المستنصر بالله الفاطمي حاكم مصر للانتقام من المعز بن باديس لما رفض طاعتهم ، ونبذ مذهبهم وانضم إلى الخلافة العباسية في بغداد ، بعد أن كان أبائهم خلفاء لهم في إفريقية يجنون لهم أموالها ، ويخطبون لهم على منابرهم .

كانت قبائل من العرب كثيرة تسكن على ضفاف النيل بصعيد مصر ، كانت أبعدت عن مواطنها الأصلية بجزيرة العرب ، وكانوا ممنوعين من الانتقال عن الأماكن التي عينت لهم ، وقد سبب لهم هذا الحجر ضيقاً في عيشهم ، فكانوا يتمنون أن لو أتيحت لهم فرصة التنقل ، وطبيعة عيش البدوى تحمله دائماً على التنقل . . وفكر المستنصر في استغلالهم ضد ابن باديس للانتقام منه . فاتصل بشيوخهم ، وصار يصف لهم إفريقية وما فيها من خير ونعيم ، وما فيه ابن باديس من غنى وبذخ ، وصار يهون عليهم شأنه ، ويقلل من قوته

(١) كانت هذه القبائل لها السيادة في العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام . ولما استبد الموال من العجم بالدولة العباسية اعتصموا بصحراء نجد ، ثم انفسوا إلى القرامطة أيام دولتهم بالشام . ولما استولى الفاطميون على دولة القرامطة جاءوا بهذه القبائل إلى صعيد مصر ، ومنعوا من الانتقال إلا بإذن منهم . ولما انتقلوا إلى إفريقية كانت الكعوب من بنى سليم من أبرز القبائل في الرياسة . ولما ظهر في إفريقية أولاد غانية وقرائش ناصرهم في الثورة على الحفصيين . وكان بينهم وبين الدولة الحفصية حروب دامت سنين نالوا منها ونالت منهم ، وأقطعت لهم أراضي كثيرة ، وأغدقت عليهم الأموال والرتب الكبيرة استجلاً لرضاهم ، ولم يتأثروا بذلك ، بل داموا على عداوتها حتى انقرضت .

(٢) وقيل ٤٤٠ .

ومقاومته ، ولا يفتر عن تحريضهم على غزو إفريقية . لأخذ هذا النعيم الكثير والملك الكبير ، ولم ينس أن يمنهم بالمساعدة وأنهم في رعايته وعلى بال منه ، وما زال بهم حتى أجابوا دعوته ، ويعلم الله أنه لا يريد من وراء ذلك لهم خيراً ، وإنما يريد الانتقام من ابن باديس بهذه الأيدي التي عرفت بممارسة الحروب وإتقان أساليبها بعد أن عجز عن الانتقام منه بنفسه . . . فأعطاهم من المال ما يعينهم على السفر ، وأباح لهم إفريقية يفعلون فيها ما يشاءون ، وقال لهم : « لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرون بعدها » .

فرحلوا عن صعيد مصر سنة ٤٤٢ وكانوا زهاء أربعمئة ألف وقد توقفوا في برقة برهة من الزمن ، وأرسلوا أحدشيوخهم — وهو مؤنس بن يحيى من بني مرداس ، من رياح أحد بطون بني هلال — وكان سيداً في قومه ، ليرود لهم إفريقية ، فذهب إلى المعز ونزل ضيفاً عليه ، وقد دهش لما فيه المعز من نعيم وأبهة ملك ، وما لاقاه منه من كرم وحسن ضيافة . وقد عرض عليه المعز — بعد أن عرف ما جاء من أجله — أن يتخذ من بني عمه رياح جنداً له ، فأشار عليه مؤنس بألا يفعل معملاً ذلك بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بهذا الرأي ، وظن أن مؤنساً لا يريد أن يكون لغيره سلطان على قومه وصارحه بذلك ، فأسرهما مؤنس في نفسه ، ورجع إلى العرب في برقة ، ووصف لهم من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغبتهم في الإسراع بالرحيل ، فرحلوا عن برقة ، وانسابوا في أرض إفريقية في جموع لا يدرك أولها ولا ينتهى آخرها .

ومن أشهر قبائلهم التي دخلت إفريقية بنو سليم بن منصور ، وبنو هلال ابن عامر . . . ومنهم زِعْب ، والأثبج ، وعدى ، ورياح^(١) وهم من بني عامر

(١) رياح من الهلالين ، جدّهم رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال . وكانت قبيلة رياح من أعز قبائل بني هلال وأكثرهم جمعاً عند دخول إفريقية . وكانت رياستهم في مرداس بن رياح ومرداس بطن من بطون رياح ، ثم انتقلت رياستهم إلى الداوذة أبناء داود بن مرداس بن رياح . ومن البطون التي تنتسب إلى مرداس بنو موسى بن عامر . وبعض النسابة يذكر مرداساً في بني سليم ، ولعله مرداس آخر .

ابن صمصعة وبنو جشم بن معاوية بن بكر. وهذه القبائل مضرية عدنانية . . . وقبيلة كهلان وهي قحطانية ، وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة .

وقد اقترحوا على البلاد فخرج لبني سليم شرقياً : برقة وما حولها ، وقد وجدوها خالية لأن أهلها حاربوا المعز لدين الله ففتك بهم حتى كاد يفنيهم ، وخرج لبني هلال غريباً : طرابلس وقابس ، وانضم بنو جشم إلى بني هلال . . . واستقرت زغبة في طرابلس سنة ٤٤٦ ، واجتازت رياح والأشبح وبنو عدى إلى إفريقية - وهم من بني هلال - فأضرموها ناراً

وحصلت بين العرب وبين المعز بن باديس حروب هائلة وملاحم كادت تقضى على الطرفين . وعبثاً حاول المعز إغراءهم بالمال لمسلته والانضمام إلى صفه . . . وكانت زناتة تقيم بجهاث طرابلس فدهمهم العرب بمجموعهم ، واجتازوهم إلى القيروان قوة واقتداراً بعد حروب طاحنة . وقد حشد لهم المعز ما أمكنه من خيل ورجل ، وقابلهم بنفسه في جيوش جرارة بين قابس والقيروان^(١) وثبت له العرب في جيش لا يزيد على ثلاثة آلاف . حدثنا عنه صاحب البيان المغرب أنه لا يزيد على ثلاثة آلاف ، وأن جيش ابن باديس لا يقل عن ثلاثين ألفاً . وظهر الاختلال في صفوفه ، وهربت صنهاجة وزناتة وبقي المعز في جنوده السودان وكانوا لا يقلون عن عشرين ألفاً ، وقتل منهم بين يديه خلق كثير ، ووصلت إليه سهام العرب ، فلم يلبث أن دارت عليه الدائرة ، ونجا بنفسه إلى المنصورية فيمن بقي معه من فلول جيشه .

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ما توصف به الحروب من فظاعة القتل وكثرة القتلى ، نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر في سبيل الحصول على الفوز . . . وقد قال الشاعر على بن رزق الرياحي^(٢) من قصيدة يصف فيها هذه الملهمة القاسية :

(١) في مكان يقال له حيدران . ويقال له الآن « ودران » .

(٢) وقيل على بن زروق .

وإن ابن باديس لأحزم مالك ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ثلاثين ألفاً إن ذا لنكال

وكانت الواقعة درساً قاسياً لابن باديس ، أفعنته بألا طاقة له بالعرب ،
وأيقن أن العبيديين رموه بداهية دهياء ، فأخذ يعكر في الانتقال من القيروان
ولم يكن له حصن بعدها إلا المهديّة التي كان يتولى أمرها ابنه تميم . وكان
القتاتون^(١) سعوا بينهما بالنيمة لقطع الصلة بينهما ، ولكن هذا لم يمنعه من الانتقال
إلى المهديّة ، فانتقل إليها في رمضان سنة ٤٤٩ . وتلقاه ابنه الأمير تميم بكل
ترحاب . ولما كان يتصف به الأمير تميم من حسن التصرف وأصالة الرأي فوض
له والده الأمر ، وبقي المعز معه بالمهديّة إلى أن توفي بها سنة ٤٥٣ . وكانت
مدة حكمه تسعة وأربعين سنة . وترك وراءه من حسن الأحداث والذكر المستطاب
ما يغبط عليه .

تميم بن المعز

ولد بالمنصورية في الثالث من رجب سنة ٤٢٢ . وولاه أبوه على المهديّة
سنة ٤٤٥ . ولما كان أبوه المعز بن باديس بالقيروان كان هو قائماً بشئون المهديّة
وانفرد بشئون إفريقية بعد وفاة أبيه .

وفي أيام الأمير تميم كانت قابس وضواحيها تحت رئاسة حمّو بن فلفل
البرغواطى^(٢) ، وهو من الخزرونيين أعداء الصنهاجيين ، وكانت زعبة من

(١) النمامون

(٢) برغواطة جماعات من البربر أخلطت من عدة قبائل يسكنون ساحل تامسنا وكانوا لا دين
لهم ، وهم بالمجوس أشبه . ادعى فيهم النبوة صالح بن طريف في أيام هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ .
وأصل صالح بن طريف من برناط : حصن من عمل شدونة من أعمال الأندلس ونشأ بها ، فكان
يقال لمن دخل في ديانته برناطى ، وحولته العرب إلى برغاطى ، فسموا برغواطة . . وصالح بن طريف
يهودى الأصل ، رحل إلى المشرق ، وأخذ عن عبيد الله المعتزلى ، واشتغل بالسحر ، ورجع إلى المغرب ،
وعاشر قبائل برغواطة وادعى فيهم النبوة وشرع لهم ديناً من تلقاء نفسه ، وقال لهم : أنا صالح المؤمنين

بنى هلال تسكن هذه الناحية ويناصرون حمّو ، فثاروا على الأمير تميم برياسة
حمو ، فتغلب عليهم ، وكثرت في أيامه الثورات وانتشرت الفتن . وفي سنة ٤٦٦
تغلب بنو رياح على زعبة^(١) وأجلوهم عن القيروان ، وباعوها إلى الناصر بن
علاء الناس بن حماد الصنهاجي الذي كان يقال له (علناس) وكان ينازع
تميم السلطة في إفريقية . . . وقد اصططح مع تميم سنة ٤٦٧ ، وزوجه تميم ابنته
بُلّارة وولى على طرابلس ابنه مقلداً . وتوفي الناصر بن علناس سنة ٤٧٠ .
وقد وجد الفرنجة — وهم بالمرصاد دائماً للمسلمين — في كثرة الثورات على
تميم فرصة للاستيلاء على المهديّة فاستولوا عليها سنة ٤٨٠ . واستولوا على
صقلية سنة ٤٨٤ .

الذي ذكره الله في القرآن الكريم ، وشرع لهم صيام رجب وإفطار رمضان . وجعل لهم الضحية في
الواحد والعشرين من المحرم . وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرة . وأباح لهم أن يتزوج الرجل
من النساء ما شاء . وفرض عليهم عشر صلوات خمساً في الليل وخمساً في النهار . وأمرهم أن يلحسوا ريقه
تبركاً ، فكان يتفل في أيديهم وهم يلحسون . وجاءهم بقرآن فيه ثمانون سورة ، منها سورة إبليس ،
وسورة الحجل ، وسورة الجراد ، وأمرهم ألا يقتسلوا من الجنابة .
وفي سنة ٤٥١ كان رئيسهم أبا حفص عبد الله بن أبي الأنصاري من نسل صالح بن طريف ،
فقاتلهم عبد الله بن ياسين حتى قتل في حروبهم في ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ . ملخص
من الأنيس المطرب لابن أبي زرع .

(١) كانت زعبة تسكن القيروان . وسيأتي أن بنى رياح أجلوهم عنها وباعوها إلى ابن علاء
الناس . ثم إن بنى رياح أجلوا زعبة عن قابس أيضاً . ولا ندري هل أجلوهم بعد أن أجلهم الرياحيون
عن القيروان ، أو كان قبل أن يحلوهم عن القيروان ، ثم طاردوهم وأجلوهم عن القيروان أيضاً .
وزعبة والرياحيون كلهم هلاكيون بنو عمومة . ولما أجلّ الرياحيون زعبة عن قابس تولى أمرها بنو
جامع مع أمراء قابس في عهد الصنهاجيين . وهم محمد ، ومدافع ، وعيسى أبناء رشيد . ورافع بن
مكئ . ومكئ ورشيد أخوان ، وهما ابنا كامل ، بن جامع ، بن دهمان ، من بنى على ، بطن من
بطون رياح . وقد تولى منهم الإمارة على قابس في عهد تميم بن المعز : بكر بن كامل بن جامع ، فقام
بأمرها واستبد بها على تميم ، ولم يزل أميراً على قومه دهمان إلى أن توفي . . وقام بالأمر بعده رافع ،
واستفحل بها ملكه . وكان آخر من ملكها من بنى جامع مدافع بن رشيد بن كامل . . ولما استولى
عبد المؤمن على المهديّة وصفاقس وطرابلس بعث ابنه عبد الله بجيش إلى قابس ففر مدافع عنها ، وأسلمها
إلى الموحدين ، ولحق بعرب طرابلس فأجاروه سنتين ، ثم لحق بعبد المؤمن بقابس فرضى عنه وهو آخر
أمراء بنى جامع . وبتسليمه لعبد المؤمن انقرض حكم بنى جامع .

كان تميم شجاعاً ، وجواداً يضرب بجوده المثل ، وقد قيل فيه :
أصحّ وأقوى ما رَوَيْنَاهُ فِي النَّدَى من الخبر المأثور مُنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السَّيُولُ عَنِ الْحَيَا عَنِ الْبَحْرِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمِ
وكان عالماً فاضلاً ، وشاعراً رقيق العاطفة ، ومن شعره :
فإمّا الملك في شرف وعز علىّ التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظبا العوالى فليستُ بخالد أبد الدهور
وقد ترجم بهذين البيتين عما اتصفت به تلك النفس الكبيرة التي لا ترضى
بغير الصدارة .

ومن رقيق شعره :

وآخر قد شربت على وجوه إذا وُصِفَتْ تجل عن القياس
"خلود" مثل ورد في ثغور كدر في شعور مثل آس
وكان من فحول الملوك الشعراء .
توفي تميم في منتصف رجب سنة ٥٠١ وعمره تسع وسبعون سنة . ومدة حكمه
٤٦ سنة ، عشرة أشهر ، وعشرون يوماً . . . وخلف مائة ولد من الذكور ،
وستين بنتاً . على أمثاله رحمة الله .

يحيى بن تميم

ابن المعز بن باديس . عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في السادس والعشرين
من ذى الحجة سنة ٤٩٧ . واستقل بالأمر يوم وفاة أبيه ، وعمره ثلاث وأربعون
سنة وستة أشهر ، وعشرون يوماً . . . وكان عالماً عادلاً . غزا في البحر عدة
غزوات فكان موفقاً . توفي يوم عيد الأضحى سنة ٥٠٩ وعمره اثنتان وخمسون
سنة ، وخلف من الذكور ثلاثين ولداً ومن الإناث عشرين بنتاً . ومدة ولايته
ثمان سنوات وستة أشهر .

على بن يحيى

ابن تميم بن المعز بن باديس . ولد يوم ١٥ من صفر سنة ٤٩٩ وولاه والده على صفاقس . وتوفى يوم ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥١٥ .

الحسن بن على

ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس . ولد بسوسة في رجب سنة ٥٠٢ وتولى بعد وفاة أبيه . وعمره ١٢ سنة وتسعة أشهر .
كان الشمال الافريقى مهدها دائماً بالغزو من سكان الجنوب الأوربي . وخصوصاً الجنوب الإيطالى ، لأن العرب كانوا احتلوا صقلية وما جاورها سنة ٢١٢ وقد تألب عليهم السكان وأخرجوهم ، وبقيت العداوة متأصلة بين الفريقين ينتهز كل منهما الفرصة لصاحبه . وقد تمكن رجار الصقلى من احتلال المهديّة عاصمة إفريقية إذ ذاك ، فى زمن تميم ابن المعز حينما كثرت عليه الثورات من الخزرونيين بمنصرة العرب . ولم يكتف رجار باحتلال المهديّة ، بل صار يقوى نفسه ويعدها لاحتلال بقية البلاد الإفريقية . ولما كانت طرابلس من أهم العواصم فى المنطقة الإفريقية الشرقية أراد رجار أن يحتلها ليسيّطر على ما بينها وبين المهديّة من ذلك الساحل الخصب الجميل وكانت طرابلس تحت حكم الخزرونيين وحاكمها محمد بن خزون . وقد آنس رجار ضعفاً من الحسن ابن على ، وأنه لا يمكنه مهاجمته فى المهديّة فاتجهت نيته إلى احتلال طرابلس .

محمد بن خزون

هو محمد بن خزون بن خليفة بن ورو ولى طرابلس بعد شاه ملك وقرب منه مشيخة بن مطروح لما لهم من المكانة والنفوذ فى طرابلس ، وأسند إليهم رئاسة الجند وتدير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم واستقل محمد

ابن خزرون بطرابلس عن الحسن بن علي، وناصره على ذلك بنو مطروح ورفضوا دعوة الحسن ، ومنعوا عنه ما كانوا يدفعونه إليه من مال .

رجار يهاجم طرابلس

وفي أيام ولاية محمد بن خزرون أواخر سنة ٥٣٧ هـ حينما كان الحسن بن علي والياً على إفريقية هاجم رجار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا سورها وقد دافع أهلها عنها واستنجدوا بسكان الضواحي من العرب وغيرهم فأنجدوهم ، ولم يتمكن رجار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائباً ، وغنم الطرابلسيون منه بعض الأسلحة . وبقى ابن خزرون مستقلاً بطرابلس يدير شئونها ويدين بالطاعة للعبيدين في مصر

المجاعة في طرابلس :

وفي سنة ٥٤٠ هـ حصل ما لم يكن في حسابان محمد ابن خزرون، فقد حصلت مجاعة كبيرة في طرابلس حتى اضطر بعض السكان إلى الجلاء عنها ، وكان محمد بن خزرون شديد الوطأة على السكان قاسياً في حكمه . ولما حصلت المجاعة وعجز الناس عن تلبية مطالبه اشتدت وطأته عليهم لسد العجز الذي لحق بحكومته ولكن الناس ما كانوا يجدون سبيلاً لتلبية طلباته ، فكانوا يضيقون بها ذرعاً ، وهو لا يزداد إلا تعسفاً .

بنو مطروح :

وكان بنو مطروح في مقدمة وجهاء طرابلس ومن أكبر أعيانها ، وكانوا من أكبر أنصار محمد بن خزرون كما قلنا آنفاً ، ولكنهم ضاقوا به كما ضاق به غيرهم ، ولم يمكنهم أن يخففوا من وطأته ، فجمعوا الناس حولهم وثاروا به ،

وأخرجوه هو وشيعته من المدينة واستبدوا بها ، ونقضوا بيعة الحسن بن علي وكان رجار متتبعا لأحوال طرابلس وما يقع فيها . وقد انتهر فرصة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة ، فاستعد للهجوم على طرابلس .

رجار يهاجم طرابلس

ما زال رجار مستاء من هزيمته الأولى في طرابلس سنة ٥٣٧ . ولما لاحت له الفرصة أعاد الكرة للمرة الثانية ، وكان قد استولى على صفاقس بعد أن استولى على المهديّة ، فجهز جيشاً وأسطولا عظيمين وهاجم بهما طرابلس . ولم تتفق كلمة السكان على الدفاع لضعف الحامية ، ولما أصاب البلاد من الضائقة المالية نتيجة للمجاعة الشديدة التي أصابتها سنة ٥٤٠ . فدهمها رجار بجيشه وأسطوله ، ولم يجد مقاومة ، فاحتلها بدون عناء سنة ٥٤١ .

وفر محمد بن خزرون وبعض حاشيته إلى البادية ، واحتموا بسكانها من العرب والبربر ، وكان محمد بن خزرون هذا آخر من تولى ولاية طرابلس من بني خزرون . وبخروجه انقطع أمرهم من طرابلس ودالت دولتهم .

ودخلها قائد أسطول رجار «جرجي بن ميخائيل الأنطاكي»^(١) وطلب منه السكان الأمان فأمنهم ، وشرط لهم ألا يكلفهم بما يخالف دينهم .

ولابن خلدون رواية أخرى في احتلال رجار طرابلس سنة ٥٤١ قد يكون فيها شيء من الزيادة على ما سقناه .

قال ابن خلدون : وأعاد رجار الكرة على طرابلس سنة ٥٤١ وحاصرها براً وبحراً ، وقتلها ثلاثة أيام . . . وكان أهل البلد قد اختلفوا قبل مجيء العدو ،

(١) تعلم في أنطاكيا بالشام وغيرها ، وهاجر من المشرق . واصطنعه تميم بن المعز . ولما مات تميم أعمل جرجي الحيلة في إلحاق برجار فلمحق به ، وحظى عنده ، واستعمله على أسطوله ١٥ من ابن خلدون . ج ٦ ص ١٦١

وأخرجوا بنى مطروح ، ولولا عليهم واحداً من أمراء لمتونة كان ماراً بها في طريقه إلى الحج ، ولكن أنصار بنى مطروح داخل السور انتهزوا فرصة انشغال الناس بقتال الفرنجة وأدخلوهم إلى المدينة ، ونشبت الحرب بينهم وبين بعض السكان — ويفهم من كلام ابن خلدون أن بعض السكان شغل بقتال بنى مطروح وأنصارهم الذين أدخلوهم المدينة ، وبعضهم شغل بقتال الفرنجة الذين هاجموا البلد — وقد أدرك الفرنجة ما وقع بين الأهلى ، وكانوا ما زالوا خارج السور ، فنصبوا عليه السلام وتسمنوه ودخلوا المدينة عنوة وفتحوا أبوابها لبقية جيشهم ، وأفحشوا في القتل والسلب ، والتجأ كثير من السكان إلى العرب والبربر في النضواحي . ثم رفع الفرنجة السيف ونادوا بالأمان ، فرجع كثير من السكان إلى المدينة ، وفرضوا عليهم الجزية ، وأقاموا بها ستة أشهر ، وأصلحوها من أسوارها وفنادقها ، ولولا عليها رافع ابن مطروح ، وأخذوا رهائنه بالطاعة ، ورجعوا إلى صقلية وحثوا الناس على الرحيل إلى طرابلس ، فرحل إليها أناس كثيرون وحسنت حالة العمران فيها .

ولم يكن في هذه الرواية ما يستغرب إلا قصة هذا الرجل الممتونى الذى ولاه الطرابلسيون أمرهم وهم لا يعرفون من أمره شيئاً . وقد يكون من المستبعد أن يبلغ الخلاف بين الطرابلسيين إلى أن يسندوا أمورهم إلى رجل عابر سبيل في طريقه إلى الحج . ولم يذكر ابن خلدون اسم هذا الرجل ، ولا ما آل إليه أمره بعد احتلال المدينة وإسناد أمرها إلى ابن مطروح ، كما لم أعثر في غيره على اسمه ، ولا كيف انتهى أمره .

وهذه هى المرة الأولى التى يستولى فيها الفرنجة على طرابلس ، أما المرة التى كانت سنة ٥٣٧ فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . . . ويؤكد التيجانى ذلك بقوله : « وهذه أول مرة يستولى فيها الفرنجة على طرابلس . وما يشاع لدى الطرابلسيين أن بلدهم احتلت مرة قبل هذه فليس بصحيح » .

ولاية رافع بن مطروح الأولى

وكنيته أبو يحيى ، وكان شيخ البلد ، فأُسند إليه رجار ولاية طرابلس ، وعين الأستاذ يوسف بن زيرى قاضياً ، وكنيته أبو الحجاج ، وبقيت طرابلس تحت حكم رافع بن مطروح اثنتى عشرة سنة ، وهو يدين لرجار بالطاعة .

وتوفى رجار سنة ٥٤٨ بعد أن ملك ما بين المهديّة وطرابلس . ما عدا قابس وخلفه فى الحكم ابنه غاليلم ، وسمى نفسه رجار الثانى . وهو الذى ألف له الشريف أبو عبد الله الإدريسي كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » فى الجغرافيا وقويت شوكته فى الشمال الإفريقى . وكان وجود رجار فى طرابلس مما زاد فى هيئته ، وكتب إليه صاحب قابس يطلب الدخول فى طاعته . . وكان غاليلم شديد الوطأة على المسلمين ، فلوأ حكمه ، وسُئمت نفوسهم البقاء تحت سلطانه وسرت بينهم روح التذمر والتزوع إلى الثورة . وقد ساعدهم على التفكير فى الثورة انتشار دعوة الموحدين فى إفريقية وقربهم من المهديّة .

وفى أيامه سنة ٥٥١ ابتدأت الثورة على غاليلم فى صفاقس ، وانتشرت فى البلاد الساحلية ، ووصلت إلى نواحي طرابلس . وقد خاف غاليلم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة ففكر فى إحداث فتنة بين الأهلى لتلهيهم عن التفكير فى الثورة وعن الإتصال بالموحدين ، فأمر الطرابلسيين بالطعن على الموحدين والتكلم فيهم وفى طريقتهم . ورأى الطرابلسيون أن هذا أمر يخالف الدين ، وقد سبق لميخائيل قائد أسطول رجار أن شرط لهم ألا يكلفهم بما يخالف دينهم ، فلجأوا إلى القناضى أبى الحجاج ، وكلفوه بأن يفهم غاليلم أن هذا أمر يخالف الدين ، وقد أمكنه أن يقنعه بذلك ، فأعفاهم من شتم الموحدين والطعن عليهم . وبقي يراقب الحالة ويحاول منع الثورة من الوصول إلى طرابلس ، ولكنه فشل ، وتأهب الطرابلسيون للثورة .

ثورة رافع بن مطروح

لم تكن معاملة غاليالم - رجار الثانى - للطرابلسيين تحمل من الإنصاف والعدالة ما يطمئن النفوس على الحياة ، ويبعث فيها الأمل فى المستقبل ، ويقنعها باحترام الحق والكرامة ، وكلما طال الزمن بالفرنجة فى البلاد الإسلامية كلما تهادوا فى الباطل وبلحوا فى الطغيان ، وقد سئم السكان معاشرتهم . . . وكان رافع ابن مطروح رأس الحركة وقائد الثورة وقد أعيته الحيلة فى كبح جماح غليالم ، حتى سنحت له الفرصة بقرب الموحدين من طرابلس ، فلم يسعه إلا انتهازها ، وجمع أنصاره ، وثار بغاليالم فى طرابلس سنة ٥٥٣ وقاتلوا الفرنجة قتلاً ذريعاً وأحرقوهم بالنار ، وهرب من لم يدركه القتل ، وتحررت طرابلس كما تحرر الساحل الإفريقى ما عدا المهديّة . وكان نفوذ غاليالم امتد إلى المهديّة . وفى الداخل إلى قرب القيروان .

ولاية رافع بن مطروح الثانية

وبعد أن تم طرد الفرنجة من طرابلس اتفقت كلمة الطرابلسيين على تولية رافع بن مطروح حاكماً على طرابلس . وما كان ينبغى التفكير فى غيره ، لأنه كان قبل الثورة والياً من قبل رجار ، وأيضاً فهو الذى قام بالثورة وقاد الناس إليها ، وأيضاً فإنه فى المكان الأول من الحياة الاجتماعية فى طرابلس ومن وجهاتها الممتازين . وبقي رافع بن مطروح يصرف شئون طرابلس . وكانت دعوة الموحدين قد انتشرت فى الشمال الإفريقى ، وبقي يترقبها رافع بن مطروح إلى أن فتحوا المهديّة وأجلوا منها غاليالم سنة ٥٥٥ فانضم إليهم ، وسيأتى خبر ذلك .

لقد جرت سياق القول إلى ما حصل فى طرابلس أيام الحسن بن على ، ونعود إلى الكلام عليه فنقول : إن الحسن بن على هذا هو آخر أمراء صنهاجة . القائمين

بدعوة العبيدين في إفريقية ، وعددهم ثمانية ، وهم : بلكين^(١) بن زيرى . . . المنصور بن بلكين . . . باديس بن المنصور . . . المعز بن باديس . . . تميم بن المعز . . . يحيى بن تميم . . . على بن يحيى . . . الحسن بن على . وفي أيامه احتل رجاء المهدي و انقرض ملك صنهاجة . والدنيا دول . والملك لله الواحد القهار .

دولة الموحدين

أسسها المهدي محمد بن تومرت في المحرم سنة ٥١٦ هـ . وهو محمد بن عبد الله تومرت ، ابن عبد الرحمن ابن هود بن خالد . . . وقال ابن خلدون في التعريف به : هو محمد بن عبد الله ، بن وجيلة ، بن بامصال ، بن حمزة ، بن عيسى^(٢) . وهو مؤسس دولة الموحدين ، واشتهر بالمهدي ، وأصله من هرغة من بطون المصامدة البربر . واسم أبيه عبد الله ، وتومرت ، وأصله من السوس ، ويعرف بالفتية السوسى . وكان إماماً في طريقة الأشعرية ، وهو الذى أدخلها إلى المغرب ، وذكر بعضهم نسبه في أهل البيت . . . قال ابن خلدون : ويظهر أن سبب هذا كثرة أولاد إدريس الأكبر في المصامدة . . . ولد بهرغة سنة ٤٩١ هـ . وقد شب على حب العلم والقراءة ، وارتحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومر بالأندلس وكانت إذ ذاك دار علم . ثم ذهب إلى الإسكندرية وحج . وذهب إلى العراق ، واجتمع بفحول العلماء وكبار المناظرين . وأفاد علماً كثيراً ، وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده ، ورجع إلى المغرب وتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانتشر صيته ، وسمى الإمام . ولما بايعه الناس على مناصرته لقبوه المهدي . وكان يسمى أصحابه الطلبة ، ويسمى أهل دعوته الموحدين . . . وله من عزارة العلم وقوة الحججة أخبار يطول ذكرها . وله

(١) وينطق تارة بالكاف المعطشة ، وهى التى تنطق بين الكاف والقاف .

(٢) قال ابن خلدون ، ذكر هذا النسب أبى رشيق وحقيقه ابن القطان .

من مضاء العزيمة وقوة الإرادة ما مكنه من إنشاء الدولة التي كان يعنى بها نفسه وقومه .

توفى ليلة الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة ٥٢٤ بتينمل ، وبها دفن .
ودام حكمه تسعة أعوام إلا ثلاثة أيام .

عبد المؤمن بن علي

ابن مخلوف ، بن يملا ، بن مروان ، بن نصر ، بن علي ، بن عامر . . .
وهو من قبيلة زناتة البربرية ، وقيل هو من أصل عربي مضرى . وكان الموحدون يلقبونه بالشيخ ، ويلقبون المهديّ بالإمام . . . وهو أول خليفة للمهدي ، استخلفه في حياته ، وتولى الحكم بعد وفاته سنة ٥٢٤ . وتغلب على ابن تاشقين ، وأرسل ابنه محمداً بجيش إلى قابس ، وكان بها مدافع بن رشيد من بنى جامع — وهو آخر من تولى قابس من بنى جامع — فضر عنها ودخلها جيش الموحدين ، وفي سنة ٥٥٤ دخلت طرابلس في طاعته ، كما دخل فيها جبل نفوسة ، وبهذا لم يبق في الشمال الإفريقي خارج عن طاعته إلا المهديّة فقد تحصن بها غاليالم — رجاء الثاني — محاولاً أن يستقل بها عن الموحدين ويدفعهم عنها . . . ولم يلبث سكانها أن استنجدوا بعبد المؤمن من ظلم غاليالم ، فاستجاب لنجدتهم ، وهاجمها بجيوشه ، ودخلها فاتحاً يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ ، وفتح المهديّة تم له الأمر في الشمال الإفريقي ، وخلص له كله ، وسمى هذه السنة سنة الأخماس لأنها وافقت ثلاثة أرقام كل منها خمسة .

وفي هذه السنة ذهب ابن مطروح إلى المهديّة في وفد من الطرابلسيين لمقابلة عبد المؤمن وليقدم له الطاعة مشافهة ويحدد له العهد ، فقبل منهم ، وأكرم وفادتهم ، وأقر ولاية ابن مطروح على طرابلس . . . ومن هذا الوقت دخلت طرابلس في عهد جديد ، وأصبحت تابعة للموحدين ، وأصبح رافع بن مطروح والياً عليها من قبلهم . . . وبقى ابن مطروح والياً عليها إلى أن هرم وعجز عن

الحكم أيام يوسف بن عبد المؤمن فطلب إليه أن يعفيه من مهام الحكم وأن يأذن له بالذهاب إلى مصر ، فأعفاه وأذن له . فسافر بطريق البحر إلى مصر سنة ٥٦٨ ، ووصل الإسكندرية في رجب من هذه السنة وبقي فيها إلى أن توفي ، وبقيت ذريته ، وكانت لهم رئاسة ، وفيهم علم وأدب .

ولما اشتد به الحنين إلى طرابلس قال :

لوقفة بين باب البحر ضاحية وباب هواره وموقف الغنم
أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن دير الزجاج وشاطئ بركة الخدم

وباب البحر ، وباب هواره ، وموقف الغنم أمكنة بطرابلس ، يقول إن الوقوف فيها أشهى إلى نفسه من كسر الخليج ، ودير الزجاج ، وشاطئ بركة الخدم أو الحرم ، وهي أمكنة بالإسكندرية .

وبعد أن فتح عبد المؤمن المهدية دان له المغرب كله . ودخل عليه صاحب قفصة ، ومعه بعض أعيانها لتقديم الطاعة ، وكان معهم الشاعر أبو محمد عبد الله بن أبي العباس التيفاشي ، فأنشد بين يديه قصيدة أولها :

ما هز عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

وأراد الاسترسال في الإنشاد ، فأمره بالتوقف ، واكتفى منه بهذا البيت لبلاغته ، وأعطاه ألف دينار وقبل طاعتهم ، وكانوا محاصرين ففك عنهم الحصار . توفي عبد المؤمن بمدينة سلا في العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٥٨ ودفن بتينمل بجوار المهدى . ومدة حكمه ثلاث وثلاثون سنة ، وثمانية أشهر ، و ١٥ يوماً .

يوسف بن عبد المؤمن

كنيته أبو يعقوب. بويغ له عقب وفاة أبيه. وتوفي يوم السبت ١٨ من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ ومدة ملكه ٢١ سنة ، و ١٠ أشهر ، و ٨ أيام .

يعقوب المنصور

كنيته أبو يوسف ، بويغ له بعد وفاة أبيه . ولد في أواخر ذي الحجة سنة ٥٥٤ وتوفي يوم ١٢ من ربيع الأول سنة ٥٩٥ ، ومدة حكمه ١٤ سنة و ١١ شهراً ، وأربعة أيام وفي أيامه ظهر أولاد غانية : يحيى وعلى .

يحيى بن إسحاق الميورقي

هو يحيى بن إسحاق ، بن حمو ، بن على ، الميورقي ، من بني غانية ، من المرابطين الملتجئين ، من قبيلة صنهاجة الذين كانوا ملوك المغرب . وعلى الميورقي والد حمو هو صاحب ميورقة . وكان قد سكن الصحراء لتزاع بينه وبين المتونة . وقد استرجعه يوسف بن تاشفين بعد سنين من إقامته بالصحراء ، وزوجه امرأة من أهل بيته تسمى « غانية » كان أبوها عهد إليه بكفالتها . وقد ولدت من على محمداً ويحيى ، وبقياً في كفالة يوسف ، وبعده في كفالة ابنه على ومصاحبته ، وعقد على بن يوسف ليحيى على غرب الأندلس ، وأنزله قرطبة ، وعقد لمحمد على ميورقة ومنورقة ، وبابسة سنة ٥٢٠ . هذه غانية التي نسب إليها يحيى وعلى وهما من أحفادها .

خرج يحيى وأخوه علىّ من مَـيـورقة في شعبان سنة ٥٨٠ سعيّاً وراء الملك ، وطلباً بثأر بنى تاشنّين من الموحدّين ، فاستولوا على المهديّة ، وطردها منها ابن عبد الكريم عامل الموحدّين . واستولوا على طرابلس وصفاقس ، وقابس . وفي سنة ٥٨٦ استولوا على تونس ، وطردها منها الموحدّين . وقد استفحل أمر بنى غانية في إفريقية ، واشتدت شوكتهم وضيقوا الخناق على دولة الموحدّين واغتصبوا منها إفريقية قوة واقتداراً .

شرف الدين قراقش

هو أرمني من الغزّ ، من مماليك الملك المظفر تقي الدين بن أيوب أخي صلاح الدين . وكان تقي الدين يريد أن يغزو المغرب ، ولكن وقفت في طريقه صعوبات حالت دون تحقيق هذه الرغبة ، وأهم هذه الصعوبات كثرة جموع العرب في إفريقية ، خصوصاً وقد عرفوا بالشجاعة وممارسة الحرب ، وقد شاع خبر سفره بين قواد جيشه وخواصه فرغبوا في ذلك وحذّروا الفكرة ، فلما عدل عن غزو المغرب صعب ذلك على قراقش ، وأصر على تنفيذ الفكرة ولو بمخالفة سيده ، ولما تحقّق تصميم سيده على العدول ، جمع أمره سنة ٥٦٨ ، وانضم إليه إبراهيم بن قراتكين سلاح دار تقي الدين ، وكثير من الغز المرتزقة ، وسافروا إلى المغرب لمحاربة الموحدّين ، وإحياء دعوة العباسيين .

ولما اجتازوا عقبة السلوم اختلف قراقش وابن قراتكين في الرأى فافترقا ، فسار ابن قراتكين على طريق الساحل وتمكّن من الوصول إلى قفصة فقبض عليه المنصور في جماعة وذبحهم جميعاً . . . وأما قراقش فسار إلى سيوه ، — وكانت تسمى إذ ذاك « شترية » — ، فافتتحها ، وخطب فيها لصلاح الدين وكتب إليه بذلك . . . واستولى على أوجلة ، وزويلة وبلاد فزان ، وأزال منها دولة بنى خطاب الهواريين — وهم من البربر من قبيلة هواة — وكانت قاعدة ملكهم

زويلة ، ولذلك فهي تعرف بزويلة بنى خطاب ، وقبض على ملكهم محمد^(١) ابن خطاب وعذبه حتى مات ، وهو آخر ملوك بنى خطاب ولما خربت زويلة انتقلوا إلى فزان . وهكذا استمر قراقش في فتح البلاد ، وكلما فتح بلداً دعا فيه لصالح الدين وأرسل إلى سيده بذلك حتى وصل طرابلس .

قراقش في طرابلس

دخل طرابلس بعد أن غادرها أبو يحيى رافع بن مطروح وكانت خالية من الجند والأقوات . وقبل أن يهاجم طرابلس دعا القبائل العربية الضاربة في تلك النواحي وحول المدينة للانضمام إليه ، فانضم إليه العرب ، الذبايون من بنى سليم ، والشيخ مسعود بن زيان شيخ الدواودة الرياحين وغيرهم كثير من بنى هلال وبنى سليم وكان الشيخ مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوارى من الذبايين أبي أن ينضم إلى قراقش فقبض عليه وباعه إلى حاكم برشلونة النصراني^(٢) ، فاشتراه ، وبقي عنده أسيراً وسيأتي خبره . . . وكان ذلك سنة ٥٨٢ ، فقويت بالعرب شوكته ، وكثرت عصابته ، فنهض بهم إلى جبل نفوسة فاستولى عليه ، واستولى فيه على أموال كثيرة ففرقها فيمن معه من العرب استجلاًباً لإخلاصهم له . . . وباستيلائه على جبل نفوسة حفظ خط الرجعة لنفسه ، ولم يبق وراءه من يخافه من الشرق والجنوب . . . ثم تقدم في جموعه إلى طرابلس وحاصرها ، ولم يلبث أن استولى عليها لقلّة ما بها من الجند والأقوات ، لأن أهلها ما كانوا ينتظرون هجوم العدو عليهم . . . وأصبح يملك ما بين طرابلس وفزان ، ومن جبل نفوسة إلى حدود برقة الشرقية . . . وقد اضطره انضمام العرب إليه إلى كثرة الإنفاق ، فأكثر من فرض الضرائب على السكان حتى أجهدهم ، وأفقرهم ، وتدمرت نفوسهم من قسوته عليهم ، وأضمرّوا

(١) محمد بن خطاب ، بن يصيلتين ، بن عبد الله ، بن صنفل أو زنفل ، بن خطاب .

وأول أمر بنى خطاب في زويلة أنهم كانوا عمالا فيها للمنصور بن بلكين في سنة ٣٨١

(٢) ويقال إن الجنويين أسروه وباعوه لحاكم برشلونة

له العداء . . . واتخذ من طرابلس مقراً له ، وبني قصره الذي ما زالت بقاياه بقرية قرقارش ، وهي محرفة عن اسم قراقش . وتوجه إلى إفريقية وهناك التقى بأولاد غانية : يحيى وعلى ، فاجتمعوا على الفساد وظلم العباد ، وانضم إليهم كافة بني سليم ومن ناصرهم من البربر . وكانت رياح ، وجشم والأثبج من بني هلال مخالفين للموحدين فانضموا إليهم ، وخالفهم زغبة من بني هلال فانضمت إلى الموحدين ، واشتد خطرهم على الناس ، فاستعاثوا بالأمر يعقوب المنصور بن عبد المؤمن في مراكش سنة ٥٨٣ . وفي سنة ٥٨٤ قتل على بن غانية في حروبه مع نفزاوة بالجريد أصابه سهم غرب فقتله ، وحمل جثمانه إلى ميورقة فدفن بها . والسهم الغرب : هي التي لم يقصد بها قتل من أصابته . وفي سنة ٥٨٦ التقت جيوش المنصور بجيوش يحيى بن غانية وقراقش بقرب الحامة ، فدارت الدائرة عليهم ، وفر ابن غانية وقراقش إلى الصحراء ، وقتل كثير من أصحابهما ، وصبّح المنصور قابس فاستولى عليها ، ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس . وخرجت طرابلس من يد قراقش ، ورجع المنصور إلى المغرب .

عثمان أبو دبوس

هو من ذرية أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش . وقبل أن يغادر المنصور إفريقية ولاه على طرابلس . . . ولما انقرضت دولة الموحدين ، وقامت دولة بني مرين ذهب عثمان هذا إلى برشلونة ، فأكرمه حاكمها ووجد عنده الشيخ مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوارى الذي كان قراقش باعه إلى حاكم برشلونة سنة ٥٨٢ ، فطلب أبو دبوس من حاكم برشلونة أن يجهز له جيشاً وأسطولا بحرياً ليسترد دولة الموحدين ، فاشتد عليه شروطاً ، وأن يدفع إليه مالا ، فرضى أبو دبوس ، فجهز له حاكم برشلونة جيشاً وأسطولا ، وأطلق له الشيخ مرغم بن صابر شيخ الجوارى الذي كان أسيراً عنده وعقد بينهما حلفاً على أن ينصر كل منهما الآخر .

ولم نطلع على أعمال أبي دبوس في طرابلس بعد أن ولاه المنصور عليها .
ويظهر أن هناك حلقة مفقودة حدث فيها ما أوجب خروج أبي دبوس من
طرابلس ، ولا ندرى أيضاً لم ذهب أبو دبوس إلى حاكم برشلونة ليعينه على
استرداد دولة الموحدين ، ولم يذهب إلى المنصور في مراكش ، كل هذا شيء
ما زال في الخفاء .

وجاء أبو دبوس والشيخ مرغم بن صابر في أسطول برشلونة إلى طرابلس ،
ورسا أسطولهم عليها سنة ٥٨٨ ، ونزل مرغم إلى البر ، والتقى بقومه ، وحملهم على
مناصرة أبي دبوس ، وحاصروا طرابلس من البر والبحر ثلاثة أيام فلم يقدرُوا
عليها ، فرحل الأسطول بمن فيه من جيش برشلونة ، وبقي قريباً من المدينة
ينتظر الوفاء بالمال الذي شرطه أبو دبوس على نفسه ، وبقي جيش العرب يحاصر
المدينة من جهة البر . وذهب أبو دبوس ومرغم إلى ضواحي طرابلس يجنون الأموال
 ويفرضون على الناس المغارم ليسددوا ما تعهدوا به لحاكم برشلونة ، ورجع
الأسطول إلى برشلونة ، وبقي أبو دبوس يتقلب مع العرب في الأراضي الطرابلسية
إلى أن هلك ولم يتم له أمر .

ولم يلبث قراقش أن جمع أمره وأغار على قابس فاحتلها . وكان بها كثير
من مشايخ العرب الذين لم يناصروه وانضموا إلى الموحدين ، فجمع منهم نحو
سبعين شيخاً من بني سليم من الذبابيين والكعوب — جمعهم في قصر العروسيين
وقتلهم جميعاً^(١) . منهم محمود بن طوق جد الحاميد ، وإليه ينسبون . وحيد بن جارية
جد الجوارى وإليه ينسبون . . . وذهب قراقش إلى طرابلس فدخلها بعد حرب
مريرة ، وأصبح مستولياً على قابس وطرابلس ، واستولى يحيى بن غانية على
القيروان . ولا ندرى من الذى كان يمانع قراقش من دخول المدينة .

(١) في أيام الدعي ابن عمارة حفر في هذا القصر لغرض ، فعثر على عظام هؤلاء القتلى ، ونقلوا
منها نيفاً وستين ججمة من جماجم رؤوسهم . وهذا القصر في قابس من قصور بني دهمان الهلاليين .

عداوة :

وتغيرت الحال بين قراقش ويحيى بن غانية ، وانقلبَت المحبة بغضاً والصدقة عداوة ، وأعلن كل منهما الحرب على صاحبه .

وفي سنة ٥٩١ سار ابن غانية من القيروان إلى طرابلس لمحاربة قراقش وطرده منها ، فلما أحس به قراقش جمع له ، وخرج للقائه خارج السور خوفاً من الحصار ، وأتاب عنه ياقوتاً المعروف بالافتخار . فالتقوا بواذى محسن ، وهو وادى الهيرة^(١) ، من أراضي ورشانة غربى العزيزية وشمالها ، فانهزم قراقش ، وفر إلى الجبل ، وطارده الميورقي أياماً فلم يظفر به ، وذهب قراقش إلى ودّان وبقي هناك ، وسيأتى خبره .

ياقوت « الافتخار »

استخلفه قراقش على طرابلس حينما خرج لمحاربة ابن غانية . ولما انهزم قراقش ورجع ابن غانية إلى طرابلس تحصن بها ياقوت ولم يسلمها إلى ابن غانية فحاصره بها ، واستمات ياقوت في الدفاع عنها ، وطال حصارها ، فاستنجد يحيى الميورقي بأخيه عبد الله في ميورقة ، فأرسل إليه سفينتين في البحر ، واشتد الحصار على المدينة من البر والبحر ، ولم تلبث أن سقطت في يد الميورقي فدخلها فعفا عن الأهالى ، وقبض على ياقوت وأرسله إلى ميورقة مكبلاً بالحديد ، وبقي مسجوناً بها إلى أن استولى عليها الموحدون فخرج من السجن ، وذهب إلى مراکش ، ومات هناك . . . ولما تم استيلاء الميورقي على طرابلس ولّى عليها ابن عمه تاشفين بن الغانى .

وتوفى المنصور في الثانى من ربيع الأول سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر .

(١) (الهيرة) بفتح الهاء وسكون الياء : الأرض السهلة . ومن هذا المعنى أخذ اسم وادى الهيرة . لأنه يفيض في أرض سهلة منبسطة . وعلى هذا يقرأ بفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحت .

محمد الناصر

كنيته أبو عبد الله . بويع له يوم وفاة أبيه يعقوب المنصور ، وتوفى يوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ ودامت ولايته ١٥ سنة ، وأربعة أشهر ، و ١٩ يوماً . . .

واستمر بن غانية في ثورته حتى تغلب على ابن عبد الكريم حاكم المهديّة واستولى عليها سنة ٥٩٧ . وأرسل ابن عبد الكريم إلى ميورقة في سفينة مكبلاً بالقيود ، فرماه الحراس في البحر بقيوده ومات غرقاً سنة ٥٩٧ . . . وفي هذه السنة استولى يحيى بن غانية على تونس في ربيع الآخر ، وامتد سلطانه على تيسّة والقيروان ، والجريد ، وصفاقس ، وقابس ، وطرابلس ، وخطب في هذه المدن للعباسيين ببغداد . . . وامتنع أهل نفوسة من دفع المغارم المفروضة عليهم ، فذهب إليهم بنفسه ، وأخذ منهم ألف دينار تنكيلاً بهم ورجع إلى تونس . وتعالّت شكوى أهل إفريقية من أعمال ابن غانية ، واتصل بالناصر ما حل بهم منه فخف إلى نجدتهم سنة ٦٠١ . وأحس ابن غانية بقدومه إليه ، فذهب إلى قفصة ، وأرسل أهله وأمواله إلى المهديّة ، وجمع العرب وأخذ عليهم العهد على نصرته والمخاربة معه ، وأخذ رهائثهم على ذلك .

وفي هذه السنة ثار عليه أهل طرابلس ، وأخرجوا منها عامله تاشفين بن الغاني . ورجع إليهم يحيى بن غانية فاحتل البلد وخرّبها .

وقدم الناصر في جموعه ، ونزل حول المهديّة ، وأرسل عبد الرحمن بن أبي حفص لقتال الميورقي ، فأدركه في جبال تاجرّاً بقرب قابس^(١) ودارت بينهم

(١) قال التيجاني في رحلته : قتل على بن غانية في معركة تاجرّا . وقد تقدم أن أشرنا إلى قتل على بن غانية في معركة قبل هذه ، ولعلها كانت في تاجرّاً أيضاً

الحرب ، فهزم الميورقي ، وقتل في المعركة أكثر جنده ، ومن بينهم أخوه جبارة
وكتبه على بن اللمطي ، وكثير من المقربين إليه . . . وفر يحيى بن غانية في
نفر قليل إلى الصحراء . واستولى عبد الرحمن على كل ما تركه ابن غانية ، ورجع
به إلى الناصر ، وهو ما يزال محاصراً المهديّة . . . وكانت الغنائم في هذه المعركة
ثمانية عشر ألف حمل من المال والمتاع والآلات . وكانت هزيمة ابن غانية في
الثاني عشر من ربيع الاول سنة ٦٠٢ وفي هذه الهزيمة المنكرة التي حاقت بابن
غانية قال حماد الملقى هذين البيتين :

أرى يحيى أمام الخلق يأتي يفر أمام من يأتي إليه
فشبهت الشقي بياء يرمى ولام الأمر داخلته عليه

واستمر الناصر على حصار المهديّة حتى فتحها يوم ٢٧ من جمادى الأولى سنة
٦٠٢ وكان القائم بالحروب في المهديّة على بن الغاني ابن عم يحيى بن غانية
فاستسلم وتم أمر المهديّة للناصر ، وزال حكم ابن غانية عن طرابلس ، ودخلت
تحت حكم الناصر . وولى على المهديّة محمد بن يعمر المتهتاق (أبا عبدالله) .

عبد الله بن إبراهيم بن جامع

ودخلت طرابلس تحت حكم الناصر وولى عليها عبد الله بن إبراهيم بن
جامع . وانتقل الناصر إلى تونس في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٦٠٢ ، ووصل إليها
غرة رجب ، وأقام بها بقية السنة وبعضاً من سنة ٦٠٣ وفي هذه المدة ما زال
ابن غانية يشن غاراته على الناصر .

وفي أثناء إقامة الناصر بتونس جهز لأخيه السيد أبي إسحاق جيشاً وأمره
بمطاردة ابن غانية الميورقي ، فطارده في الأراضي الطرابلسية ، وأخضع البربر

في جبل نفوسة . وحصلت بينه وبين ابن غانية معركة بشبرو^(١) فهزم ابن غانية ، واستمر أبو إسحاق يطارده إلى سويقة ابن مذكور ومن هنا رجع السيد أبو إسحاق إلى أخيه الناصر بتونس . واستمر ابن غانية هارباً إلى ما وراء سرت ورجع الناصر إلى مراکش سنة ٦٠٣ .

وسويقة ابن مذكور أو ابن مكتود كما في معجم البلدان ، هي من البلدان الطرابلسية القديمة التي نسي اسمها ودرس رسمها . وذكر صاحب نزهة الأنظار أن سويقة ابن مذكور « كانت عامرة وذات أسواق كبيرة مشهورة تبعد عن بلدة إلى جهة الشرق بنحو ثلاثين ميلاً »^(٢) . وعلى هذا الوصف ، فأقرب شيء يشبه أن يكون سويقة ابن مذكور هي تلك الأبنية التي توجد بجهة وادي ماجر الذي يبعد عن بلدة زليطن إلى الجنوب الغربي بنحو ثلاثين ك . م . وهي أبنية كثيرة ما زالت قائمة ، تترأى للناظر أنها بلاد متصلة أبنيتها بعضها ببعض^(٣) وهناك أبنية أخرى كثيرة على ضفاف وادي تارغلات ووادي ماجر ما تزال آثارها باقية ، وبها مأجل وفساق لخزن الماء لا يبعد أن تكون إحداها سويقة ابن مذكور حسبما جاء وصفها في نزهة الأنظار ومراصد الاطلاع . وسماها صاحب مراصد الاطلاع : (سويقة مكتود) وقال إنها بليدة في أوائل بلاد إفريقية وآخر برقة ، فهو يسميها سويقة مكتود . وسماها غيره سويقة مشكود

وقد استولى عليها ابن غانية ، وقبض على صاحبها ابن مذكور . ويظهر أن هذا كان بعد رجوعه من صحراء برقة ، لأنه سبق أن أبا إسحاق أخا الناصر طارده إليها ومنها رجع .

(١) هذا المكان غير معروف الآن .

(٢) يظهر أنه نقله عن نزهة المشتاق .

(٣) ويسمى هذا المكان الآن « الناليم » وبه أبنية تسمى المسلات ، وجنوبها قصر بودرجين ، وهو قصر قديم مبنى على ربوة وما زالت بقاياها قائمة .

عبد الواحد بن أبي حفص

كنيته أبو محمد ، وهو جد الأمراء الحفصيين ، وأول أمير منهم عين من قبل الموحيدين ، ولاه الناصر بن المنصور الموحدى على إفريقية في العاشر من شوال سنة ٦٠٣ .

وعاد ابن غانية من صحراء برقة لمحاربة الموحيدين في إفريقية . . . وكان كثيراً ما يتمثل بالبيت الذي قيل في الحجاج بن يوسف :

وقد كان العراق له اضطراباً فتقف أمره بأخى ثقيف

ولما بلغ طرابلس اجتمع عليه العرب من بني هلال وبني سليم ، وكان فيهم محمد بن مسعود شيخ الدواودة وقومه من رباح ، فخرج إليه عبد الواحد ابن أبي حفص . ومعه بنو عوف من بني سليم ، وهم مرداس وعلاق ، وكان ذلك سنة ٦٠٤ فلقبهم بشبرو^(١) ، وكانت معركة حامية الوطيس ، أسفرت عن هزيمة يحيى بن غانية وأنصاره ، وفر مجروحاً إلى « أقصامبرة »^(٢) بجبهة طرابلس .

ولم يلبث ابن غانية أن جمع أنصاره من المثلثين ، وانضم إليه كثير من العرب ، وكان الدواودة من أشد العرب تحمساً لنصرتة ، وجعل العرب نساءهم في المقدمة ، وتحالفوا معه على دخول إفريقية . . . وفي سنة ٦٠٦ خرج إليهم عبد الواحد الحفصي والتقى به في جبل نفوسة . . . وكان المقصود من وضع نساء العرب في المقدمة الاستماتة في الدفاع عنهن ، فلم يصمدوا لجيوش عبد الواحد وذهبت ريح العرب وسبيت نساؤهم ، ومات في المعركة خلق كثير من زناته ، والمثلثين والعرب ، وكان من بين القتلى ابن شيخ الدواودة ، وابن عمه حركات .

(١) ذكر بلفظ أشير ، أو شير ، وهو غير معروف

(٢) هذا الاسم غير معروف ، ويظهر أنه محرف

وفى هذه المدة كان قراقش يقيم بودّان ، وكان بينه وبين يحيى بن غانية
 عداوة تقدم ذكر أسبابها ، فخاف يحيى أن يأتيه من الخلف ، فذهب إليه
 مع جماعة من العرب الذبايين — وكان بينهم وبين قراقش عداوة — فحاصروه
 فى ودان إلى أن فى ما عنده من القوت ، ثم استسلم ، وطلب من العرب أن
 يقتلوه قبل ولده — وكان شديد المحبة له — فلما أخرجوه هو وولده ، قال له
 ولده : يا أبت إلى أين يذهبون بنا ؟ فقال له : إلى حيث ذهبنا بآبائهم . ثم
 قتلوه وقتلوا ابنه بعده . وصلبه الميورقى بظاهر ودان سنة ٦٠٩ .
 وترك قراقش ولداً ، وكان شجاعاً كريماً ، وألحقه المستنصر بأجناده فى
 تونس ، فحدثته نفسه بالثورة ، وأن ينسج على منوال والده ، ويطالب بثأره .
 فلحق بودان ، وأشعلها ناراً ، فأرسل إليه حاكم كانم من قتله ، وحمل رأسه
 إليه ، وأراح الناس من شره ، وكان ذلك سنة ٦٥٦ .
 وتوفى الناصر سنة ٦١٠ .

يوسف المستنصر

تولى بعد وفاة الناصر . . . وبقى ابن غانية ينتهز الفرصة للإغارة على أطراف
 إفريقية بعد أن خلا له الجو من قراقش . وبقى عبد الواحد فى أيامه عاملاً على
 إفريقية إلى أن توفى بتونس غرة المحرم سنة ٦١٨ .

السيد إدريس بن يوسف

هو السيد إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين ، وكنيته أبو العلاء . . .
 تولى إفريقية سنة ٦١٨ ، وكانت له مع الميورقى وقائع هزم فيها الميورقى . . .
 وتوفى السيد إدريس فى شعبان سنة ٦٢٠ .

عبد الله بن عبد الواحد

كنيته أبو محمد ، ولقبه « عبّو » . ولى إفريقية بعد وفاة السيد إدريس .
وفى أوائل سنة ٦٢١ ثار يحيى بن غانية بظاهر تونس ، فأرسل إليه أبا زيد
فهمزه . واعتقل عبو فى ١٤ من رجب سنة ٦٢٥ ، وهو آخر أمراء بنى عبدالمؤمن
على إفريقية .

الدولة الحفصية

أسسها يحيى بن عبد الواحد فى ٢٦ من رجب سنة ٦٢٥ ، ودام ملكها
إلى اليوم السادس من جمادى الاولى سنة ٩٨١ . ومدة ملكها ٣٥٥ سنة ، وأحد عشر
شهرًا . وهى فرع من دولة الموحدين ينتمى إلى يحيى بن عمر الهنتاتى . وهنتاتة قبيلة
بربرية تلتحق بالمصامدة التى هى من أكبر قبائل البربر بالمغرب الأقصى .

يحيى بن عبد الواحد

كنيته أبو زكرياء^(١) . وهو مؤسس الدولة الحفصية وأول أمراءها^(٢) ولى
إفريقية عاملاً من قبل الموحدين يوم الأربعاء ٢٦ من رجب سنة ٦٢٥ . ولكنه
ما لبث أن أعلن استقلاله عليهم سنة ٦٢٦ ، وهو من كبار الأمراء الذين
أنجبهم إفريقية . وغنى بمحاربة يحيى بن غانية ، واشتد فى مطاردته ،
ولم يمهله ينزل بمكان حتى ينتقض عليه ، وما زال به حتى فرق شمله ، ومات
شريدًا مطروداً فى برية تلمسان سنة ٦٣١^(٣) . وكانت مدته من خروجه من

(١) كان للأمير أبى زكريا أخ اسمه محمد ويعرف باللحيانى لطول لحيته .

(٢) أما ولاية والده عبد الرحمن ، وأخيه عبو ، والسيد إدريس فكانت من قبل الموحدين ،
ويعدون من أمراء دولة الموحدين .

(٣) وقيل فى أواخر شوال سنة ٦٣٣ (نزهة) .

مسيورة إلى أن مات ثلاثاً وخمسين سنة . وقد طاف بالبلاد الافريقية طولا وعرضاً من سجلماسة إلى حدود مصر ، وقضى من عمره ثلاثاً وخمسين سنة في حروب متواصلة ، بين نصرتارة ، وهزيمة أخرى ، ولم يذق في هذه المدة الطويلة طعم الراحة ، إرضاء لنفسه الكبيرة فيما تتوق إليه من المجد وحسن الأحداث وأبهة الملك .

وبموته انقرض أمر المثلثين من إفريقية والمغرب والأندلس . وانقطع ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره ، وقد غنى أثره ولم يعرف له قبر . وترك يحيى بن غانية ثلاث بنات ، وأوصى بهن إلى الأمير يحيى بن عبد الواحد ، وترك خادماً اسمه جابر ، فأوصلهن إلى عبد الواحد وأبلغه وصية سيده إليه ببناته ، فنقبلهن قبولا حسناً ، وأحسن كفالتهم ، وبني لهن قصرًا . بجواره بقين فيه حتى متن عوانس ، ولم يتزوجن ، وما زال يعرف بقصر البنات . قال ابن خلدون : أخبرني والدي أنه أدرك واحدة منهن في العشر الأول من المائة الثامنة تناهز التسعين ، ولقيها ، وكانت من أشرف النساء وأسراهن خلقاً .

يعقوب بن أبي يعقوب الهرغى

كنيته أبو عبد الرحمن . كان والياً على طرابلس من قبل الأمير أبي زكريا . واشتهر بالشجاعة . وقد سولت له نفسه أن يستقل بطرابلس . وعلم أعيان طرابلس بذلك فتشاوروا في الأمر ، فاتفقوا على القبض عليه . وفي الليلة التي يريد أن ينفذ في صبيحتها ما بيته قبضوا عليه هو وأخيه ، واستشاروا في أمره أبا زكريا فأمرهم بقتلهم فقتلوا جميعاً ، وصلبت جثثهم على باب هواة ، وأرسلت رؤوسهم إلى تونس .

وتوفي الأمير يحيى (أبو زكريا) ليلة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ وعمره ٤٩ سنة . ودامت ولايته ٢٢ سنة .

محمد بن عيسى الهنتاتي

وفي سنة ٦٤٦ توفي عبد الله بن إبراهيم بن جامع ، وولى بعده على طرابلس محمد بن عيسى الهنتاتي ، وكان يعرف بعنق الفضة ، واستقل بها عن الحفصيين وتوفي سنة ٦٨٤ .

مناسبة :

ننقل ما يلي ملخصاً من رحلة التيجاني^(١) .

كانت زنزور أيام محمد بن عيسى الهنتاتي من أملاك أهل مدينة طرابلس ولما وقعت فتنة الميورقي وطالت مدتها انقطعت الصلة بينها وبين أصحابها بالمدينة ولم ينتفعوا بشيء من غلاتها ، فزهدوا فيها وباعوها لقبيلة من البربر تسمى مجريس وهذا أصل تملك المجريسيين لها .

ومجريس فخذ من قبيلة هواره البربرية سموها باسم أمهم « مجريس » واسم أبيهم « وخيعن » وله زوج أخرى اسمها « تاسا » ينسب إليها التاسيون ، وهم قبيلة من البربر أيضاً ، فمجريس والتاسيون إخوة لأب .

وكانت لمجريس قوة ومنعة ، وكان بينهم وبين العرب نزاع دائم . ولما ظهر مرغم بن صابر شيخ الجوارى ، وأصبح صاحب النفوذ في هذه المنطقة استبد بهم ، واستعبدهم حتى كاد يفنيهم ، وأصبحت السيطرة في هذه المنطقة للعرب . وقد طلب مرغم بن صابر من السلطان أن يعطيه قرية زنزور ، وأن

(١) هو عبد الله بن محمد التيجاني رئيس كتبة الأمير زكريا اللحياني ، ورفيقه في أسفاره . ويكنى رحلته فخراً أنها أصل من الأصول التي اعتمد عليها ابن خلدون في كتابه تاريخه . وهي من أحسن ما ألف في الرحلات الإفريقية . توفي في حدود سنة ٧٢٥ .

يكتب له بها ظهيراً « حجة » فأعطاها له وكتب له بذلك حجة . . . ويقول التيجاني : فأخبرني صاحبنا الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد السلام التاجوري : لما وصل مرغم بن صابر إلى طرابلس أراني الظهير « الحجة » ، وسألني هل هو صحيح ؟ ، فقلت إنه صحيح ، وهو بالعلامة الجارية . قال فحينئذ أيقن بتملكها ، ولم يكن يصدق بذلك .

وقد تقاسمهم المراغمة من الجوارى كل على حسب رتبته ، واتخذوهم خدماً لهم ، وكانوا يتبايعونهم ، فيباع الواحد من مجريس بأرضه ونسائه وأولاده بما يتفق عليه البائع والمشتري ، ويكون المجريسي وأولاده خدماً في أرضهم يزرعونها ويعطون الغلة للذي اشتراهم ، وهو ينفق عليهم كما ينفق على الخدم ، وإذا لم ينصحوا في العمل باعهم لغيره بأرضهم ، وهكذا دواليك .

ويقول التيجاني : إنه كان يزور جامع يقال إن عمرو بن العاص هو الذي بناه ، واقتطع من الجامع موضع دفنت فيه أم سالم بن مرغم وكثير من ولده . ويجوار الجامع قصر خرب يقال له القصر القديم ، ويقال إنه أول قصر بنى بزور . وأهل البلد يحترمون بقايا هذا القصر ، ويتفعلون بوجوده ، ويعتقدون أن بقاء بلادهم مربوط ببقاء هذا القصر ، ويجتمعون تحت بقايا حوائطه اه .

محمد بن يحيى

هو ابن عبد الواحد ، ولقبه المستنصر بالله . بويغ له بعد وفاة أبيه آخر جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ . وهو ثاني الأهرار الحفصيين . وفي أيامه انقرضت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاء التتري . . وقد رأى أمراء مكة وأشرف الحرمين الشريفين أنه لم يبق في البلاد العربية من هو أكبر منه شأنًا ، ولا أقدر منه على جمع كلمة المسلمين ، فأرسلوا إليه البيعة بالخلافة سنة ٦٥٧ فنودى به خليفة توفي ليلة الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٦٧٥ . وعمره خمسون سنة . وولايته ٢٨ عاماً ، وخمسة أشهر ، و ٢١ يوماً .

يحيى بن محمد بن يحيى

لقبه الواقى . ولى بعد وفاة أبيه ، وخلع سنة ٦٧٧ . وقتل فى صفر سنة ٦٧٩ .

إبراهيم بن أبى زكريا

كنيته أبو إسحاق . بوىع له خارج تونس بعد خلع ابن أخيه يحيى بن محمد . ودخل تونس سنة ٦٧٨ . وقتل ببجاية فى آخر ربيع الأول سنة ٦٨٢ أو ٦٨٣ .

أحمد بن مرزوق المسيلى

كنيته أبو عمارة ، ولقبه «الدعى» وكان حامل الذكر لا يؤبه به . وكان أمره محل عجب ، حتى قال فيه بن الخطيب الأندلسى :
 غريبة من لعب الليالى ما خطرت لعاقل ببال
 نشأ ببجاية ، وكان يحترف الخياطة ، ومعموراً فى السوق من الناس لاشأن له ولد بسلجلماسة سنة ٦٤٢ ، وكانت تحدثه نفسه بالملك ، فترك بجاية وحرفة الخياطة والتحق بصحراء سلجلماسة ، وانتسب إلى أهل البيت وشرع يعمل لما كانت تحدثه به نفسه ، وادعى عند أعمار الناس وسوقتهم أنه المهدي المنتظر . واستعمل كل ما أمكنه من أنواع الشعوذة لاستمالتهم . ولما لم تنطل حيله عليهم ذهب يتقلب فى الأرض حتى وصل طرابلس ، ونزل على عرب ذباب من بنى سليم ، وما زال يحاورهم بشعوذته حتى بايعوه على النصرة . فأعلن عصيانه لإبراهيم بن أبى زكريا وثورته عليه . وقام بأمره فى طرابلس أمير ذباب . وأغار على طرابلس . . . وكان الحاكم عليها محمد بن عيسى الهنتاقى .

فدافع دونها ولم يتمكن ابن مرزوق من دخولها ، فتركها ، وعاث في ضواحيها ، وجبى الأموال من زنور ولماية ، وأغرم نفوسة وغريان ، وهوارة أموالاً كثيرة . وقد ترك طرابلس محاصرة وذهب إلى قابس فيمن معه من جموع العرب ، فبايعه حاكمها عبد الملك بن مكى سنة ٦٨١ ، وانضم إليه الكعوب من بنى سليم ، وجاءته البيعة من جربة ، والحامّة ، ونفزاوة . وزحف إلى توزر ، وقفصة ، فاستسلم أهلها له . . . ولما استفحل أمره جهز له أبو إسحاق جيشاً من تونس بقيادة ابنه أبي فارس . وقبل أن يلتقى أبو فارس بالدعى انتفض عليه الجيش ، فرجع إلى تونس ، وتقدم الدعى إلى القيروان فاحتلها وبايعه أهلها . وبايعه أهل المهدية وصفاقس وسوسة ، واضطرب أمر تونس ، وغادرها أبو إسحاق إلى بجاية في شوال سنة ٦٨١ ، واستولى أبو عمارة على تونس ، وتنازل أبو إسحاق عن الحكم لابنه أبي فارس . . . وجمع أبو فارس لملاقة أبي عمارة فرحف إليه أبو عمارة من تونس في صفر سنة ٦٨٢ ، والتقى الجمعان ثالث ربيع الأول من هذه السنة ، وأسفرت الحرب عن قتل أبي فارس وانهب معسكره ، وقتل إخوته وبعث برؤوسهم إلى تونس . وساعت سيرة الدعى وكثر ظلمه وجوره ، وقد بنى أمره على التجبر والقتل . وكان ممن نجا من معسكر أبي فارس الأمير عمر بن أبي زكريا ، فتسامع به الناس والتفوا حوله ، وثاروا على الدعى أبي عمارة سنة ٦٨٣ وتخلوا عنه ، ودخل الأمير عمر تونس .

عمر بن أبي زكريا

كنيته أبو حفص . دخل تونس سنة ٦٨٣ على أثر انهيار حكم الدعى وتخلّى الناس عنه . وبويع له بالإمارة . . . واختفى الدعى خوفاً من القتل . وعثر عليه بعد ليال من دخول أبي حفص تونس في دار بعض السوق ، فهدمت الدار وأخذ إلى الأمير عمر ، فأهين أمام الناس ، وعذب في غير رحمة ، ثم قتل في جمادى الأولى سنة ٦٨٣ ، وطيف بشلوه في شوارع المدينة تشهيراً به ، ثم قطع رأسه

وعلق أمام الناس ، وذهب غير مأسوف عليه ، وأرسل محمد بن عيسى الهنتاتي بطاعته من طرابلس إلى الأمير عمر ، ودخلت طرابلس في حكمه . . . وتوفي الأمير عمر آخر ذى الحجة سنة ٦٩٤ وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة ولايته إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر .

يوسف بن طاهر اليربوعي

وفي سنة ٦٨٤ ولى طرابلس يوسف بن طاهر اليربوعي عقب وفاة محمد ابن عيسى الهنتاتي واستبد بطرابلس عن الحفصيين . . . واضطرب أمر إفريقية وكثرت فيها الثورات .

محمد بن الواثق^(١)

لقبه أبو عصيدة ، وهو ابن جارية . ولما قتل والده الواثق كانت أمه حاملاً به ، ففرت إلى بيت أبي محمد المرجاني - وكان رجلاً صالحاً - ولما ولدته سماه محمداً ، وعق عليه ، وأطعم الفقراء عصيدة القمح ، وبذلك قيل له أبو عصيدة . بويع بالإمارة في ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٩٤ ولقب المستنصر بالله . . . وتوفي يوم ١٠ من ربيع الآخر سنة ٧٠٩ ، وكانت ولايته ١٤ سنة ، وثلاثة أشهر ، و ١٧ يوماً .

نقل صاحب نزهة الأنظار ما ملخصه :

« الوزير جعفر المنصوري : وزير الأمير أبي حفص عمر أمير طرابلس . أخذ الوزير أموال الأمير وهرب إلى صفاقس ، واحتتمى بزاوية سيدي على أبي الحسن بصفاقس فأرسل الأمير في طلبه نحو ثلاثين فارساً ، فعثروا عليه

(١) تقدم أن الواثق لقب ليحيى بن محمد بن يحيى ، وقتل في صفر سنة ٦٧٩ .

بالزاوية ، وأبوا إلا أخذه ولو بالقوة ، وحاول الشيخ إقناعهم بتركه فأبوا . وأرادوا اقتحام حرم الزاوية للقبض عليه فغضب الشيخ ودعا عليهم ، فأصيبوا بشيء أخافهم ، فرجعوا هاربين إلى طرابلس .
 وذكر أن ما نقله منقول عن ثبت مدون في أوراق بخط محمد بن محمد الرقيق بتاريخ أواسط صفر سنة ٧٠٥ .
 ولم نعر في أمراء طرابلس عن اسمه أبو حفص عمر ويوجد في أمراء تونس عمر بن أبي زكريا ، وكنيته أبو حفص . وفي أيامه كان الوالي على طرابلس محمد بن عيسى الهنتاتي .

زكريا بن أحمد اللحياني^(١)

كنيته أبو يحيى . قدم طرابلس أيام أبي عصيدة فأقام بها من منتصف سنة ٧٠٧ إلى أواخر سنة ٧٠٨ . ومرو عليه ركب الحاج فساfer معه ، وسيأتي خبر رجوعه .

أبو بكر الشهيد

هو أبو بكر بن أبي الخطاب عبد الرحمن بن أبي بكر . ولقبه الشهيد بوبع بالإمارة بعد وفاة أبي عصيدة ، وقتل في ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٧٠٩ ودامت ولايته ١٧ يوماً .

(١) كان جداهم محمد أخو الأمير أبي زكريا ذا الحية كبيرة فلقب اللحياني ، وتوارث عنه هذا اللقب أبناؤه وأحفاده ، وهو الذي كان بصحبته الأستاذ التيجاني صاحب الرحلة .

خالد بن ابى زكريا

كنيته أبو البقاء . بويغ بالإمارة يوم قتل أبى بكر الشهيد ، وكان ضعيف
الرأى لا حزم عنده . ثار عليه أخوه أبو بكر .

زكريا بن أحمد اللحياني

تقدم أن كنيته أبو يحيى ، وأنه سافر من طرابلس إلى الحج أواخر سنة ٧٠٨
وقد عاد من الحج فى أوائل سنة ٧٠٩ . وكانت عودته أيام خالد بن أبى زكريا .
ولما وصل طرابلس وجد إفريقية مضطربة لضعف أبى البقاء عن ضبطها
وإدارة أمورها ، فدعا لنفسه فى طرابلس . وانضم إليه الكعوب : أولاد أبى الليل
من بنى سليم وبايغوه بالإمارة . . . وكان أبو بكر أخو أبى البقاء ثائراً عليه ،
فكاتب اللحياني بطرابلس ، وأرسل إليه بعض الهدايا فوعده بالمناصرة على أخيه .
وأرسل اللحياني أولاد أبى الليل مع أبى عبد الله محمد المزدورى^(١) إلى تونس ،
لطرده خالد بن أبى زكريا منها ، فدخلوها غرة جمادى الاولى سنة ٧١١ ، ولم يقدر
خالد عن الدفاع عن نفسه ، فأعلن خلع نفسه ، وقتل فى ٨ من جمادى الآخرة
سنة ٧١١ . وكانت ولايته سنتين ، و ١٣ يوماً . وحضر اللحياني إلى تونس ،
وأخذ له المزدورى البيعة العامة بالإمارة فى اليوم الثانى من رجب سنة ٧١١ .

(١) كان المزدورى رئيس حكومة اللحياني . وقد اضطر فى بعض ظروف حياته إلى الخروج
من تونس وسكن قرية وذرف . وهى غربى قابس بنحو مرحلة ، وبها عيون ماء وقصر قديم ، ولمناسبة
وجوده فى هذه القرية قال :

هذى عيون وذرف دع العيون تذرف
بدلت من أرضى بها وا أسفى وا أسفى

أبوبكر بن أبي زكريا

هو أبو بكر ، بن يحيى ، بن إبراهيم ، بن أبي زكريا الأول ، أمير قسنطينة وكنيته أبو يحيى ، ولقبه المتوكل على الله . . . ولد بقسنطينة في شعبان سنة ٦٩٢ وهو أخو خالد أبي البقاء المتقدم ذكره ، وكان ثائراً عليه . وتقدم أنه كاتب اللحياني ووعد اللحياني بنصرته على أخيه خالد . ولما احتل اللحياني تونس اعتبرها أبو بكر عدم وفاء من اللحياني فنار عليه .

وقد رأى اللحياني من نفسه العجز عن القيام بالحرب وإدارة الحكم لكبر سنه فاستعان في أموره ببعض رؤساء العرب ، فلم يزد أمره إلا اضطراباً ، فرأى من الحكمة الرجوع إلى طرابلس ، فجمع من تونس أموالاً كثيرة ، قالوا إنها تربى على عشرين قنطاراً ، وجوالين من حصى الدر والياقوت . وأتاب عنه في تونس محمد بن أبي عمران ، ورجع إلى طرابلس سنة ٧١٧ وبني فيها قصراً عظيماً سماه « الطارمة » وهو يقع تحت السرور القبلى مما يلي البحر ^(١) ، وقد بناه بالجليز والرخام وكان معه محمد بن يعقوب ، وهجرس بن مرغم شيخ الجوارى ، وانضم إليه آل سالم ، وآل سليمان من عرب ذباب ، وكثرت جموعه من العرب . وكانت هناك فتن في الضواحي فتغلب عليها . واستقر في طرابلس . ومدة حكمه بتونس ستة أعوام وثلاثة أشهر ونصف . . . واستمر أبو بكر أمير قسنطينة في ثورته على الحكومة القائمة في تونس . وكان شجاعاً . ووقعت حروب بينه وبين بنى هلال وبنى سليم فتغلب عليهم .

(١) ينسب صاحب المنهل العذب هذا القصر إلى عبد الواحد اللحياني . ويقول انه لما مات والده أبو يحيى في مصر سنة ٧٣٢ رجع إلى المغرب يحاول أسباب الملك . وقدم طرابلس فأوطن بها وبنى بها مقعداً إلى آخره . وستأتى بعض أخباره .

محمد بن زكريا اللحياني

كنيته أبو ضربة . وكان الموحدون من أنصاره . بويغ له بالإمارة من الموحدين والعرب بعد فرار والده إلى طرابلس في منتصف شعبان سنة ٧١٧ ولقب المنتصر . وفي سنة ٧١٨ ثار عليه أبو بكر أمير قسنطينة كما ثار على والده من قبل فاستنجد بوالده في طرابلس ، فأرسل إليه جيشاً بقيادة وزيره زكريا بن يعقوب وأموالا كثيرة ، ففرق الأموال في العرب استجلاباً لنصرتهم ، فلم يغن عنه شيئاً جيش والده وأمواله . وفشل أبو ضربة في مقاومة أبي بكر ، ففرّ إلى طرابلس مستنجداً بوالده مرة ثانية ، فأمدّه والده بالمال والرجال وجمع جيشاً كبيراً من بني سليم وبني هلال ، والتقى بالأمير أبي بكر في فجج النعام^(١) فانهزم أبو ضربة وجيشه والتجأ إلى المهديّة ، فأدرك فيها وقتل في ربيع الآخر سنة ٧١٨ ودخل أبو بكر تونس في الثامن من هذا الشهر . ودامت إمارة أبي ضربة في تونس تسعة أشهر ونصفاً .

وبلغت أخبار هزيمة أبي ضربة وقتله إلى والده في طرابلس ، فأجر أسطولا وشحن فيه أمواله وأهله ، وهرب إلى مصر سنة ٧١٨ خوفاً أن ينزل به ما نزل بابنه ، ونزل ضيفاً على محمد بن قلاوون سلطان مصر إذ ذاك فأكرم نزله ، وبقي بمصر إلى أن توفي سنة ٧٢٨ .

محمد بن أبي عمران

هو من نسل أبي عمران موسى بن إبراهيم ابن الشيخ أبي حفص ، استخلفه اللحياني على تونس لما خرج منها إلى طرابلس . ولما سافر اللحياني من طرابلس

(١) ويقال له أيضاً فجج القيروان

إلى الإسكندرية أناب عنه محمد بن أبي عمران في طرابلس . . ويظهر أن ابن أبي عمران التحق بطرابلس لما بايع العرب والموحدون أبا ضربة في تونس، أو لما تغلب الأمير أبو بكر على أبي ضربة ، وبقى ابن أبي عمران في طرابلس نائباً عن اللحياني مستقلاً بها عن أمير تونس أبي بكر بن أبي زكريا الذي أخرج أبا ضربة من تونس وقتله .

واجتمع رؤساء العرب الضاربين حول طرابلس ، وفي مقدمتهم حمزة بن أبي الليل ، وأغروه بالهجوم على تونس . وقد استجاب لدعوتهم ، وجمع منهم جيشاً وأغار به على تونس ، فاستولى عليها سنة ٧٢١ ، وأخرج منها أبو بكر ابن أبي زكريا ، وبقى بها إلى أوائل سنة ٧٢٣ . وفي هذه المدة كان أبو بكر يعد نفسه لاستردادها منه . وفي صفر سنة ٧٢٣ تغلب أبو بكر على ابن أبي عمران وأخرجه من تونس واستولى عليها ، فاضطر ابن أبي عمران إلى الرجوع إلى طرابلس ، غير أنه لم يجد من الأهالي الإقبال الذي كان يحده منهم قبل هجومه على تونس وبلغ من تبرمهم به أن ثاروا عليه سنة ٧٢٤ ، وأخرجوه من المدينة ، فلاحق بالعرب خارجها ، وأغار بهم على تونس مراراً ، وفي كل مرة يتركونه وحده ، وقد يئس من انتصاره بهم ، فلاحق بتلمسان ، وكان أبو تاشفين حاكماً عليها فبقى ضيقاً عنده .

بنو ثابت

هم عرب وشاحيون من بني سليم من الأسر الطرابلسية التي تسكن المدينة ، ولهم مكانة بين الطرابلسيين .

وقد استقلوا بحكم طرابلس نحو ٧٩ سنة . وكان لهم فيها أعمال يجدها القارئ فيما سنقصه من أخبارهم .

وأول حاكم منهم على طرابلس هو ثابت بن محمد بن ثابت تولاهما سنة ٧٢٤ وآخر حاكم منهم عليها يحيى بن أبي بكر بن ثابت عزل عن حكمها سنة ٨٠٣ .

ثابت بن محمد بن ثابت

لما أخرج الطرابلسيون محمد بن أبي عمران ولوا عليهم ثابت بن محمد بن ثابت بن عمران سنة ٧٢٤ واستمر والياً إلى أن توفي سنة ٧٣٠ .

الوشاحيون

ويقول ابن خلدون : وفي أوائل المائة الثامنة كثرت مشاغبة المحاميد والحوارى للدولة الحفصية بتونس ، وما زال هذا شأنهم حتى تقلص ظلها عن قابس وطرابلس ، فاستبدوا برياسة الضواحي ، وتولى بنو مكى رياسة قابس ، وبنو ثابت رياسة طرابلس ، وبهذا انقسمت رياسة أولاد وشاح إلى قسمين ، فتولى الحواري طرابلس وضواحيها ، وزنزور ، وغريان . وتولى المحاميد بلاد قابس ، وبلاد نفوسة . ١٥ .

ويلاحظ أنه منذ ظهور زكريا بن أحمد اللحياني قلت الأخبار عن طرابلس مما يدل على أنها بعدت عن تونس ، لأنه كلما كانت طرابلس تابعة لتونس كثر ذكر المؤرخين لأحوالها وتطورات الأمور فيها .

وفي سنة ٧٢٩ قدم وفد بني سليم — أعداء الحفصيين — على أبي تاشفين بتلمسان يستعدونه على الحفصيين ، فأرسل معهم محمد بن أبي عمران لمحاربة الحفصيين بتونس . فجمع ابن أبي عمران جموعاً كثيرة من العرب ، وأغار على الحفصيين بتونس في أواخر سنة ٧٢٩ ، وضيق عليها الحصار . وفي صفر سنة ٧٣٠ استولى عليها ، وأفلت الأمير أبو بكر الحفصي جريحاً وقتل أكثر أتباعه : ثم طرد منها ابن أبي عمران في رجب من هذه السنة .

وتوفى الأمير أبو بكر يوم الأربعاء الثاني من رجب سنة ٧٤٧ ، وعمره ٥٥ سنة إلا شهراً . ومدة ولايته من حين ولى فى المرة الأولى ٢٩ سنة ، وعشرة أشهر ، و ٢٥ يوماً .

محمد بن ثابت

ولى طرابلس بعد وفاة أبيه ثابت سنة ٧٣٠ . وغزا جربة فى أسطول عظيم وحاصرها ، ولقى مشقة فى فتحها . وما زال يشدد عليها الحصار حتى استولى عليها وأصبحت تابعة لطرابلس .

ولما تولى عمر بن أبى بكر على تونس سنة ٧٤٧ أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه الفضل ، وكان البحر الذى يفصلها عن البر قليل العمق ، فخاضه الجيش على أرجلهم حتى وصلوا سور البلد وحاصروه ، فتخلى عنها محمد بن ثابت ورجع إلى طرابلس .

عمر بن أبى بكر

كنيته أبو حفص . بويغ له يوم وفاة أبيه أبى بكر . وكان أبو الحسن عثمان المرينى أمير تلمسان يتوق دائماً إلى الاستيلاء على إفريقية . وفى أيام الأمير عمر أراد أن يحقق هذه الرغبة ، فرحل من تلمسان فى صفر سنة ٧٤٨ . وجمع عليه رؤساء العرب من الكعوب وغيرهم ، وأخذ بيعتهم له ، فقويت بهم شوكته ، وأرسل إليه محمد بن ثابت أمير طرابلس بيعته ، فعظم أمره ، وقصد إلى تونس فى هذا الجيش الجرار . ولما سمع به أميرها عمر ابن أبى بكر وأيقن أنه لا قبل له به فرّ هارباً ، فسمع به عثمان المرينى فأرسل فى إثره من قتله . ودخل تونس فى جمادى الآخرة سنة ٧٤٨ . وأقر عثمان المرينى محمد ابن ثابت على طرابلس ، وبقي بها إلى أن توفى سنة ٧٥٠ . وتوفى المرينى فى ٢٣ من ربيع الآخر سنة ٧٥٢ وبقي فى إفريقية سنتين ونصفاً .

عبد الواحد اللحياني

هو ابن زكريا بن أحمد اللحياني ، وهو أخو أبي ضربة . . . ولما مات والده بمصر سنة ٧٢٨ رجع إلى المغرب ليسعى لاسترداد نفوذهم ، ووصل إلى إفريقية وانضم إليه كثير من العرب ، وعبد الملك بن مكي حاكم قابس ، وهاجم تونس فرد خائباً ، ولحق بأبي تاشفين في تلمسان . فأرسله إلى طرابلس ، ولكن البلاد قد أصيبت بطاعون جارف في هذه السنة فمات به عبد الواحد قبل أن يصل إلى طرابلس .

ثابت بن محمد بن ثابت (الثاني)

تقدم أن محمد بن ثابت توفي سنة ٧٥٠ . وبعد وفاته ولي طرابلس ابنه ثابت من قبل إبراهيم بن أبي بكر الحفصى^(١) ، ولكن ثابتاً ما لبث أن استبد بها عن الحفصيين ، وقطع صلته بهم .

احتلال الجنويين طرابلس

جنوة من البلاد الإيطالية . ولقرب الساحل الإيطالي من طرابلس ، كان الطليان كثيرى التردد على طرابلس للتجارة ، وهى أكبر سوق لتجارهم ، ولهذا كانوا أكثر الناس علماً بأحوالها واطلاعاً على عوراتها ، وكانوا دائمى التربص بها . وكلما آنسوا منها ضعفاً غزوها . وتاريخهم في هذا قديم ، وحوادثهم متكررة منذ الفتح الإسلامى إلى يومنا هذا .

(١) تولى بعد وفاة أخيه الفضل سنة ٧٥١ . وتوفي في رجب سنة ٧٧٠ .

وفي أيام محمد بن ثابت أخذت الأمور تستقر فيها ، ونشطت التجارة ، فأعجبهم حالها ، فبيتوا غزوها وأعدوا لها من الجيش والأسطول ما رأوا فيه الكفاية . وفي العاشر من ربيع الأول سنة ٧٥٥ صبحوها على غرة ، وتسلقوا السور ، وما شعر الأهالي إلا والعدو في الشوارع وعلى أبواب البيوت ، وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع ، وغلبوا على أمرهم ، فملكوا البلاد واستولوا على ما فيها من متاع وأموال ، وأسروا الرجال والنساء ، ونقلوا كل ما استولوا عليه إلى جنوة حتى الأسرى . ولم يتمكن محمد بن ثابت من الدفاع عنها ففر إلى قبيلة الجوارى خارج السور ليحتمي بها ، وديارهم معروفة الآن بجهة النواحي الأربعة جنوبى المدينة . . . والجوارى من ذباب إحدى بطون بنى سليم ، فلم يحموه ، بل قتلوه لدم يطلبونه به . وفر أخوه أبو بكر بن محمد إلى مصر .

بنو مكى

كانوا حكام قابس . وهم من البربر ، ونسبهم فى لواته . وجدهم مكى بن فرح ، بن زيادة الله بن أبى الحسن ، بن محمد ، بن زيادة الله ، بن الحسين اللواتى .

أحمد بن مكى

لما احتل الجنويون طرابلس سنة ٧٥٥ كان أحمد بن مكى حاكم قابس ، فتوسط لديهم فى فدائها ، فشرطوا عليه خمسين ألف مثقال من الذهب العين ، فقبل ، وأرسل إلى السلطان أبى عنان فى تونس يستنهض همته فى دفع المبلغ ، فلم يسرع فى الإجابة ، وألح الجنويون على ابن مكى فى الطلب ، فأخرج ما عنده ، واستوهب أهل قابس والجريد والحاممة فوهبوه ما بقى ، ودفع المبلغ للجنويين وسلموا له طرابلس بعد أن مكثوا فيها حوالى خمسة أشهر . وقد أرسل إليه أبو عنان المال

ليرده على أهله فاعتذر عن أخذه ، وإنها لرجولة منه تمثل الشهامة والنخوة ، وأنبل عاطفة إنسانية .

وكانت قابس تابعة لتونس . فعقد له أبو عنان على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقى أميراً عليها إلى أن توفي سنة ٧٦٦ وتوفي أبو عنان في الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٥٩ ، وعمره ثلاثون سنة ومدة حكمه عشر سنوات .

عبد الرحمن بن أحمد بن مكى

ولى طرابلس بعد وفاة أبيه أحمد بن مكى . وكان عبد الرحمن سيئ التدبير عاجز الرأى مستبدلاً . فكرهه الناس وسئموه حكمه .

أبو بكر بن محمد بن ثابت

تقدم أن محمد بن ثابت فر إلى الجوارى فقتلوه ، وفر أخوه أبو بكر إلى مصر . وفي سنة ٧٧٢ رجع إلى طرابلس بطريق البحر ومعه أسطول فأغار به على طرابلس ، وحاصرها به من جهة البحر ، وأنزل رجاله إلى البر ، واتصل بسكان الضواحي من العرب والبربر ، وألبهم على عبد الرحمن بن أحمد وأصبحت المدينة محاصرة من البحر والبر ، وكان عبد الرحمن مكروهاً من الأهالى لسوء سلوكه وتجبره على الأهالى ، وقد وجدوا فرصة للخلاص منه ، فثاروا عليه ، وفتحوا المدينة لأبى بكر فدخلها ، وقبضوا على عبد الرحمن وسلموه لأحد رؤساء ذباب فأجاره ، وأوصله إلى قابس ، وكان بها عمه عبد الملك بن مكى . وملك أبو بكر طرابلس . وأرسل هدايا كثيرة إلى أمير تونس أحمد بن محمد^(١) وكان فيها كثير

(١) تولى إمارة تونس في ١٨ من ربيع الآخر سنة ٧٧٢ وتوفي يوم الثالث من شعبان سنة ٧٩٦ ومدة إمارته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر ونصف .

من الرقيق وأنواع المتاع وقدم له الطاعة فقبلها وأقره على ولاية طرابلس ولم يزل أبو بكر والياً عليها إلى أن توفي سنة ٧٩٢

على بن عمران بن محمد بن ثابت

ولى طرابلس بعد وفاة عمه أبي بكر بن محمد سنة ٧٩٢ .

ولم يستقر بنو ثابت على حال ، فتارة يتبعون تونس ، وتارة يستقلون بطرابلس . وفي أيام على هذا اضطربت أحوالهم ، وتنازعا فقتلوا وذهبت ریحهم فالتجأ رئيسهم أبو خلف إلى أمير تونس أحمد بن محمد الحفصي يستنجد به وطلب منه المعونة على غزو طرابلس . وإخراج على بن عمران منها ، فاستجاب لطلبه وأرسل معه ابنه عمر سنة ٧٩٤ في جيش ، وهاجموها ، وقد دافع عنها واليها على ابن عمران حتى أيسوا من اقتحامها عليه فلجأوا إلى طريق الحصار وأقاموا عليها سنة يمتنعون عنها الأقوات ويشنون عليها الغارات وقد سُم عمر بن أحمد طول البقاء ، وسُم المحاصرون طول الحصار . وأخيراً اتفقوا مع عمر بن أحمد على أن يدفعوا له غرامة ويرتحل عنهم ، فدفعوا له ما اتفقوا عليه ورحل سنة ٧٩٥ وبقي على ابن عمران والياً على طرابلس .

ولم يسلم على بن عمران من المنافسة على ولاية طرابلس . فقد كان ابنا عمه يحيى وعبد الواحد ينافسانه الولاية ، ويسعيان للاستيلاء على طرابلس . ولما تولى عبد العزيز بن أبي العباس^(١) استنجد به يحيى وعبد الواحد على ابن عمهما على بن عمران ، فأجاب طلبهما ، وجهز جيشاً ، وسار معهما سنة ٨٠٠ لطرد على

(١) وكنيته أبو فارس ، واشتهر بعزوز . ببيع له بالإمارة سنة ٧٩٦ حارب المفسدين من شيوخ العرب وأجبرهم على الطاعة وثار عليه عمال الجريد فطاردهم إلى درج وغدامس . وامتد ملكه من طرابلس إلى أقصى المغرب وتوفي يوم عيد الأضحى سنة ٨٣٧ ودام حكمه إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام .

ابن عمران من طرابلس وتسليمها لهما . وكان له ما أراد ، فامتلك طرابلس وقبض على واليها على بن عمران .

يحيى بن أبى بكر بن ثابت

ولاه عبد العزيز على طرابلس بعد أن احتلها ، وعقد لأخيه عبد الواحد على الجند ، وأمكنهما من السلطة على طرابلس ورجع إلى تونس . وقد اتضح لعبد العزيز أن يحيى وعبد الواحد لا يمكنهما القيام بحكم طرابلس ، ويظهر أنه أحس منهما ما يهدد نفوذه على طرابلس ، ويمكنهما من الاستقلال بها . ويقال إنه علل ما اتضح له بخوفه من هجوم الفرنجة عليها ، فسار إليها سنة ٨٠٣ وعزل يحيى وعبد الواحد ، وولى عليها من قبله أحد رجاله الذين يثق فيهم^(١) ، وأصبحت طرابلس تابعة له . وانقرض حكم بنى ثابت من طرابلس ، وإمارتهم عليها .

محمد بن عبد العزيز

لقبه المنصور . وفى أوائل سنة ٨٠٣ حاصر عبد العزيز طرابلس . واضطرته شدة المقاومة إلى أن يطيل حصارها . وفى اليوم السادس من رجب من السنة المذكورة تغلب عليها ، ودخلها فاتحاً وعين ابنه المنصور والياً عليها . وتوفى المنصور فى طرابلس سنة ٨٣٣ . ومدة حكمه عشر سنوات ، ونقل جثمانه إلى تونس ، ودفن إلى جوار سيدى محمد بن خلف .

(١) قال فى المنهل العذب اسمه عبد العزيز ، ولم يزل والياً على طرابلس إلى أن توفى سنة ٨٢٣ .

عبد الواحد بن حفص

كنيته أبو محمد . عقد له أبو فارس على طرابلس بعد وفاة ابنه محمد المنصور سنة ٨٣٣ . وكان أبو محمد هذا حازماً في أموره ذا رأى صائب قوى الإرادة .

ولما عرضت عليه الإمارة اشترط لقبولها شروطاً : أولاً : أن يبقى والياً على البلاد ، ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى أعز ما كانت عليه من الغنى والراحة . ثانياً : أن يستقل بالإدارة ، ولا يرد أمره في شيء . ثالثاً : أن يتخذ لنفسه جنداً حسبما يريد . وقد قبلت كل شروطه على رضى من الأمير عبد العزيز . ومنذ أن أسندت إليه أمور طرابلس أخذ يعمل لاستتباب الأمن ، واطمئنان الناس على أموالهم وأرواحهم . وضرب على أيدي الأشقياء من الأعراب العابثين بالأمن وسلك معهم طريق الترغيب تارة ، والترهيب أخرى حتى قضى عليهم وأقام العدل بين الناس فيما ولاه الله منهم . ففلك ناصية الأمور ، ونعمت البلاد في أيامه بالراحة . واتسعت تجارتها ، وكثرت الأموال . وبقي والياً عليها إلى أن توفي سنة ٨٥٨^(١) . ومدة حكمه ٢٥ سنة كانت من أهنأ السنين على البلاد راحة ورغد عيش .

وقد أقره على ولاية طرابلس محمد المنتصر^(٢) بن محمد المنصور ، وعثمان ابن محمد المنصور .

(١) يقول الأستاذ بيرم تولى بعده ابنه ، ولم نعر على اسم هذا الابن ولم يذكره هو

(٢) بويق له بالإمارة بعد وفاة جده عزوز يوم عاشوراء سنة ٨٣٨ وتوفي يوم ١٢ من صفر

أبو بكر بن عثمان

ولاه والده عثمان^(١) بن محمد على طرابلس سنة ٨٥٨ عقب وفاة عبد الواحد ولم يحدث في زمنه ما يكدر صفو البلاد ، لأن عبد الواحد مهّد له السبيل ، وأقام فيها من العدل ما حفظهما من الفتن أيام أبي بكر .
وفي أيامه سنة ٨٦٢ جاء والده عثمان إلى طرابلس ليتفقد أحوالها ورجع إلى تونس .

يحيى بن محمد المسعود

هو حفيد عثمان . وقد توفي والده محمد المسعود في حياة جده عثمان سنة ٨٧٥ فأوصى له جده بالإمارة بعد وفاته ، وأسندت إليه في أواخر رمضان سنة ٨٩٣^(٢) وكان عمه أبو بكر والياً على طرابلس فأقره على ولايتها . ولكن أبا بكر لم تسترح نفسه لإسناد الإمارة لابن أخيه ، ويرى أنه أولى بها منه ، وأن في تخطى والده له وإسنادها لابن أخيه غمطاً لحقه وحطاً من كرامته . فشق على ابن أخيه عصا الطاعة ، وحاول أن يستقل عليه بطرابلس ، وطلب من أهلها أن يؤيدوه ، ويبايعوه بولايتها مستقلاً بها عن تونس . ولكن أهل طرابلس لم يوافقوه .

(١) بويح لعثمان بعد وفاة أخيه محمد المنتصر يوم ١٣ من صفر سنة ٨٣٩ . وفي أيامه سنة ٨٤١ توفي أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن حلولو الزليطني . ولّى قضاء طرابلس ورجع إلى تونس وهو شارح جمع الجوامع . ومختصر خليل وتنقيح القرافي . وإشارات الباجي . وعقيدة الرسالة . وتوفي عثمان سنة ٨٩٣

(٢) توفي يحيى بالطاعون في ٩ من شعبان سنة ٨٩٩ ، ومدة إمارته ست سنين إلا أربعين يوماً .

ثورة بني غراب

ثار بنو غراب على أبي بكر ، وناصره بعض السكان ، ووقعت حرب بين الفريقين انتهت بالقبض على أبي بكر وإرساله لابن أخيه في تونس فسجنه أياماً ثم قتله . وبقيت طرابلس تعاني شر الانقسام والتحزب . وقد قام من بينهم رجل يقال له منصور فسعى بين الفريقين بالخير فاستمعوا لنصائحه ، فهدأت الفتنة . وقد جازاه الطرابلسيون خير جزاء فاختروه حاكماً للمدينة عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر . وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور^(١) حاكماً على المدينة ، فجاءته البيعة من غريان ، وترهونة ، ومسلاتة وبني وليد^(١) . وما لبث الشيخ منصور أن تغيرت حاله ، وأصبح جباراً ظالماً فقتله أحد أقاربه حوالى سنة ٨٧٦ هـ . وخلفه في الحكم رجل يقال له يوسف^(١) ، ومات بالطاعون سنة ٨٨٥ هـ . وخلفه في الحكم مامى^(١) وبقي في الحكم نحو اثنتى عشرة سنة ، وتوفى سنة ٨٩٨ هـ . . واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف^(١) فولوه حاكماً عليهم ، وكان رجلاً يميل إلى العبادة والزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط . وقد تغلبت عليه هذه الناحية الروحية ، فلم يكن عنده اهتمام بتحصين البلاد ، وتقوية أبراجها وأسوارها ، ولا بإعداد الجند الكافي للدفاع عنها ، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء .

ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد . وقد دام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو ١٨ سنة استطاع فيها السكان أن يضيفوا إلى ثروتهم ما فقد منها أيام ثورة بني غراب .

(١) تعيين هذه الأسماء منقول عن رسالة الأستاذ عمر الباروني .

ويمكننا القول بأن طرابلس — منذ أن تولاهما عبد الواحد بن حفص سنة ٨٣٣ — إلى أن احتلها الأسبان سنة ٩١٦ — كانت في رخاء مستمر وأمن شامل ، وأمكنها في هذه المدة — وهي لا تقل عن ٨٣ سنة — أن تجمع ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي ، وذهب أهلها في متع الحياة مذاهب شتى أدت بهم إلى أن أفسد الترف عزائمهم ، وانصرفوا إلى ملذاتهم عن كل شيء يذكر فيهم روح الشهامة ، ويحملهم على اتخاذ الأسباب لتحسين بلادهم ، والدفاع عن حريمهم ، وعن هذه الثروة الهائلة التي شاع ذكرها في جميع البلاد الأوربية ، والتي كانت سبباً في تكالب الفرنجة على استعبادهم .

احتلال الأسبان لطرابلس

بعد أن سقطت الأندلس في أيدي الأسبان ازدادوا حمية ورغبة في مطاردة العرب للتشكيل بهم والقضاء على الدين الإسلامي ومطاردة معتنقيه أينما وجدوا . وانضم إلى هذه الحركة أنصار البابوية في روما ، وشاركت فيها كل الطوائف النصرانية ، إلا أن الكاثوليك كانوا في المقدمة . وعلى جهودهم تقوم حركة مطاردة الإسلام ومعتنقيه . وكان أكبر ميدان لهذه الحركة هو الشمال الإفريقي بعد الأندلس لقربه من بلاد الأندلس وهي زعيمة هذه الحركة ، ومن جنوب أوربا الذي يناصرها سكانه ، وهو يعتبر مهد الكاثوليكية ومنبعها .

ولم يكن يجرؤ أحد من الأوربيين على مزاحمة الأسبان في زعامة هذه الحركة ، لأن بيئتهم تأثرت بحضارة العرب ، ونفوسهم تشبعت بعلومهم وآدابهم ، واقتبسوا عنهم خطط الحرب وخدعها ، وكيف ينال النصر وتتقن الهزيمة ، فكانوا في مقدمة الأوربيين الذين استضاءوا بنور الحضارة الأندلسية ، وأيضاً فهم الذين طردوا العرب من الأندلس ، لهذا وذاك كان الأسبان أولى بزعامة الحركة التي تهدف إلى إبادة العرب والقضاء على الإسلام .

وابتدأت الحركة باحتلال الجزائر . ففي ٢٢ من ذى القعدة سنة ٨١٤ احتل الكونت بدرو نافارو وهران عاصمة الجزائر . . . وفي ٥ من رمضان سنة ٩١٥ احتل بجاية .

وازداد تكالب الأسبان على احتلال الساحل الإفريقي تكالبا شجعهم عليه ضعف الدولة الحفصية ، وما أحرزوه من نصر في احتلال وهران ، وبجاية . وكانت رغبة الانتقام من المسلمين والعرب على الأخص تدفعهم دفعا ، وتبدو واضحة في أعمالهم الهمجية التي يرتكبونها في كل بلد تمكنوا من احتلاله وأوقعه سوء حظه تحت سيطرتهم . . . فما كانوا يوقرون شيخا ، ولا يرحمون ضعيفا ولا يترفعون عن قتل الأطفال ، وبقر بطون الحوامل ، وهتك الحرمات ، وأعمال السلب والنهب .

وفي أثناء ما كان الأسبان يحتلون الشمال الإفريقي كانت الدولة العثمانية ظهرت إلى الوجود ، وتركزت في الآستانة ، وكانت دولة مسلمة يهيمها من أمر الإسلام ما يهيم كل مسلم يحترم دينه ، وكان لحوادث الأندلس وقع سيئ على نفس هذه الدولة الفتية ، وامتد نفوذها إلى شرق البحر المتوسط .

ولم يهمل الأسبان من حسابهم هذه الدولة الناشئة التي تدين بالإسلام الذي جردوا للقضاء عليه كل ما يملكون من نفس ونفيس . وقد أصبح لها أسطول ، ونفوذ في البحر المتوسط . وأيقنوا أنهم إذا لم يتقوا هذا الخطر بما يحول بينهم وبينه ، أو بما يحد من نشاطه أدركهم لا محالة ، وقضى على مشروعاتهم العدوانية ضد الإسلام .

وكانت طرابلس أقوى مركز يتخذ لمواجهة الخطر العثماني في البحر المتوسط لأنها أكبر مدينة في شرق الشمال الإفريقي ، وأقوى نقطة للدفاع عنه من الهجوم عليه من الشرق ، وأقرب نقطة لتموين ونجدة الجيوش التي تغزو الشرق . وقد كانت طرابلس في السنين الأربعين التي تقدمت احتلال الأسبان امتازت بنصيب وافر من الثروة ورفاهة العيش . فكان مركزها الجغرافي والطمع في

الاستيلاء على ثروتها يدفعان إلى التعجيل باحتلالها . وفى السيطرة على ثروتها فائدة أخرى ، وهى أنها لا ينتفع بها فى إنشاء الجيوش والأساطيل وتقوية القلاع التى قد تحول بينهم وبين احتلالها وحينئذ يصبح مركز مالطة بل وكل الشمال الإفريقى فى خطر .

ومن أقوى الأسباب التى هيات للأسبان احتلال طرابلس هو ضعف الحماية فيها ، وانصراف الناس إلى تنمية المال ، وإلى متع الحياة عن الاهتمام بتقوية الجيش وتحصين القلاع .

ومن المناسبات التى انتهزها الأسبان للتعجيل باحتلال طرابلس أنه فى سنة ٩١٦ - وهى سنة الاحتلال - وقع خلاف بين أحمد الحفصى وبين والده الناصر ، فذهب إلى الأسبان يستنجد بهم على أبيه ، واتفق أن جاء تجار من الأسبان كانوا فى طرابلس ، فأخذوا يغرون حكومتهم بطرابلس ويقللون من شأنها ، ويصفون لها ما فيها من الثروة الهائلة ، وما فيه أهلها من التعم الذى أدى إلى انحلال رجولتهم ، وتركهم كل ما يستعمل فى الحرب حتى المدى ، وقالوا لها : ما رأينا بلداً أكثر منها مالا ، وأقل سلاحاً ، وأعجز عن مدافعة العدو ، فكان هذا الوصف مشجعاً للأسبان على التعجيل باحتلالها .

وهذا وصف للحملة الأسبانية مختصر من رسالة : « الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس » للأستاذ عمر محمد البارونى .

وكان الأسبان قد استعدوا لغزو طرابلس ، فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية ، وانضم إليها سفن أخرى من مالطة ، وشحنت بخمسة عشر ألف جندى من الأسبان ، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين . وفى ٨ من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ . أفلح الأسطول من فافينيانا ، ومر بجزيرة قوزو بمالطة فتزود منها بالماء . وانضم إلى الجيش خبير مالطى اسمه جوليانو بيلا له معرفة بطرابلس . وقد أعدت هذه الحملة بإشراف نائب الملك فى صقلية . وبإعانة الجيوش الصقلية والإيطالية .

وقد تسربت أخبار هذه الحملة إلى طرابلس قبل حركتها بنحو شهر ، فأخذ الناس في الهجرة منها إلى غريان ، وتاجورة ، ومسلاتة ، وأخذوا معهم كل ما كان مهمماً من أموالهم ، وما أمكنهم من أثقال متاعهم ، ولم يبق بالمدينة إلا المحاربون ، وشيخ المدينة وأهله ، واسمه عبد الله بن شرف وبعض السكان الذين لم يقدروا على الفرار ، وانحازوا إلى قصر الحكومة والجامع الكبير . وصعد المحاربون فوق الأسوار وعلى القلاع .

واقرب الأسطول الأسباني من المدينة ، ورسا على مينائها ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ . الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠ م . وهو اليوم الذى يوافق يوم القديس جاك الرسول ، وهو يوم محترم عند الأسبان . وبات القائد العام الكونت بدر و نافرّو يرتب الجيش ويصدر إليه الأوامر . . . وكلف أربعة آلاف جندي منه بمهاجمة العرب خارج المدينة لقطع الاتصال بينهم وبين من بداخلها ، وكلف باقى الجيش بمهاجمة داخل المدينة ، ومن على الأسوار وداخل القلاع .

وانزلت الجيوش فى القوارب وكانت بقيادة « بييترو نافرّو » . وفى الساعة التاسعة صباحاً ابتدأ الهجوم ، وأطلقت السفن مدافعها على الأسوار وقصر الحكومة . ونزل الجيش المكلف بمنع العرب من الاتصال بالمدينة إلى البر بجهة سيدى الشعاب لمنع الاتصال بالمدينة . . واندفع الجيش الأسباني نحو المدينة تحميه مدافع الأسطول ، فاحتل البرج القائم على باب العرب وبعض الأسوار . وتمكن الأسبان من فتح باب السور ، واتصل الجيش الخارجى بالجيش الداخلى واستبسل الطرابلسيون فى الدفاع . وجاء فى رسالة القائد نافرّو أنه لم يخل موضع قدم فى المدينة من قتيل^(١) ، ويقدر عدد القتلى بخمسة آلاف ، والأسرى بأكثر من ستة آلاف . وتغلب الأسبان على مقاومة العرب العتيقة . واحتل

قصر الحكومة عنوة ، وأسر فيه شيخ المدينة الشيخ عبد الله بن شرف هو وزوجه وأبنائه . وقد حمى وطيس المعركة حينما تمكن حامل العلم الأسباني من نصبه على برج القصر .

وأبدى من التجأوا إلى الجامع الكبير مقاومة شديدة ، فقتل منهم نحو ألفى طرابلسي بين رجال ونساء وأطفال . . . ويقول بعض من نقل عنهم السيد عمر الباروني : إن القتلى من الأسبان كانوا ثلاثمائة رجل . وكان من بين الموتى كولونيل كبير في الجيش ، وأميرال الأسطول ، وشخصية أخرى كبيرة من النبلاء . وقبل أن تغرب شمس يوم ١٨ من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ . سقطت مدينة طرابلس في يد الأسبان . سقطت مدينة طرابلس العربية المسلمة في يد أعداء الإنسانية الأسبان والاطليان ، أعداء الفضيلة والحق . سقطت بعد أن أريق دماء الطرابلسيين في كل بقعة منها ، وعلى كل منفذ وطريق ، وفوق كل قلعة وبرج ، وفي صحن الجامع وعند المحراب — دفاعاً عنها ، وعن عفاف النساء وطهارة المحجبات ، فحينما توجهت تعثرت رجالك في جثث أطفال لم يرث لصراخهم ، وفي أجسام نساء مبقورات البطون مقطوعات الأثداء لم ترع حرمتهم ، وفي أشلاء شيوخ لم تحترم شيخوختهم ، ولكثرة القتلى فقد ألقيت جثثهم في صهاريج الجوامع وفي البحر وأحرق بعضها بالنار . وأخذ شيخ المدينة عبد الله ابن شرف هو وأولاده وحرمة أسرى إلى بلرمو ، وبقوا هناك نحو عشر سنوات كل ذلك من أجل الصليب ، وفي مرضاة الصليب .

هذا موجز ماجاء في رسالة الأستاذ عمر الباروني عن حملة الأسبان على طرابلس ولا شك أن الحامل على التمثيل بالنساء والأطفال هو الانتقام من العرب ، والتعصب ضد الإسلام للقضاء عليه في الشمال الإفريقي وكل حرب اشتملت على مثل هذه الشناعات سماها الأوربيون الحرب المقدسة ، وأن ما ارتكبه الطليان من فظائع في طرابلس لما احتلوها سنة ١٣٢٩ هـ . ١٩١١ م . لهو صورة معادة من هذا الانتقام الصليبي الذي يتقرب به الأوربيون إلى الصليب كلما تمكنوا

من الاستيلاء على بلد عربي أو إسلامي ، ويروونه من صفاتهم الإنسانية الكاملة التي يتباهون بالاتصاف بها ، ويتقربون بها زلفى إلى الصليب .

قصة عجيبة

اقرن هذا الاحتلال بقصة عجيبة ، صيغت في قالب يبدو أنه مغرق في الخيال إلى أبعد حد ، وقد أجمعت كل الكتب التي ألفت بعد هذا الاحتلال على ذكر هذه القصة وما اشتملت عليه من غرابة بدون أن ينتقدها أحد أو يعلق عليها برأى مما يجعل النفس لا تستغرب أن يكون لها ظل من الحقيقة .

ذلك أن طرابلس توالى عليها الفتن في تاريخها القديم ، فما تكاد تنتهى فيها ثورة حتى تقوم أخرى . ودامت على هذه الحال مئات السنين ، وهى مسرح للملاحم السياسية والعسكرية التي كانت تثيرها الخلافات بين الحكام والأمراء وبعض النزعات المذهبية ، وقد استمرت هذه الحال من القرن الثانى الهجرى ما عدا فترات قليلة لا تعد شيئاً في مئات السنين ، حتى أتت هذه الحروب المتواصلة على الرجال والثروة ، وكان لها أسوأ الأثر على تأخر الثقافة العربية فيها ، حتى قال بعض المؤرخين إن طرابلس كانت تعتمد في ثقافتها — خلال هذه المدة — على من يفد عليها من الحجاج وطلاب العلم مغربين ومشرقين ، وعلى من يستصحبهم أمراء إفريقية معهم في طريقهم إلى الحج من أهل العلم والفضل . وكان السكان يعيشون في حياة مضطربة ، توارثها الأبناء عن الآباء ، وورثها الآباء عن الأجداد ، لا أمن على الحياة ، ولا أمل في ادخار رزق أو تنمية مال ، وقد عانت المدينة أكبر قسط من هذا الاضطراب ... وفي سنة ٨٣٣ تولى عليها عبد الواحد بن حفص من قبل أمير تونس عبد العزيز بن حفص

المشهور بعزوز وقد اتصف هذان الرجلان بالخزم والشجاعة ، والعدل وقوة الإرادة . وأطلقت الحرية لعبد الواحد في إصلاح البلاد كيفما شاء بدون معارض فبذل من حزمه وسديد رأيه ما يبذله المخلصون القادرون على الإصلاح . فاستتب الأمن في طرابلس ، وشعر الناس بالطمأنينة ، فاندفعوا بكل قواهم إلى العمل في التجارة ، والزراعة ، والصناعة . ووجدوا من رعاية هذا الرجل المصلح ما أبدل خوفهم أمناً ، وفقرهم غنى . وبقوا في حكم عبد الواحد ٢٥ سنة ذاقوا فيها من ألوان السعادة ما لم ير أجدادهم قريباً منه في مئات السنين الماضية ، وجاء بعد عبد الواحد أبوبكر بن عثمان فبقى معهم ٣٥ سنة لم يحدث فيها ما يكدر الصفو بما مهد له عبد الواحد بعدله وقوة عزيمته مما كان خير عون له على الحكم الصالح .

وفي هذه المدة الطويلة أثرى الطرابلسيون إثراء لا مزيد عليه ، وانغمسوا في الرفاهية ولُهنية العيش ، ولم يقفوا عند حد في إشباع رغباتهم من نعيم الحياة تعويضاً لما فاتهم في تلك السنين القاسية الطويلة .

وقد انتهى بهم هذا الرفه إلى تلك النتيجة التي تنتظر ذوى الرفاهة وهي انحلال العزائم ، وميوعة الرجولة التي جرت سنة الله أن تكون دائماً سبباً في انهيار كل أمة مترفة .

وبما أن طرابلس على صلة دائماً بشواطئ البحر المتوسط الشمالية فقد لفت إليهم ما تأثروا به من ميوعة الترف أنظار أوربا عامة ، والإيطاليين والأسبانيين خاصة فجعلوا يفكرون في احتلال هذا البلد الذي أفسدت الرفاهية رجولة أهله ، وحلت عزائمهم ، فبيتوا الأمر ، وتزعم الأسبان المؤامرة ، وأشركوا معهم النابليين ، والصقليين ، والمالطيين واحتلوا مدينة طرابلس في المحرم سنة ٩١٦ كما ذكرناه آنفاً .

وإلى هنا لا نجد في الأمر غريباً من قوم جربوا بؤس الحياة وويلات الحرب أجيالاً ، ثم لما بسط عليهم العدل جناحه جدوا في كسب الثروة ، وانغمسوا

فى نعيم الحياة حتى وصلوا إلى نتيجة هذا الانغماس ، وهى الانحلال ثم الاستعباد .
ولكن الغريب فى الأمر هو ما ذكره الأستاذ بيرم الخامس^(١) وغيره من
المؤلفين وجعلوه سبباً فى هذا الاحتلال .

لؤلؤة ودلاعة^(٢)

قال الأستاذ بيرم : ولطول ما تقلبت على الطراباسين الأحوال ، وتعاقت
عليهم دول الاحتلال سئمو الحرب ، وصار حمل السلاح عندهم ممقوتاً وأثروا
إثراء عجبياً ومالوا إلى الدعة .

وقد حدث أن جاءت إلى طرابلس سفينتان إسبانيتان محملتان بالبضائع ،
فاشتراهما تاجر واحد ، ودفع ثمنهما نقداً ، فعجب أصحاب السفينتين لذلك ثم
دعاهم آخر للضيافة ، فأقام لهم مائدة فاخرة مما زاد فى إعجابهم . وقد دفع
هذا التاجر غروره بالمال إلى أن أخذ لؤلؤة ثمينة ودقها دقاً ناعماً ، وذرها على
الطعام على مرءأ من الضيوف ، وقال لهم هذا مقام الفلفل ، ثم أحضر (دلاعة)
بطيخة خضراء ، ولكنه لم يجد سكيناً يقطعها بها ، فسألهم سكيناً فلم يجد عندهم ،
فسأل جيرانه فلم يجد ، فذهب إلى السوق واشترى سكيناً . ولما سألوه عن عدم
وجود السكين قال لهم : إن الأهالى كانوا ضجروا من حمل السلاح ليلاً ونهاراً ،
أيام الظلم والعدوان . ولما استقر الأمن والعدل صار حمل السلاح بيننا أمراً معيباً ،
ومن حمله يعرض نفسه للإهانة . فتعجب الأسبان مما رأوا ، وأخبروا دولتهم بذلك
فطمعت فى طرابلس ، واحتلتها سنة ٩١٦ . . . هذا ما ذكره الأستاذ بيرم ،

(١) ذكره فى كتابه : « صفوة الاعتبار » . وذكره الأستاذ محمود مقديش الصفاقسى فى
كتاب « نزهة الأنظار » . وهو من أهل القرن الثانى عشر هـ وتوفى سنة ١٢٢٨ وأما الأستاذ بيرم فقد
ولد سنة ١٢٥٥ . وذكر هذه القصة ابن غلبون ، وهو من أهل القرن الثانى عشر . ورجع من الأزهر
إلى مصر سنة ١١٣٣ هـ . وذكرت فى المنهل العذب .

(٢) الدلاعة كلمة بربرية اسم للبطيخة الخضراء

وذكر قصة أحمد الحفصى التى ذكرناها آنفاً ، والتي لم نطلع عليها لغيره .
فالألولة الثمينة التى دفع الغرور بصاحبها إلى أن سحقها ويذرهما على الطعام
حياً فى الظهور بمظهر الغنى . . . وعدم وجود السكين فى بيوت هؤلاء الأغنياء :
لا لسبب سوى كراهتهم للحرب . هذان الأمران هما محل الغرابة من كثير من
الناس ، والانتقاد من القراء للمؤلفين الذين يسوقون مثل هذه الغريبات ولا يعلقون
عليها بكلمة .

ورأى : أما عن الياقوتة ، فإن الغرور قد يدفع بصاحبه إلى أكثر من هذا
فهو لا يقف بصاحبه عند حد ، وصاحبه لا يفكر فيما وراء ما تحدثه به نفسه .
وأما عن عدم وجود السكين ، فأنا فى شك من هذا الخيال المرتب كما يشك
غيرى . وكراهة اقتناء السلاح الناتجة عن كراهة الحرب لا تنتج عدم وجود
السكين فى البيوت ، لأن السكين ليست من آلات الحرب التى تقابل بها مدافع
الأسبان وبنادقهم وسيوفهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن السكين من
ضروريات البيوت التى لا يمكن الإستغناء عنها . ولا أقل من أن توجد سكين
فى المطبخ لتقطيع البصل وما يحتاج إليه الطعام ، وخصوصاً فى بيوت الأغنياء ،
فن المتعذر على العقل التصديق بصحة هذه الخرافة .

* * *

وابتهجت أوربا بسقوط طرابلس ، وأقام نائب البابا احتفالات الفرح
بسقوط هذه المدينة العربية الإسلامية فى أيدي المسيحيين . كما استاء المسلمون
لهذا الاحتلال ، وقابله الطرابلسيون المقيمون فى الإسكندرية إذ ذاك بعمل عدائى
ضد الأسبان فى الإسكندرية وأحرقوا لهم فندقاً^(١) .

وأرسل القسيس أمريكو دامبواس رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا إلى
فرديناند ملك أسبانيا تهنئة ، ويرجو أن يتابع فتوحاته فى إفريقيا^(١) .

(١) رسالة الأستاذ عمر البارونى

وأراد الكونت بييترو نافارو أن يتخذ من طرابلس قاعدة لغزو الشمال الإفريقي، فأقلع أسطوله يوم ٢٢ من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ. في ١٢ سفينة قاصداً جربة. ولكن فظائع الأسبان في طرابلس سبقت نافارو إلى جربة، فكانت من أشد ما حمل أهلها على الاستماتة في الدفاع، وأيقن الكونت نافارو بهذا العزم فعدل عن الاشتباك في حرب مع جزيرة جربة وأقلع راجعاً إلى طرابلس، في جمادى الأولى من هذه السنة. وجمع قواه مرة ثانية، واستعان بأسطول طليطلة الأسباني، وجيش بجاية، وزحف على جزيرة جربة مرة أخرى في جمادى الأولى سنة ٩١٦ هـ. فهزم فيها شر هزيمة وأقلع عن جربة في ٢٧ منه. ورجع إلى طرابلس يجر أذيال الخيبة بعد أن ترك من جيشه ثلاثة آلاف قتيل، وعدداً كبيراً من الأسرى.

وانتهز الطرابلسيون المعسكرون خارج السور غياب نافارو وأسطوله وانقضوا على المدينة، وتسلقوا السور، ولكنهم لم يوقفوا فرجعوا أدراجهم... ويقول الأستاذ الباروني: إن هذه الكوارث لم تفت في عضد الطرابلسيين بل دأبوا على الدفاع، واستعانوا بإخوانهم في الدواخل، وتألفت مراكز للمقاومة في الجبل الغربي وغريان وتاجورة. ١ هـ

ولم يغفل محمد بن حسن الحفصى إعانة طرابلس فجمع جيشاً كبيراً بقيادة محمد أبى الحداد^(١) قائد توزر، وكان من أكبر قواده، ووصل إلى طرابلس ونزل خارج السور وانضم إلى هذا الجيش المحاربون الطرابلسيون، وهاجموا المدينة في ذى الحجة سنة ٩١٦ هـ. فبراير سنة ١٥١١ ولكنهم لم يظفروا منها بطائل. ويقول صاحب المؤنس^(٢): إنه حصلت مباراة بين أبى الحداد وأحد قواد الأسبان، فاحتضنه أبو الحداد وأخذه أسيراً. ودام حصار أبى الحداد لطرابلس

(١) سماه الأستاذ الباروني محمد أبو شداد.

(٢) تأليف الأستاذ محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى.

سبعة أشهر ، ثم مات أبو الحداد وتفرق جيشه ^(١) .

وكان من الضروري أن يبعث أمير تونس محمد بن الحسن بهذا الجيش لمساعدة الطرابلسيين ، لأنه علم أن الأسبان ينصبون له الشباك ويتآمرون عليه ولو قدر له أن ينجح في طرد الأسبان من طرابلس لكان في هذا نصر له كبير ، وتقوية لمركزه .

العهد الأسباني

كان العهد الأسباني في طرابلس عهد إستبداد وظلم ، وشغلتهم جباية الأموال وفرض الضرائب عن القيام بأي إصلاح في البلاد . وشغل الناس بأمر الأسبان عن أعمالهم ، ومتابعة نشاطهم في الزراعة والصناعة والتجارة فعم الخراب والفقر البلاد والعباد . وكانت الحرب سجلاً بينهم وبين الطرابلسيين فلا العرب أمكنهم أن يفتحوا المدينة على الأسبان ، ولا الأسبان أمكنهم أن يجلبوا العرب عن تاجورة . وقد طال المقام بالأسبان على هذا الوضع المائع . وإذا استثنينا بعض الإصلاحات التي أحدثوها في قصر الحكومة وبعض الأسوار زيادة في تقوية الحصون سنة ٩٢٤ هـ - ١٥١٨ م . أمكننا أن نؤكد أنهم لم يقوموا بأي إصلاح في البلاد ، بل أفسحوا الطريق للخراب يبعث بجميع أنواع النشاط المادي والأدبي . وكان الحصار المضروب حول أسوار المدينة من الطرابلسيين ، وفداحة الضرائب ^(٢) التي فرضوها على التجارة الواردة إليها من البحر من أكبر العوامل التي جعلت سكان المدينة في فقر مدقع ، وجعلت أسواقها في كساد مستمر ، وتجارتها في بوار ، فانصرف عنها الموردون إلى غيرها من موانئ البحر الأبيض ، وانقطع منها المصدرون لفناء الثروة وانقطاع العمل .

(١) ذكر في المنهل العذب اسماً آخر غير أبي الحداد ، وذكر لموته قصة الله أعلم بصحتها مع ما فيها من عدم ارتباط الحوادث .

(٢) يقول الأستاذ الباروني إنها كانت ٥٠ ٪ .

تحول في السياسة الأسبانية

كانت أخبار نشاط الأسطول العثماني في شرق حوض البحر الأبيض قد انتشرت . وامتدت أطماع الترك إلى الناحية الغربية من هذا البحر ، وأسندت قيادة الأسطول التركي إلى رجال ذوى مقدرة وشهامة مثل خير الدين بربروسا وغيره . وكانت روحهم متشعبة بالدفاع عن حوزة الإسلام وكرامة معتنقيه . . . ووصلت بعض قطع الأسطول التركي إلى المياه الطرابلسية سنة ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م فكان لما أبداه من جرعة ، ولما لاقاه الأسبان من عدم النجاح في التغلب على الطرابلسيين رد فعل كبير فيما كان يبيده الأسبان من تحمس لامتلاك طرابلس . يضاف إلى هذا الهزائم الشنيعة التي لاقوها في فتح جزيرتي جربة وقرقة ، فكانت هذه الأسباب مجتمعة ومتفرقة من الأسباب التي حملت ساسة الأسبان على التفكير في تغيير سياستهم نحو طرابلس ، بل ونحو الشمال الأفريقي كله .

وأول بوادر هذا التحول إلحاق طرابلس بصقلية في الإدارة .

ففي سنة ٩١٩ هـ . تنازل ملك أسبانيا عن إدارة طرابلس إلى نائب الملك في صقلية ، وأصبحت مدينة طرابلس تابعة في الإدارة لصقلية . وأرسل نائب الملك إلى طرابلس جوان فرنسيسكو والياً عليها . وشجع نائب الملك بعض الأسر الصقلية على الهجرة إلى طرابلس لتعميرها ، ووعدهم بإعفاءهم من الضرائب ، وإعطائهم بيوتاً يسكنونها ، وأرضاً يزرعونها ، وذلك ليعث فيها روح النشاط التجارى والصناعى الذى فقدته بسبب جلاء السكان عنها وسوء معاملة الأسبان .

وزيادة في الترغيب وعدهم بالعفو عن أصحاب الجرائم منهم . ولما مات الملك فرديناند ملك الأسبان سنة ٩٢٢ هـ خلفه الإمبراطور المقدس شارل الخامس ، وبدا التحول واضحاً في سياسة شارل ، ويظهر أنه اضطر إلى

تغيير سياسته اضطراراً ، لأن الحروب الداخلية التي انتشرت في إيطاليا والخلاف القائم بينه وبين فرانسوا الأول لم يمكناه من مواصلة سياسة خلفه في طرابلس وانتشر اسم خير الدين بارباروسا بين الممالك الأوربية ، وهاجم بأسطوله بجاية سنة ٩٢٠ هـ وأعاد الكرة عليها سنة ٩٢١ هـ وأصبح يهود أسبانيا في كل ممتلكاتها الإفريقية .

وقد ضاق الحال بالأسبان في طرابلس ، وأفلست سياسة العنف التي كانوا يستعملونها في داخل المدينة وخارجها ، ولم يبد من الطرابلسيين أى فتور في الدفاع عن بلادهم ، فعمد الأسبان إلى محاولة جديدة وهى العفو عن الشيخ عبد الله ابن شرف شيخ المدينة السابق ، فأطلقوا سراحه حوالى سنة ٩٢٧ هـ بعد أن قضى في منفاه هو وأسرته نحو عشر سنوات . وحاولوا أن يستغلوا نفوذه في إخضاع الطرابلسيين . . . ويقول الأستاذ البارونى : ورجع على إثر رجوعه خمسمائة عائلة طرابلسية . ولكنه لم يجد في معاملة الأسبان ما يشجعه على البقاء معهم ، ولم يلبث أن فرّ ، والتحق بالمجاهدين في تاجورة . اهـ وقد توقعوا من هروب الشيخ عبد الله أن ينظم صفوف المجاهدين ويذكى روح المقاومة فيهم . وكانوا يحسبون أكبر حساب لهجوم الأسطول التركى ، فصاروا يحسبون أيضاً حساب الشيخ عبد الله والعرب .

وقد حملهم هذا الخوف على إجراء بعض الإصلاحات في القلاع والحصون وقصر الحكومة والميناء . وكانوا في حاجة إلى الحجارة فهدموا بيوت بعض المهاجرين واستعملوا حجارتها في البناء . وكان اهتمامهم بالناحية الجنوبية من السور أكثر لأنهم كانوا يحسبون حساب التل الجنوبى الذى يسمونه الآن الظهرة لأنه مكان مرتفع فإذا وضع عليه مدفع أصبحت المدينة في خطر .

وكل هذه التحصينات لم تهدئ من روع الأسبان ، ولم تبعث في نفوسهم الطمأنينة إلى البقاء في طرابلس . ولذلك ما كادت منظمة فرسان القديس يوحنا تطلب ضمها إليها حتى أجيبتم إلى طلبها .

منظمة فرسان القديس

ابتدأت هذه المنظمة حياتها بالدعوة إلى الخير والتمسك بالدين ، ومدّ يد المساعدة إلى ذوى الحاجة والمعوزين . وقبل الحروب الصليبية كان مقرها القدس . ولما نشبت الحروب الصليبية اتخذت لها مهمة الصليب الأحمر عندنا اليوم ، وظهر تحيزها ضد المسلمين . وما كادت الحرب الصليبية تنتهى حتى طردها صلاح الدين من القدس فلجأت إلى عكا . ثم طردوا منها إلى رودس . وأمكنها أن تقنع ملوك أوروبا بحمايتها فكان لها ما أرادت ، وأسست في رودس حكومة مسيحية تحت حمايتهم . وضمت إليها جزر الدوديكانيز ، وشملها البابا بعطفه لما رآه فيها من التعصب للمسيحية والعمل على إبادة الإسلام والمسلمين ، وقد اتخذت لها من الدعوة إلى الدين وحب الخير شعاراً ما لبث أن تكشف عن حقيقة هي التعصب على الإسلام والمسلمين ، وإثارة الحرب ، وإراقة الدماء ، وإباحة القتل . وأول ما بدأوا بعرقلة حركات الأسطول العثماني ، وسلكوا مسلك القراصنة الجبناء . وفي رمضان سنة ٩٢٨ هـ همهم السلطان سليم بأسطول وجيش عظيمين ، وبعد حصار جزيرة رودس ستة أشهر سقطت في يد الجيش العثماني في السابع من صفر سنة ٩٢٩ هـ . وقد شملهم المسلمون بعفوههم وخفظوا عليهم أرواحهم وأموالهم ، ولم يقابلوا أعمالهم الوحشية بمثالها ، وطلبوا منهم أن يغادروا الجزيرة إلى حيث يشاءون . وفي ١٨ من صفر سنة ٩٢٩ ، يناير سنة ١٥٢٣ م . غادر فرسان القديس جزيرة رودس إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع . . . وقد رأى رئيس المنظمة الأب فيليب أن يطلب إلى شارل الخامس إمبراطور المملكة الرومانية منحه جزيرة مالطة وقوزو لأنهم رأوا أنهما أليق مكان لغزو البلاد الإسلامية الذي يتعطشون له دائماً . وهنا سنحت

الفرصة لشارل للتخلص من طرابلس التي طالما تحين لها الفرص ، فقبل طلب الفرسان على شرط أن يقوموا بالدفاع عن مدينة طرابلس . . . ومن هنا ابتدأت قصة فرسان القديس في طرابلس .

أدرك فرسان القديس أنهم إذا قبلوا هذا الشرط فسيتعرضون لحرب طويلة من الطرابلسيين ، وهجوم شديد من الترك سيكون مصيرهم فيه مصير هجوم رودس . ولم يجدوا بداً من القبول ، فقبلوا على كره ، وعلى علم بما ينتظرهم من العاقبة السيئة لإرضاء للإمبراطور شارل .

ويقول الأستاذ الباروني : « ووافق مجلس منظمة الفرسان على الوثيقة القيصرية في ٢٥ من يولييه سنة ١٥٣٥ م^(١) وجاء وفد منهم إلى طرابلس ليتسلم المدينة من واليها « فرديناند ألكركون »^(٢) »

وإلى هنا انتهى حكم الأسبان في طرابلس ، بعد أن دام عشرين سنة لم يتجاوزوا فيها أسوار المدينة ، وقاسى فيها الطرابلسيون شر ما يقاسيه محكوم من حاكم . وذهب الأسبان إلى غير رجعة ، ولم يتركوا في طرابلس ما يشرف إنساناً أو يمت إلى الخير بصلة ، ولولا ما شغل به الأسبان من أحداث في أوروبا لما أبقوا في طرابلس مسلماً .

(١) يوافق ٢٤ من المحرم ٩٤٢ هـ

(٢) يقول الأستاذ العسلي في ترجمته كتاب « ليبيا » وفي سنة ١٥٣٠ م تنازل عنها كارلو الخامس ملك أسبانيا إلى فرسان سان جوفاني وأضيفت إلى مالطة . وفي هذا الوقت أعيد بناء السراى وزيد في حجمه ، وأصلحت أسوار المدينة ، ووسائل الدفاع عن الميناء التي كانت دائماً هدفاً لمناوشات العرب والأتراك .

فرسان القديس في طرابلس

تسلم فرسان القديس طرابلس في المحرم سنة ٩٤٢ « يولييه سنة ١٥٣٥ » (١) وعينوا عليها والياً هو القسيس جيسبارى دى سنقوسا وهو أول وال من هذه المنظمة على طرابلس . وكانت مهمة الدفاع عن طرابلس مهمة شاقة ، لأن الفرسان يواجهون عدة أعداء في طرابلس : كراهة العرب في الداخل ، والعرب المحاربين في الخارج ، والأسطول التركي في البحر ، ولم يكن لديهم من المال ما يكفي لما تتطلبه مهمتهم لإصلاح ما تركه الأسبان من الخراب في كل ناحية من نواحي الحياة ، وأبدى الفرسان بعض النشاط فاستولوا على زنزور ، والمنصورية (صياد) ولماية والحشان والزاوية ، وصبراية ، وكانوا يجنون أموالها ويفرضون عليها المغارم ، ويأخذون رهائنهم خوفاً لانتقاض عليهم . وقد اضطر أهل الجهة الغربية للخضوع لأنهم في طريق الجيوش التونسية التي كانت تأتي لنصرة فرسان القديس على طريق البر . بخلاف الجهة الشرقية فقد احتفظت بنفسها بواسطة مشايخها . وقد وجد منها مراد أغا معاونة فعالة في محاربة فرسان القديس ، وبعث أمير تونس إلى والى طرابلس يطلب منه صداقة منظمة القديس يوحنا وعقد معاهدة صداقة ودفاع معها ، فرد عليه بأنه سيستشير حكومته ، ويرجوه ألا يرسل معونة إلى العرب بتاجورة حتى تتم المعاهدة بين مؤسسة القديس وبينه .

وبلغت أخبار هذه المعاهدة خير الدين بربروسا فجهز أسطولا ونزل على تاجورة واحتلها سنة ٩٣٧ هـ . وطرد منها أنصار الحسن أمير تونس ومؤيديه ، وأبقى في تاجورة أحد قواده ، واسمه خير الدين كرماني ، وأبقى معه بعض القطع الحربية وجنوداً وأسلحة ، وكانت ميناء تاجورة غير صالحة لرسو

(١) انظر ما نقلناه عن ترجمة الأستاذ العسلي ص ٢٦٠

السفن فأسرع كرمان لإعداد حوض فيها لسفنه ، وبني برجاً ليدافع به عن السفن الراسية في هذا الميناء .

وأعلن خير الدين كرمان الحرب على الفرسان في البر والبحر ، واستولى على سفينتين للفرسان بكل ما فيهما وضعف نفوذهم خارج السور ، وامتنع سكان زنزور وغيرهم من دفع الضرائب وتخلصوا من حكم الفرسان .

وقد كان لغزو الترك تونس أثر سيئ على أميرها مما حمله على الالتجاء إلى فرسان القديس ومعاونتهم على الترك ، وعقد معاهدة دفاعية ضد الترك . وسنرى كيف أنه ساق جيشاً على طرابلس بطريق البر مساعدة لفرسان القديس . وسمع الحسن أمير تونس بأعمال خير الدين في تاجورة . فجهز جيشاً في شهر جمادى الآخرة سنة ٩٣٨هـ — يناير سنة ١٥٣٢م لمحاصرة تاجورة وقاده بنفسه . وقد تأكد الحسن من مساعدة فرسان القديس بالمدافع والعتاد الحربي بناء على وعدهم إياه بهذه المساعدة .

وزحف الحسن على طرابلس وحاصر جيش خير الدين في زواغة وتاجورة وعند البرج القائم على الميناء ، وبعث إلى والي طرابلس يطلب منه وفاء الوعد بالنجدة ، فلم يف بوعده . وجاءت نجدة إلى خير الدين كرمان من برباروسا ، وبلغ عدد أسطوله في تاجورة ١٥ قطعة كبيرة . واستطاع كرمان أن يدافع عن تاجورة .

وجاء خير الدين بارباروسا في حملة كبيرة نجدة لتاجورة ، ونزل على صفاقس أولاً واحتلها في شوال سنة ٩٤٠هـ (أبريل سنة ١٥٣٤) . وعلم الحسن بهذه النجدة ، فرحل عن تاجورة . وذهب للملاقات خير الدين في صفاقس ، وانكسرت حملة الحسن ونخاب فآله . وخاف الفرسان من تقدم كرمان إلى طرابلس فالتجأوا إلى إصلاح الحصون والقلاع ، وأعوزهم المال فأرهبوا الناس بالضرائب .

وفي سنة ٩٤٠هـ . و ١٥٣٤م . دعى بارباروسا إلى الآستانة ، وأسندت إليه قيادة الأسطول العثماني كله ، فازداد خوف الفرسان . وخرج بارباروسا

بأسطوله على سواحل إيطاليا ، واحتل تونس . وعين حسن أغا على قسم من الأسطول وأرسله إلى طرابلس .

ورجع كرمان إلى تاجورة — وكان قد ذهب إلى صفناقص — ومعه كتاب من بارباروسا يأمرهم فيه بمساعدته والالتفاف حوله ، فانضمت إليه القبائل الطرابلسية ودفعت إليه خراج أراضيها وضرائب أشجارها وحيواناتها ، وضرائب تجارتها . وحاصر طرابلس ، وضيق على أهلها حتى أصبحوا لا يقدرّون على فتح الأبواب . وانتشرت قوات خير الدين حول طرابلس . وبني قلعة على بعد ميل من سور المدينة إلى الجنوب وكانت تعرف بقلعة القائد ، وكانت بالظهرة ، ونصب عليها المدافع ، وكانت قنابلها تصل قريباً من الأسوار ، وتضايق الفرسان من هذه القلعة أشد المضايقة .

وهيأ كرمان لاحتلال طرابلس ، وكان ذا عزم وقوة إرادة ، وحشد جنده ورجاله ، وانضم إليه المتطوعون من لماية ووزنور ، وتقدم الجيش نحو أسوار المدينة ومعه حملة السلام ، ونشبت الحرب ، واختلطت أصوات التكبير والتهليل بأصوات البنادق والمدافع ونصبت السلام على الأسوار ، وحى وطيس الحرب . وضاعت الدنيا في وجوه الفرسان وظنوا ألا مناص من الأسر أو القتل ، وكادوا يرفعون الأعلام البيضاء علامة الاستسلام . وفي آخر لحظة واتاهم النصر بسبب انتشار خبر وفاة خير الدين بين الجنود فأخذوا يتسللون تاركين مواقع الدفاع ليتحصنوا بقلعة الظهرة ، وكسب الفرسان المعركة .

وجاء المدد إلى فرسان القديس من مالطة . وأمكنهم ، من طريق التحاليل وبت الفتنة بين سكان المنشية ، أن يستميلوا بعضاً منهم ، وانضموا إلى صفوفهم . ويقول الأستاذ الباروني : « فجاءوا أفواجاً ، وملأوا الميادين ليحاربوا إخوانهم » . وبلغ خبر انضمام هؤلاء النفر للفرسان إلى خير الدين كرمان فاستعد للقائهم وتقدم جيش الفرسان نحو قلعة القائد بالظهرة . ورابط جيش خير الدين في قبيلة أبي دبوس . ولم يحاول كرمان أن يتعرض لزحف الفرسان وخلي بينهم وبين

القلعة . واشتد الحصار على القلعة ، وأيس المحاصرون من إغاثة خير الدين ، فاستماتوا في القتال ، وأبو الاستسلام فنسفت القلعة بمن فيها ، وذهبت أجسامهم في الفضاء تذروها الرياح . ورحمة الله ورضوانه على من أدى للوطن واجبه . . . ولم يبق أمام الفرسان إلا خير الدين الذي يعسكر في قبيلة أبي دبوس التي تبعد عن المدينة بخمسة أميال ، فانتقل من مكانه إلى تاجورة . وتقدم الفرسان إلى هذه القبيلة فهبوا ، وأسروا من فيها ، وأضرموا فيها النار . وإلى هنا انقطعت أخبار خير الدين كرمان . ويقال إنه قتل في هذه المعارك . وهيات الظروف إلى دور آخر هو استيلاء الترك على طرابلس ، وطرد حكومة القسس منها إلى غير رجعة ، وكان ما سنقصه .

الترك في طرابلس

بعد أن اختفى خير الدين كرمان من تاجورة ولم يسمع له ذكر بقي العرب وفرسان القديس وجهاً لوجه . ولم تكن لدى العرب قوة تكافئ قوة الفرسان ، وأصبح من المستحيل التفاهم لاستحكام العداوة بين الفريقين ، فلهذا اضطر العرب في تاجورة أن يستعينوا بدولة تنقذهم من هذا الموقف الحرج . ولم تكن إذ ذاك دولة مسلمة يمكن الالتجاء إليها إلا دولة بني عثمان ، فقد ظهرت في رودس والبحائر ، وتونس ، والبحر الأبيض ، وكان خير الدين كرمان تولى أمورهم في تاجورة حوالي ١٦ سنة ، وفوق كل هذا فهي دولة إسلامية تعمل لرفعة شأن الإسلام وحماية المسلمين ، لهذا كله لم يفكروا في الاحتماء بغيرها ، وأرسلوا وفداً منهم إلى الأستانة سنة ٩٢٦ ليعرض الأمر على السلطان سليم ، ويطلب منه إنقاذهم من فرسان القديس . وقابل السلطان سليم الوفد واستجاب إلى طلبه . . . وهنا يروى ابن غلبون في تاريخه أنه أرسل معهم مراد أغا أحد خصيان القصر في نفر قليل من العساكر . . .

ويؤكد الأستاذ البارونى أن مراد أغا « انضم إلى بارباروسا سنة ١٥٣٨م^(١) وكان يثق فيه ويعتمد عليه ، وهو الذى أرسله إلى تاجورة ليستأنف ما بدأه خير الدين كرماني ويترأس الغزو على طرابلس وأمدّه بالسفن والرجال والعتاد الحربى » .

والأستاذ البارونى يريد أن يشكك فى إرسال الوفد إلى الأستانة ، ولكنه يقر وجود مراد أغا فى تاجورة فى زمن متأخر عن الزمن الذى ذكر فى المنهل العذب بنحو عشرين سنة لم يأت فيها ذكر لمراد أغا ، وينسب وجوده فى تاجورة إلى أسباب غير التى ذكرها ابن غلبون وتابعه فيها أحمد بك النائب .

وقد يكون ما اشتهر به ابن غلبون والنائب من عدم التحرى فى الرواية ومناقشة غير المقبول منها — يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ البارونى . يضاف إلى هذا وجود الأسطول العثمانى فى البحر الأبيض ، ووجود القواد العثمانيين وحروبهم فى الشمال الإفريقى ، وفى تاجورة . وهذا ما يجعل النجدة قريبة توفر على الطرابلسيين مشقة الذهاب إلى الأستانة . . .

ومراد أغا ولد فى راقوسا من البلاد الإيطالية ، وأسرهُ القراصنة وباعوه فى سوق النخاسة ، وآل أمره إلى قصر السلطان سليم وأجريت له عملية الخصى ، لأن القصور الملكية إذ ذاك لا يباشر فيها خدمة النساء إلا الخصيان .

وقام مراد أغا فى بادئ الأمر بمناوشات يقصد منها عدم تمكين فرسان القديس من الحشد والتجمع .

وكان لدى الفرسان رهائن من سكان الجهة الغربية فهربوا ، فبعثوا فى إثرهم رسلا ، فقبض عليهم أهل لماية وباعوهم لمراد أغا ، فاستاء الفرسان لذلك ، وأرادوا الانتقام من أهل هذه الجهات فجهزوا أسطولا من ثمان قطع بحرية وشحنوه بخيرة المقاتلة عندهم ، وأرسلوا جيشاً برياً وأخذ طريقه إلى لماية على

(١) يوافق سنة ١٥٤٥ هـ . وفى المنهل العذب أن مراد أغا جاء إلى طرابلس سنة ٩٢٦ والفرق

الساحل ، وغادر الجيشان طرابلس في جمادى الأولى ٩٥٢ هـ . يولييه سنة ١٥٤٥م وترأس على الجيش البرى أحد أعيان سوق الجمعة وكان متحالفاً مع الفرسان . وسار الجيشان فى جنح الظلام ، ونزل جيش الأسطول إلى البر قبالة لماية ، وقبيل الفجر وصل الجيش البرى . . . وقد شعر سكان لماية بهذا العدو الزاحف ، فانتبهوا مذعورين وفروا إلى الجنوب حيث البادية والأرض متسعة . وزحف الجيش على لماية فأسروا فيها نحو أربعمائة وغنموا كل ما فيها وقسم على رجال الجيش ، وحمل الأسرى إلى مدينة طرابلس مكبلين فى الأغلال . . . ورجع أهل لماية إلى بلادهم فوجدوها خاوية خالية ، وقد نهبت جميع أرزاقهم ووجدوا من جثث القتلى كثيراً وكثيراً .

وفى سنة ٩٥٣ هـ - ١٥٤٦ م . كان الأب جوان والياً على طرابلس ، فاقترح على منظمة الفرسان أن تنقل مركزها إلى طرابلس نظراً لضيق مجال الماطة ، واتساع هذا المجال فى طرابلس . ولكنه لم يجد موافقة على هذا الرأى ، ويعاللون عدم الموافقة عليه بأن الطرابلسيين ما زالوا مصممين على الدفاع ولن تلين قناتهم مهما طال الزمن ، وأيضاً فإن الأسطول التركى الذى ملأ البحر الأبيض ، والسياسة التركية التى امتدت إلى شواطئ إفريقيا ، وهى تتحفز للوثوب على طرابلس ، كل هذا حمل المعارضين على التمسك برأيهم .

طورغود^(١)

توفى خير الدين بارباروسا ليلة ٥ من جمادى الأولى ٩٥٣ هـ - ٤ من يولييه سنة ١٥٤٦م . وهو أميرال الأسطول التركى العظيم . . . وكان ذكر طورغود مقررناً

(١) أصله من بلاد الأناضول ، والتحق من صغره بخدمة الأسطول العسكرية مع خير الدين باشا . واشتهر فى قيادته حتى نال الرياسة العليا ، وله غزوات كثيرة فى البحر المتوسط . واستشهد فى معارك مالطه سنة ٩٧٣

دائماً بذكر انتصارات الأسطول التركي في البحر الأبيض مما جعله في مقدمة القواد البحريين الأتراك .

ولطورغود تاريخ حافل بجلال الأعمال ، والمغامرات البحرية العظيمة . وكان جريئاً مقداماً لا يهاب الموت ، ولا يخاف العدو . وكان يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة تحمل في إرضائها كثيراً من المخاطر والأهوال ، ورفعته أعماله إلى ذروة المجد من غير أن يستند إلى أحد . وكان موفقاً في العمل للانتقام من المسيحية وإنقاذ المسلمين من شرورها . وبدأ طورغود أعماله في الشمال الإفريقي ، فطرد الأسبان من سوسة ، والمنستير ، وصفاقس . وفي سنة ٩٥٧ هـ - ١٥٥٠ م . احتل المهديّة . ووجدت أوربا نفسها أمام هذا الأسد البحري يهددها بالاستيلاء عليها فتجمعت ضده ، وأرادت أن تغالبه فغلبها وتولاه الله بنصره فانتصر .

وفي أثناء ما كان طورغود يقوم بعملياته الحربية في شمالي إفريقية كان مراد أغا في طرابلس في شبه انتظار لنجدة الأسطول التركي . وقد فقد مراد أغا بموت برباروسا صديقاً ومعيناً وتوقفت الإمدادات التي كانت تأتيه أيام خير الدين برباروسا . وفي سنة ٩٥٦ هـ - ١٥٤٩ م جاء مراد أغا لزيارة عبدالقادر بن شوشانة في المنشية ، فسمع به الفرسان فهاجموه للقبض عليه ، ولكن ابن شوشانة دافع دونه هو ورجاله حتى نجا وأسر ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهره . وأطلق الفرسان ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهره على أمل أن يستعينوا بنفوذهما على إخضاع القبائل ، ولكن ابن شوشانة تعاهد مع مراد سرّاً على قتال الفرسان وتطهير البلاد منهم . وبلغ الخبر إلى طرابلس فقبض على ابن شوشانة وصديقه أحمد بن جوهره ومعهما نحو تسعة آخرين وأرسلهم إلى مالطة لحاكمهم . وحيث لم تثبت إدانتهم أطلقوا ورجعوا إلى طرابلس .

الأسطول التركى

كان فرسان القديس يحسبون ألف حساب لهجوم الأسطول التركى على طرابلس . وقد أقض هذا الخوف مضاجعهم واستول على نفوسهم حتى أصبحوا يتوقعون زوال ملكهم من طرابلس على يديه .

وكانت هذه المنظمة منذ أن وطئت أقدامها طرابلس تشعر بضعف في المقاومة ، وبعجز عن الحصول على مستلزمات الدفاع : من كثرة الجند ، وتوفير المال لإصلاح القلاع والأسوار . . . وكان وجودها في طرابلس يتركز على وعود ملوك أوربا بمددها بما يلزم للمحافظة على كيائها وتوطيد نفوذها ، ولكن ملوك أوربا لم يكونوا عند ظنهم بهم ، ولم يفوا بوعدهم لها كما كانت تنتظر ، فتخرج مركزها ووقعت في حيص بيص ، وأحاطت بها المخاوف ، وفشلت جميع محاولاتها لتغطية مركزها المزعزع . . . ولو كانت قوة الطرابلسيين متكافئة مع قوة الفرسان أو قريبة منها لما أمكنهم أن يبقوا في طرابلس نحو عشرين سنة .

وما كاد الفرسان يعلمون بحشد سفن الأسطول التركى في شرق البحر الأبيض حتى تفاعلوا شرا ، واشتد خوفهم على مصيرهم ، وشرعوا في تقوية السور والأبراج ، واستصرخوا ملوك أوربا ، واستجدوا معونتهم جاعلين في مقدمة ما ينتحلونه من أسباب لاستدراار إحسانهم — دفع ما يهدد المسيحية من خطر . . . ولكن أوربا لم تكن مستعدة لسماع هذه الصيحات بالقدر الذى يطلبه الفرسان لتقوية مركزهم في طرابلس ، ولإقناع المسيحية بنجاحهم في مهمة الدفاع عنها ، فباعت جهودهم بالفشل . وكان عزم الترك على تخليص إفريقية من قراصنة المسيحية ، وقوة أسطولهم الذى لم يعد له مثيل في البحر الأبيض — لا تؤثر عليهما صيحات اليأس وحركات المذبوح .

تجمع الأسطول التركى في شرق البحر الأبيض . وكان مجموع سفنه

مائة وخمسين سفينة ، وركب فيها ١٧ ألف جندي ، وستائة فارس . وكان سنان باشا القائد الأعلى لهذا الأسطول . وظهر هذا الأسطول الضخم أمام مالطة يوم ١٤ رجب سنة ٩٥٨ هـ - ١٨ يولييه سنة ١٥٥١ م ، وكان طورغود في هذه الحملة . وخوفاً من أن يقتضى احتلال مالطة كلها زمناً طويلاً نظراً لمناعتها الطبيعية قد تفوت معه الفائدة من التعجيل باحتلال الشمال الإفريقي فقد اكتفى سنان باشا باحتلال قوزو وإحدى جزر مالطة في ٢٦ من رجب المذكور وأسر منها نحو سبعة آلاف ، وأقلع عنها الأسطول قاصداً إلى طرابلس .

ورسا الأسطول أمام طرابلس ، ونزل سنان باشا على تاجورة حيث يقيم مراد أغا . وأرسل سنان باشا رسولا عربياً يحمل علماً أبيض ومعه رسالة إلى الفرسان يطلب منهم أن يسلموا المدينة ، ويعددهم بأن يبقى على حياتهم وأموالهم . وأخذ سنان باشا في إنزال الجيوش والمدافع إلى البر ورتب الجيش في مضاربه ، وأحاط بالمدينة من كل ناحية ، وحفرت الخنادق ، ونصبت المدافع البرية قرب سيدى الشعاب . واتخذ الأسطول مواضعه من البحر ، وتمت جميع الاستعدادات . ولم يصدر الأمر بالهجوم انتظاراً لرد الفرسان .

وفي أثناء ما كان سنان يقوم بترتيب الجيش جاء السفير الفرنسي دارمون ، ورست سفينته على ساحل تاجورة وطلب مقابلة سنان . فأجيب لذلك . وفي أثناء محادثته رجاه أن يعدل عن احتلال طرابلس وأن يتركها للفرسان ، وتوسل لديه في قضاء مهمته بما بين فرنسا والسلطان سليمان من صداقة ، وبما يتمتع به الفرسان من رعاية دول أوربا لهم .

ولم يجد سنان باشا في هذه الوساطة ما يبررها ، واعتذر للسفير بأنه مأمور من قبل السلطان باحتلال طرابلس وطرد الفرسان منها . وهذا التصريح من سنان بأنه مأمور من السلطان بأخذ طرابلس من فرسان القديس يرد ما جاء في تاريخ ابن غلبون ، وتاريخ النائب من أن مراد أغا طلب من سنان مساعدته بالأسطول على فك المدينة ، فاعتذر سنان بعدم الإذن له في ذلك ، وبعد

توسلات مراد أغا وتحمله كل مسئولية تنتج عن ذلك أجاب سنان باشا طلبه .
 وصدرت أوامر سنان بعدم مغادرة سفير فرنسا تاجورة خوفاً من اتصاله
 بالأستانة ، أو بفرسان القديس في طرابلس لعرقلة أعماله . ورد الفرسان على
 الباشا بعدم التسليم ، وبالإصرار على المقاومة إلى النهاية .

وفي يوم ٦ من شعبان سنة ٩٥٨ هـ - ٩ من شهر أغسطس سنة ١٥٥١ م .
 صدرت الأوامر إلى الجيش التركي بالهجوم ، وأطلقت المدافع على الأبراج
 والأسوار ، وعلى قصر الحكومة ، وأحرزت المدفعية نجاحاً فتقدمت ، ونصبت
 على مسافة ١٥٠ متراً من قصر الحكومة . . . وكان ضرب المدافع قوياً ومحكماً
 وكان الجنود يصوبون بنادقهم إلى المرابطين في رؤوس الأسوار وغيرهم .

وعمت الفوضى جنود الفرسان ، وألحوا على ضباطهم في طلب الصلح ، وطلب
 بعضهم السفير إلى مالطة . واعتقد حاكم المدينة فالييرا أن سقوط المدينة في يد
 الأتراك أمر لا مفر منه ، فأرسل إلى سنان باشا يطلب منه المفاوضة في الصلح
 على شرط أن يترك الفرسان يخرجون إلى مالطة بسلاحهم وأمتعتهم ورفض سنان باشا
 هذا الشرط إلا إذا دفعوا ثمن كل ما أنفق على هذه الحملة غرامة حربية ،
 فرفضوا شرطه لأنه لا يوجد عندهم شيء من المال . . . وتجددت الحرب ،
 وتجدد معها ثورة الجنود في داخل المدينة ، وسخطهم على الوالي ومطالبتهم بتسليم
 المدينة . . . وطلب سنان باشا فالييرا حاكم المدينة للتحدث إليه مشافهة في
 شأن الصلح ، فخرج إلى الباشا ومعه أحد مساعديه . وعرض عليه سنان : إما
 أن يدفع الخسارة الحربية ، أو يأسر جميع الفرسان ، ويبيعهم في الأسواق لرد
 نفقات الحرب . واستاء فالييرا من قوله يبيعهم في الأسواق ، فخرج عن صوابه
 وأغلظ في القول . فأمر سنان باشا بحجزه ، وأرجع مساعده إلى المدينة لينذر
 من فيها بالفناء إذا ما توانوا في فتح الأبواب وتسليم المدينة . وانقض هذا الخبر
 على رؤوس المحاربين كالصاعقة ، وأخذ الخوف من نفوسهم كل مأخذ . وكانت
 المدافع ترمي حممها على القلاع والأسوار في عنف لا هوادة معه حتى تهدم أكثرها .

وأرسل سنان منادياً ينادى حول الأسوار بالأمان لكل من ألقى سلاحه واستسلم .
 واغتم جنود الفرسان المدعورون هذه الفرصة ، فألقوا بسلاحهم ، وهرعوا إلى
 الأبواب ففتحوها بدون أن ينتظروا أمراً أو يستشيروا أحداً . ودخلها سنان الفاتح
 وجيشه المظفر ، وفي المقدمة مراد آغا ، وطورغود بك .

ووفي لهم سنان بما وعد ، ورفع عنهم القتل ، ووهب لهم أرواحهم
 وأموالهم . وفي يوم ١٣ من شهر شعبان سنة ٩٥٨ هـ - ١٦ من أغسطس
 سنة ١٥٥١م احتفل بفتح طرابلس احتفالاً رائعاً حضره المسيو دارموند سفير
 فرنسا الذى حجه الباشا فى تاجورة . ورئيس الفرسان فاليريا الذى كان حاكماً
 على طرابلس وكان يوم ٦ ، ٧ ، ٨ من شعبان ٩٥٨ هـ ، ١٠ ، ١١ من أغسطس
 أشد أيام الحرب وتكرم سنان باشا على الفرسان فأذن لهم فى السفر إلى مالطة
 فسافروا يوم ١٥ من شعبان سنة ٩٥٨ هـ ١٨ من أغسطس سنة ١٥٥١م على سفن تحمل
 الراية الفرنسية ولم تستغرق العمليات الحربية - منذ أن شرع فى الهجوم إلى
 أن سافر الفرسان إلى مالطة - أكثر من عشرة أيام (١) .

ولم يترك الفرسان فى طرابلس ما يذكرون به سوى الخراب ، وأخبار تلك
 الفظائع والحجازر . وسافروا من البلاد مشيعين باللعنات بعد أن قضوا فيها ١٨ سنة .
 وما كان الفرسان يستحقون هذا العطف من سنان لو كانت المعاملة بالمثل
 فقد كانوا فى معاملتهم للطرابلسيين قساة القلوب ، متحجرى العواطف ، حملهم
 التعصب للمسيحية على ارتكاب كل نقيصة مع العرب والمسلمين ، وكان وجودهم
 فى طرابلس حلقة من سلسلة فظائع الأسبان فى الأندلس . ولكن بشاشة الإسلام
 ملأت قلب سنان باشا رحمة وإنسانية ، فعفى بعد قدرة ، وسامح بعد استحقاق
 العقوبة ، وهكذا نحن المسلمين دائماً ، ولن نعدل عن هذه الفضيلة الإنسانية .

(١) ويرمز لتاريخ هذا الاحتلال بكلمة « جاء الترك بس » على طريقة أبجدية المغاربة.

ولاية مراد أغا

عين سنان باشا مراد أغا والياً على طرابلس مدى الحياة . وبعد أن استقر الأمن في البلاد سافر سنان باشا بأسطوله إلى الغرب ، وأبقى مع مراد أغا حامية صغيرة من الجند .

وكانت طرابلس قد عمها الخراب من جراء الحرب وإهمال الفرسان لشأنها ، فشغل بتعميرها ، وجلب لها كثيراً من السكان من تاجورة ومن المهاجرين الذين هاجروا أيام الأسبان لأن الحروب أتت على كثير من سكانها ، وشجع الناس على الزراعة والصناعة ، وإنشاء البساتين واستثمار الأرض . وقد استردت البلاد في أيامه كثيراً مما فقدته أيام الأسبان وفرسان القديس ، وأخذت الحياة تدب في جميع مرافقها .

وقد أمكنه أن يخضع البلاد للنفوذ التركي . وبقيت زوارة تحاول التخلص من نفوذه ، فلم يتركها تسترسل في ذلك . واضطرته ظروف عنادهم إلى أن يغزوهم بجيش فيه نحو ٣٦٠٠ جندي . وكان هذا الجيش يحاصر زوارة في شعبان سنة ٩٥٩ هـ - أغسطس سنة ١٥٥٢ م .

وقد اتفق أن فرسان القديس تجهزوا أسطولا فيه ست عشرة سفينة عليها ألفا جندي لغزو زوارة لأنها بعيدة عن المدينة ، وظنوا أن نفوذ مراد أغا لم يصلها ... وذهب هذا الجيش إلى زوارة ، ووصلها يوم ٥ من شعبان من السنة المذكورة وكان جيش مراد أغا موجوداً في زوارة يحاصرها . وزحف جيش الفرسان إلى زوارة ، وعاث فيها قتلا وسبياً ، ولم يكن يشعر بوجود جيش مراد أغا . وأخذ جيش الفرسان في الرجوع إلى الأسطول ، فلم يشعر إلا وانقض عليه جيش مراد أغا ، وانقض عليهم من كل صوب . وضاق على جيش الفرسان الفرار فتشتتوا وتركوا كل ما غنموه من أموال ، وما استولوا عليه من

أسرى . واضطر الفرسان أن يلقوا بأنفسهم في البحر ومات كثير منهم غرقاً قبل وصولهم إلى السفن ، وأقلع الأسطول يجر أذيال الخيبة ، وكانت هزيمة منكرة له ولالجيش^(١) .

ولم يحدث في أيام مراد أغا غير هذا الحادث الذي اعتبره الفرسان أقسى عليهم من حادث جزيرة رودس .

ولاية طورغود ياشا

بعد احتلال طرابلس قويت شوكة الأسطول التركي في البحر الأبيض بقيادة طورغود بك . ومن حسن الحظ الذي صادف الفرسان أن نجا أسطولهم الذي غزا زوارة من الوقوع في أسر أسطول طورغود .

وكان طورغود يتمنى لو أسندت إليه ولاية طرابلس بعد احتلالها بدلاً من مراد أغا . ولكن سنان باشا عدل عنه إلى مراد فبقيت أمنية في نفسه تتوق إلى الفوز بها . . . وفي شعبان سنة ٩٥٩ هـ - أغسطس سنة ١٥٥٢ م^(٢) سافر إلى الأستانة ليقدم للجهات المختصة تقريراً سنوياً عن أعماله البحرية . واغتم طورغود وجوده في الأستانة ليسعى للحصول على ولاية طرابلس ، فسعى لدى السلطان سليمان ، وذكر له من شيخوخة مراد وضعفه عن الإدارة وعجزه عن الاحتفاظ بالسلطة التركية في طرابلس ما رآه مبرراً لاختياره لهذا المنصب بدلاً عن مراد . ونظراً لمكانة طورغود ، ولما امتاز به من جلائل الأعمال ، ونظراً كذلك لموقع طرابلس وأهميتها للمحافظة على سواحل إفريقية اقتنع السلطان بوجهة نظر طورغود وأصدر أمره بتعيينه والياً على طرابلس .

وقدم طورغود إلى طرابلس في ربيع الآخر سنة ٩٦٠ هـ - مارس سنة ١٥٥٣ م^(٢)

(١) ملخص من رسالة الأستاذ الباروني .

(٢) هذه التواريخ تخالف ما ذكره النائب .

وبيده أمر تعيينه والياً على طرابلس . وقابله مراد فيمن قابله . وفرح الجيش والعرب بمقدمه وتعيينه والياً لما يعلمونه عنه من المقدرة والكفاية . وبلغ مراد أغا أمر تعيينه فامثل الأمر وسلمه مهام الحكم وشئون البلاد .

انتقل مراد أغا إلى تاجورة بعد أن سلم أمور طرابلس إلى طورغود ليريح نفسه فيما بقي له من أيام حياته . وقد تولى طرابلس سنة واحدة ، وسبعة أشهر ونصفاً^(١) ونقل معه إلى تاجورة أمواله الكثيرة ، وبعض المسيحيين الذين كان أسرهم وملكهم ملك الرقيق . وبني جامع الكبير في تاجورة بواسطة هؤلاء الأسرى ، ووعدهم بإطلاق سراحهم إذا أتموه على أكمل وجه . وقد أقامه على ٤٨ عموداً وأقام عليها أقواساً بديعة الصنع على شكل نعال الفرس ، وأقام على هذه الأقواس قباباً كثيرة . . . وهو مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالي ٤٢,٦٠ متراً وعرضه ٣٥,٢٠ متراً . وإلى جانب المسجد قبر مراد أغا في مبنى صغير ، وعليه قبة واحدة ، وقد بذل مراد أغا في تعمير طرابلس وإصلاحها جهداً مشكوراً ، عليه رحمة الله . .

وتسلم طورغود مهام الحكم في طرابلس وما زالت في حاجة إلى إصلاح ما أفسده الأسبانيون وفرسان القديس من أسوارها وأبراجها ، وما زالت كذلك في حاجة إلى تشجيع الزراعة ، وإحياء الصناعة ، وإنعاش التجارة وإيجاد الأيدي العاملة التي قلت بسبب الحروب الطويلة ، وإسعاف السكان بما ينعش حياتهم ويرفه عنهم شظف العيش . . . وقد تناول طورغود كل هذا بما عرف من عزمه وقوة إرادته . وكان يعتمد في حل نفقاته على الغنائم التي يأتي بها الأسطول في غزواته على البلاد الأوربية . وكان يتحصل على مقدار كبير منها . . وقد استنجد به أهل القيروان من ظلم حاكمهم محمد بن أبي الطيب الشابي^(٢) ،

(١) هذه المدة غير التي قضاه في تاجورة قبل فتح طرابلس وتولييه عليها من قبل سنان باشا

(٢) الشابي نسبة إلى الشابة ، وهي قرية قرب القيروان قبالة المهديّة « مؤنس » .

فذهب إلى القيروان وقتل محمد بن الطيب وشرذ قومه ، واستخلف على القيروان حيدر باشا ورجع إلى طرابلس . . وفي هذه المدة كان المكتنى حاكماً على صفاقس ، فانضم إلى طورغود ودخل تحت نفوذه ، وأصبحت صفاقس تابعة لطرابلس .

الصفاقسيون في طرابلس

اشتهر الصفاقسيون بالنشاط في العمل ، والدراية بالصناعات إذ ذاك . وقد كانت طرابلس في حاجة إلى الأيدي العاملة للنهوض بها من كبوتها التي أوقعها فيها الأسبان وفرسان القديس . . . وبعد أن انضمت صفاقس إلى طرابلس أشار المكتنى على طورغود بنقل بعض الأسر الصفاقسية إلى طرابلس لتستفيد البلاد من نشاطهم التجاري والصناعي ، فاستصوب طورغود هذا الرأي ووكل إليه الأمر في اختيار من يراه . . وما كان رأى المكتنى خالصاً لوجه الله . ولكن كانت بينه وبين بعض الأسر الصفاقسية ضغائن ، فاقترح على طورغود هذا الرأي حتى إذا ما وافقه اختارهم ليجلبهم عن بلادهم تنكيلاً بهم ، وعمد المكتنى إلى اختيار نحو أربعين أسرة للانتقال إلى طرابلس وكتب أسماءها في قائمة ، فوافق عليها طورغود ، وكلفه أن يكون رئيساً عليهم ، فوقع فيما وقع فيه غيره وأبلغهم الخبر فوافقوا على كره . . . ولما وصلوا إلى طرابلس فرح بهم السكان وأنزلوهم في محل الكرامة ، وأصبح المكتنى من أعضاء مجلس الوالى المقربين لديه ^(١) .

وسار طورغود باشا في حكم طرابلس على نظام الدايات الذى كان متبعاً في الجزائر وتونس . واهتم ببناء السفن حتى أصبحت له قوة بحرية عظيمة كانت

(١) قال صاحب نزهة الأنظار : كنت في ساحل طرابلس سنة ١١٧٤ فرأيت داراً عظيمة وحولها أطفال عليهم آثار النعمة ، فسألت عن الدار ف قيل لى هذه دار المكتنى .

تغزو البحر وتأتى بالغنائم مما تستولى عليه من سفن الأوربيين . واهتم بتوسيع حدود طرابلس حتى شمل حكمه صفاقس وامتد نفوذه على الساحل إلى مسافة أكثر من ٧٥٠٠ ميل ، وشمل برقة إلى الحدود المصرية .

وكان للسفن الطرابلسية المقام الأول في البحر الأبيض ، وفي غزو مالطة حينما أعلنت عليها الدولة العثمانية الحرب سنة ٩٧٢ .

وقد تمتعت طرابلس بالأمن في أيام طورغود وانتعشت فيها الصناعات ، وبذل طورغود في تعميرها ما أمكنه من جهد ، وفي التقدم بها ما وسعته قدرته .

ولم ينس الأسبان وفرسان القديس ما أصيبوا به من نكبات وهزائم في طرابلس وغيرها على يد الأتراك والعرب . ولم يفتر فرسان القديس عن تحريض دول أوربا على المسلمين والتنكيل بهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . . .

ففي سنة ٩٧١ اتفقت حكومات أسبانيا ، وجنوة وفرسان القديس في مالطة على أخذ إفريقية وانتزاع الإسلام منها ، فأرسلت الحكومة العثمانية سنة ٩٧٢ أسطولا كبيراً إلى مالطة وحاصرها حصاراً شديداً ، وطال حصارهم لها . وكان طورغود في طرابلس فاستنجدوا به فذهب إليهم في اثنتي عشرة سفينة ، واشترك معهم في حصار مالطة واشتدت المعارك بين الطرفين ، ولم يمكن التغلب على حصون مالطة ، واستشهد طورغود في إحدى المعارك سنة ٩٧٣ ، وجيء بجثته إلى طرابلس^(١) ودفنت في تربة خاصة ، وما زال قبره يزار باعتباره أحد الشهداء ومن أكبر المجاهدين .

عليه رحمة الله ورضوانه .

(١) ويقال إنه جيء برأسه فقط ، وذلك لأنه أصيب بقنبلة من مدفع يقال إنها فتتت جسمه ولم يبق إلا رأسه .

خاتمة

انتهيت من جمع ما قصدت اليه من تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . وأرجو أن
أكون قد هيأت فرصة لكل مواطن يريد البحث عما بقى مجهولاً من تاريخ ليبيا . .
وأعتقد أن هذا المجهول كثير ، وجد كثير . . . وقد لا يطول جهله — إذا ما
تضافرت الجهود على البحث عنه — حتى يبدو للعيان واضحاً جلياً ، وحتى يكون
فى متناول كل لبيب أن يعرف ما لليبيا من كمال فيبني عليه ، أو نقص فيكمّله .
والله ولى التوفيق ، ومنه الإعانة على ما يقصد إليه المخلصون من خير .

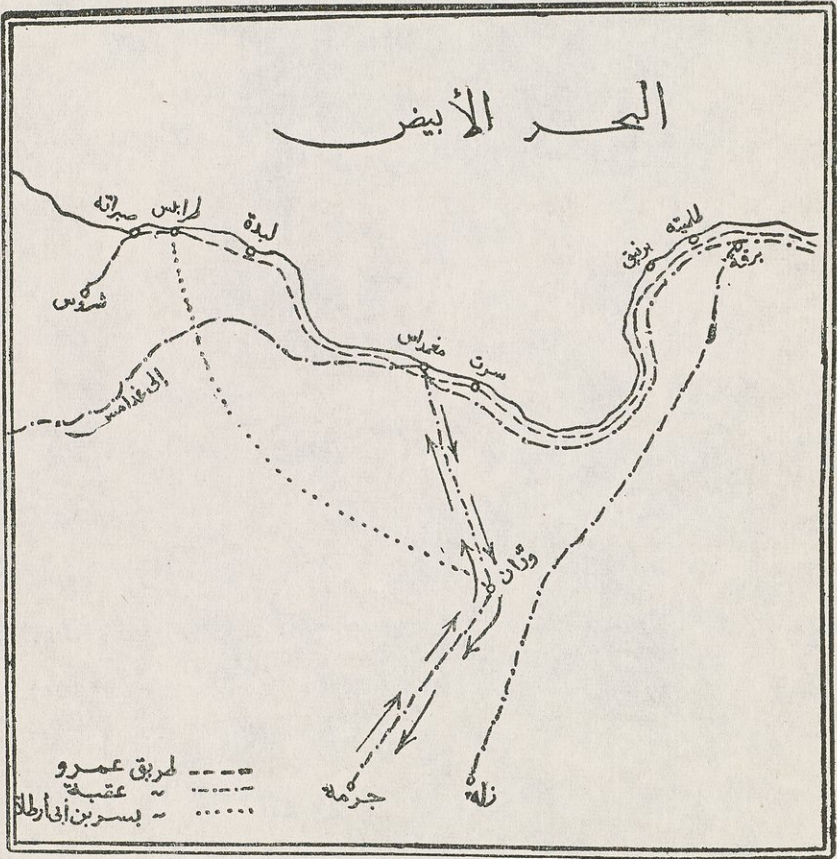
الطاهر أحمد الزاوى

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣

فبراير سنة ١٩٥٤

المؤلف

الطاهر أحمد الزاوى . ولدت سنة ١٨٩٠ فى الحرشا ، إحدى قرى مدينة الزاوية بطرابلس الغرب ، وحفظت القرآن ببلدى الحرشا ، بجامع سيدى على بن عبد الحميد العوسجى ، على أستاذى الفقيه محمد الصالح رحمه الله . وأخذت بعض العلوم فى زاوية الابشات على أستاذتى : الشيخ الطاهر بن الشيخ محمد بن عبد الرزاق البشتى ، والشيخ عبد الرحمن بن عبد الحميد البشتى . والتحقّت بالأزهر الشريف لإتمام دراستى سنة ١٩١٢ . وأخذت العلم عن أستاذتى الشيخ أحمد مصطفى الشريف ، الفقيه المحدث . والشيخ محمود خطاب الصوفى الواعظ . والشيخ الدسوقى العربى ، شيخ المعقول فى عصره . والشيخ على الجهانى المصراتى الطرابلسى ، وغيرهم من أساتذة الأزهر . ورجعت إلى طرابلس سنة ١٩١٩ . وبقيت مع المجاهدين إلى سنة ١٩٢٤ . وفى هذه السنة تغلب الطليان على الطرابلسيين ، فهاجرت إلى مصر ، والتحقّت بالأزهر مرة ثانية فى يونيه سنة ١٩٢٤ ، وأخذت الشهادة العالمية سنة ١٩٣٨ وتجنست بالجنسية المصرية فى إبريل سنة ١٩٤٠ ، ووظفت بوزارة الأوقاف فى منتصف مايو من هذه السنة .



خريطة الفتح العربي في ليبيا

تبين الطرق التي سلكتها الجيوش العربية في ذهابها إلى ليبيا لفتحها . انظر ص ٧٩

المراجع

للعلامة عبد الرحمن بن عبد الحكيم	فتوح مصر والمغرب
لأحمد بن يحيى البلاذري	فتوح البلدان
لأبي عبيد الله البكري	المسالك والممالك
لابن عذارى المراكشي	البيان المغرب في أخبار المغرب
لابن خلدون	كتاب العبر
للادريسي (جغرافيا)	نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق
لأبي بكر محمد بن عبد الله المالكي	رياض النفوس
لأبي محمد عبد الله التيجاني (جغرافيا)	رحلة التيجاني
لأبي سالم عبد الله العياشي (جغرافيا)	رحلة العياشي
للأستاذ محمد الباجي التونسي	الحلاصة النقية
مأخوذ من كتاب البلدان لليعقوبي	صفة المغرب
لابن غلبون الطرابلسي	التذكار
للحموي	معجم البلدان
للأستاذ أحمد الشماخي الطرابلسي	كتاب السير
للشيخ سليمان باشا الباروني	الأزهار الرياضية
تعريب ابننا الأستاذ أحمد الطيب البشتي	دائرة المعارف الإيطالية
للأستاذ عمر الباروني الطرابلسي	الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس
لإسماعيل رأفت بك	التبيان في تخطيط البلدان

- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب
وهو جزء من كتاب المسالك والممالك
فتح العرب للمغرب
نزهة الأنظار، في عجائب التواريخ
والأخبار
طبقات علماء إفريقية وتونس
المؤنس في أخبار إفريقية وتونس
خلاصة تاريخ تونس
لب التاريخ
الأنيس المطرب
المعز لدين الله
ليسيا تأليف (كاكيا)
دائرة المعارف
المنهل العذب
جمهرة الأنساب
المسألة الشرقية
مروج الذهب
المجتمع التونسي على عهد الأغالية
مراصد الاطلاع
- لأبي عبيد الله البكري (جغرافيا)
للأستاذ حسين مؤنس
للأستاذ محمود بن مقديش الصفاقسي
لأبي العرب محمد بن أحمد التميمي
محمد بن أبي القاسم الرعيني
للأستاذ حسن حسني
للأستاذ محمد الحبيب التونسي
لابن أبي زرع
للأستاذ حسن ابراهيم
تعريب الأستاذ العسلي
للبستاني
للأستاذ النائب الطرابلسي
لابن حزم
للأستاذ عبد الله حسين
للمسعودي
للأستاذ عثمان الكعاك التونسي
لياقوت الحموي

الفهرست

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
أول من عني بتعليم البربر القرآن	٩٩	أ	
إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر	١٠٠	أول من عرف البربر	٦
إسماعيل بن عبيد (تاجر الله)	١٠١	أصح ما قيل في أصول البربر	٦
إسلام البربر وانتشار تعاليم الإسلام بينهم	١٠٢	أول ظهور المسيحية في أوربا هـ	٨
إسماعيل بن عبيد الله	١٠٢	أشهر قبائل البربر في طرابلس	١٠
أثر دعوة الخوارج على الامارات العربية	١٠٥	أنطابلس	٢١
أول دخول المذهب الإباضي في إفريقيا	١٠٧	أمبوريا	٢٨
آخر حكم دولة بني أمية	١١٤	اوياء (طرابلس)	٣٤
إلياس بن حبيب عامل طرابلس	١١٥	أول من أحاط طرابلس بسور	٣٥
إسماعيل بن زيان النفوسى	١١٧	آثار صبراتة	٤١
أبو الخطاب	١١٩	إطلاق كلمة طرابلس على الإقليم	٤٥
أبو جعفر المنصور وإفريقية	١٢١	أول مصدر عربي ذكرت فيه	٤٦
أبو هريرة الزناتى	١٢٣	كلمة طرابلس	٥٤
الأغلب بن سالم التيمى	١٢٥	أثر غزوة العبادة	٥٤
أبو قرة الصفرى وثورته على ابن الأغلب	١٢٦	إرسال ابن الزبير إلى عثمان بنجر	٥٨
آل المهلب	١٢٧	الفتح	٥٨
أبو حاتم يحاصر القيروان	١٢٨	أسرو زمار بن صقلاب البربرى	٥٨
إبراهيم بن الأغلب	١٤٢	إرسال هرقل بطيركا إلى سببيلة	٥٩
إبراهيم بن سفيان التيمى	١٤٤	للمطالبة بالخراج	٥٩
الأغلب بن إبراهيم	١٤٨	أول غزوة على قرطاجنة	٨٨
أحمد بن محمد الأغلب	١٤٩	إرسال الكاهنة عمالا لتخريب المدن والقرى وحرق البساتين	٩٠
		أساس خراب إفريقيا هـ	٩١
		إستناد رياسة الجيش والحكم إلى البربر	٩٣

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٦٧	أحمد بن جوهرة	١٥٠	إبراهيم بن الأغلب
٢٦٧	الأسطول التركي	١٥٣	إلياس أبو منصور النفوسى
	ب	١٥٥	إبراهيم بن الأغلب فى تاورغة
			آخر عهد العرب بالدولة فى إفريقيا
٥	البربر	١٥٨	أبو عبد الله الشيعى
٨	البربر والمسيحية	١٥٩	أبو القاسم ابن المهدي
١٠	البربر أهل قوة	١٦٥	إسماعيل بن محمد القاسم
٢١	بيع أولاد البربر فى الجزية	١٧٠	أفلق الكتامى
٤٤	بين المقوقس وعمرو	١٧٢	أيمان كتامة (حلفهم بالمهدى)
٤٨	بسر بن أبى أرطاة هـ	١٧٥	أبو ركوة
٤٨	البلاد التى فتحت بقيادة عمرو	١٨٣	أول من ثار على مذهب الشيعة
٤٩	بعوث الغزاة إلى البلاد الطرابلسية		فى طرابلس
٧٢	بناء جامع القيروان	١٩٥	إغراء العرب بابن باديس
٧٣	بدء استقرار الأمن فى إفريقيا	١٩٧	أشهر قبائل العرب التى دخلت إفريقيا
٧٥	بلاد فزان	١٩٨	أحمد بن مرزوق (الدعى)
٩٢	بعد قتل الكاهنة	٢٢٧	إغارة المسيلى على طرابلس
١٠١	بكر بن سودة الجذامى	٢٢٧	إبراهيم بن أبى زكريا
١٠٩	بشر بن صفوان	٢٣٠	أبو بكر الشهيد
١٤٥	البربر يستنجدون بابن رستم	٢٣١	أولاد أبى الليل
١٥٢	ابن طولون يأمر بنهب لبة	٢٣٢	أبو بكر بن أبى زكريا
١٧١	باسيل الصقلى	٢٣٨	أحمد بن مكى
١٧٢	بناء الأزهر	٢٣٩	أبو بكر بن محمد بن ثابت
١٧٤	ابن هاتى	٢٤٣	أبو بكر بن عثمان
١٧٧	بلكين بن زيرى	٢٤٥	الأسبان يحتلون طرابلس
١٧٨	باديس بن المنصور	٢٤٩	أسر الشيخ عبد الله شرف وأسرته
١٨١	بنو خزرون		إعادة الشيخ عبد الله شرف إلى المدينة
٢٠٠	برغواطية	٢٥٧	إفلاس السياسة الإسبانية فى طرابلس
٢٠١	بنو جامع هـ		
٢٠٤	بنو مطروح		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨	ديانة البربر	٢٢٤	بنات ابن غانية
١٣	ديلو	٢٢٦	بيع المجريسين
٧٢	دعاء عقبة للقيروان بالعمران	٢٣٤	بنو ثابت
٨١	دعاء عقبة ورجلا فرسه في البحر	٢٣٨	بنو مكى
١١٥	الدولة العباسية		
١١٩	دخول أبي الخطاب مدينة طرابلس	ج	
١٢٤	دخول ابن الأشعث طرابلس	٩	جيش جرجير
١٣٢	داود بن يزيد	٣٤	الجرمانيون هـ
١٤١	دولة الأغالبة	٤٣	جبل نفوسة
١٥٩	الدولة العبيدية	٥٢	جرجير
١٧٦	الدولة الصنهاجية	٥٣	جرجير يطلب الصلح
١٨٥	دخول ورو في طاعة باديس	٥٥	جيوش جرجير في سبيلة
١٩٧	دخول العرب افريقية	٦٤	جلولاء هـ
٢٠٩	دولة الموحدون	٦٦	جولة عقبة الصحراوية
٢٢٣	الدولة الحفصية	٦٨	جيش عقبة في مغمداس
	هـ	٧٦	جرما
٩	هرقل	٨٩	جبال أوراس هـ
١٠	هواره	١٠١	جعثل بن عاهان
٤٧	هون هـ		الجنيد بن بشار الأسدي حاكم
٥٧	هزيمة جيوش جرجير	١٢٧	طرابلس
٥٩	هرقل كان افرنجياً لا رومياً		جيوش البربر تحاصر عمرو بن
٦٤	انهدام سور جلولا	١٢٨	حفص في طينة
٨٦	هلال بن ثروان اللواتي		جواب بن طولون لإلياس
٨٩	هزيمة حسان وأسر بعض أصحابه	١٥٣	أبي منصور
١٢٢	هزيمة أبي الأحوص	١٦٥	جامع طرابلس الكبير
١٢٣	هزيمة البربر	٢٢٨	جور المسيلي
١٢٧	هزيمة الجنيد بن بشار	٢٣٨	الجنويون يحتلون طرابلس
١٣٦	هرثمة بن أعين الهاشمي	د	
١٥٢	هزيمة بن قهر	٤	الدولة الليمية

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٩	وصف حسان أم المغرب	١٥٣	هزيمة ابن طولون
	وصول المدد إلى حسان بأرض	١٥٥	هزيمة الاباضية
٩١	سرت	١٨٤	هزيمة أبي ركوة
	ولاية بكر بن عيسى على	١٨٦	هدية باديس إلى الحاكم بأمر الله
٩٩	طرابلس	٢١٩	هزيمة الميوري في معركة تاجرا
١٢١	ولاية أبي الخطاب على افريقية	٢٢١	هزيمة ابن غانية والعرب
١٢٤	ورداسة	٢٢٨	هزيمة الدعى أبي عمارة وقتله
١٤١	وظائف دولة الأغالبة	٢٥٦	هجرة الصقليين إلى طرابلس
١٤٦	وفاة ابراهيم بن الأغلب		هروب الرهائن من فرسان
١٤٩	وفاة أحمد بن الأغلب	٢٦٤	القديس
١٥٦	وفاة إبراهيم الأغلب	٢٦٥	هجوم الفرسان على لماية وصياد
١٦٨	وفاة المهدي	٢٦٩	الهجوم على المدينة
١٨٤	ورو بن سعيد	٢٧١	هزيمة الفرسان في زوارة
٢٠٧	ولاية رافع بن مطروح	و	
٢٠٨	ولاية رافع بن مطروح الثانية		
٢١٠	وفد الطرابلسيين الى عبد المؤمن	١٦	الوندال
٢١٠	وفاة ابن تومرت	١٦	الوندال في روما
٢١١	وفاة عبد المؤمن		وصف الإسكندرية بعد
٢١٧	وادي الهيرة هـ	٢٠	فتحها هـ
٢٢٤	وفاة الأمير يحيى	٢٨	وادي شنبس (وادي عين كعام)
٢٣٥	وفد بني سليم	٤٧	ودان
٢٣٥	الوشاحيون	٥٨	وصول سفن عثمان إلى طرابلس
٢٤٧	وصف الحملة الإسبانية	٥٩	وصول خبر الهزيمة إلى هرقل
	وصول الأسطول العثماني إلى	٦٣	ولاية رويغ بن ثابت
٢٥٦	طرابلس	٧٤	وصف مدينة غدامس
٢٧١	ولاية مراد أغا	٨٠	وصية عقبة لأولاده
٢٧٢	ولاية طورغود باشا	٨١	وصول عقبة إلى الاطنطى
	ز	٨٣	ولاية زهير بن قيس
		٨٤	ورع زهير
٤٢ ، ١٢	زواغة	٨٧	وصول حسان إلى القيروان

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٢	حصار ابن طولون مدينة طرابلس	٧٦	زويلة ابن خطاب
	الحرب بين ابن طولون والياس	٨٢	زهير بن قيس
١٥٣	النفوسى	٨٢	زحف كسيلة إلى القيروان
١٥٥	الحرب بين ابن الأغلب والإباضية	١٥٠، ١٤٦	زيادة الله بن الأغلب
	الحرب بين عبد الله الأغلب	١٥٧	زيادة الله الأغلب الثالث
١٥٧	ونفوسة	١٧٠	زيان الصقلى
١٦٥	حصار طرابلس	٢٣١	زكريا بن أحمد اللحياني
١٦٦	حباسة الكتامى	٢٧١	زحف جيش الفرسان إلى زوارة
١٧٧	حروب زناتة وصنهاجة هـ		ح
١٧٩	الحرب بين باديس ويانس الصقلى	١٦	احتلال الوندال قرطاجنة
	الحرب بين الخزرونيين	٣٠	احتلال الوندال لبلدة
١٨٠	والصنهاجيين	٣١	احتلال البيزنطيين لبلدة
١٨٠	الحرب بين صنهاجة وزناتة	٤٥	حلمود طرابلس
١٩٩	حروب العرب مع ابن باديس	٤٦	الحمد بين برقة وطرابلس
٢٠٣	الحسن بن على	٥٦	الحرب بين جرجير والعرب
٢٣٤	حمزة بن أبى الليل	٦٣	حروب جلولا
٢٦١	حصار الحسن، لطرابلس	٨١	حصار قبيلة المصامدة لعقبة
٢٦١	حرب خير الدين كرمان للفرسان	٨٤	الحرب بين زهير وكسيلة
٢٦٢	حصار طرابلس	٩١	حسان يتصل بخاله سراً
٢٦٣	حصار خير الدين في قلعة الظهرة	١٠١	حيان بن أبى جبلة
	حشد الأسطول التركى في شرق		حروب كلثوم مع ميسرة المضغرى
٢٦٧	البحر الأبيض	١٠٧	حملة العلم
٢٧٠	الاحتفال بفتح طرابلس	١١٢	حصار أهل صبراته في المسجد
	ط	١١٣	حنظلة بن صفوان الكلبي
١٠	طاعة البربر للفرنجة	١١٥	حميد بن عبد الله العكى
	طرابلس الغرب (نبذة من	١٢١	الحروب السياسية
٣٣	تاريخها القديم)	١٢٩	حروب يزيد مع أبى حاتم الإباضى
	طلب الروم الصلح بعد قتل	١٥٠	حصون أبى الغرائيق
٥٧	جرجير	١٥٢	الحرب بين ابن طولون وابن قهر

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٦	كلام العياشي في سرت القديمة	٧٩	الطرق التي سلكها العرب في فتوحاتهم
٣٨	كيف دخل العرب طرابلس	٩٣	طلب الصلاح من حسان
٤١	كرزة هـ	١٠٢	طلق بن جابان
٤٤	كتاب عمرو إلى عمر	١٠٦	طريف البرغواطى
٤٤	كتاب عمر إلى عمرو		طلب الفرسان تنازل شارل
٧٨	كسيلة الأوربي	٢٥٨	الخامس عن مالطة
٨٨	الكاهنة	٢٦٥	طورغود باشا
١١١، ١٠٦	كلثوم بن عياض	ى	
	ل	١٠٣	يزيد بن أبي مسلم
١١	لواتة	١١٠	يزيد بن مسلم الكندى
١٢	لماية	١١٦	يزيد بن صفوان
٢٧	لبدة	١٢٩	يزيد بن حاتم
٣١	لبدة زمن الفتح الإسلامى	١٣٥	يحيى بن موسى
٢٠٦	اللمتوفى وإلى طرابلس	١٧٨	يانس الصقلي
٢٥٢	لؤلؤة ودلاعة	٢٠٢	يحيى بن تميم
	م	٢١٢	يحيى بن إسحاق الميورقى
١١	مواطن هواره زمن الفتح	٢١٢	يعقوب المنصور
	الملك الذى كان يأخذ كل	٢١٢	يوسف بن عبد المؤمن
١٣	سفينة غصباً هـ	٢١٧	ياقوت الافتخار
٢١	المدين الخمس ببرقة	٢١٧	يحيى بن غانية يهاجم طرابلس
٢٢	مدينة المراج	٢٢٢	يوسف المستنصر
٢٣	مدينة درنة	٢٢٣	يحيى بن عبد الواحد
٢٥	مسير عمرو من برقة إلى طرابلس	٢٢٤	يعقوب الهرغى
٢٦	مدينة سرت	٢٢٧	يحيى بن محمد بن يحيى
٤٧	المنطقة المسماة باسم طرابلس	٢٢٩	يوسف بن طاهر اليربوعى
	موافقة الصحابة على استئناف	٢٤١	يحيى بن أبى بكر بن ثابت
٥٠	غزو إفريقية	٢٤٣	يحيى بن محمد المسعودى
		ك	
		٦	كلمة بربر
		٢٤	كتاب عمرو إلى عمر

الصفحة	الموضوع
١١٤	مدة دولة بني أمية
١١٥	مقتل عبد الله بن مسعود التجيبي
١١٦	مقتل يزيد بن صفوان
١١٧	مقتل عبد الجبار والحارث بن تليد
١٢٢	محمد بن الأشعث
١٢٣	مقتلة تاورغة
	الخارق بن غفار الطائي
١٢٦، ١٢٤	حاكم طرابلس
١٢٩	مقتل أبي حاتم
١٢٩	مقتل عمرو بن حفص
١٣٧	محمد بن مقاتل
	مدة حكم الأمويين والعباسيين
١٤٠	في إفريقية
١٤٨	محمد بن الأغلب
	محمد بن أحمد الأغلب
١٥٠	(أبو الغرائق)
١٥٤	محاولة ابن الأغلب غزو مصر
	موسى بن عبد الرحمن (قاضي)
١٥٥	طرابلس
١٦٢	معارضة المالكيين لمذهب الشيعة
١٦٢	امتناع المالكيين عن طاعة المهدي
١٦٤	موقف الإباضية
	ماكنون بن ضبارة (عامل)
١٦٤	طرابلس
١٦٥	محمد بن إسحاق القرشي
	محمد بن عمر النفطي (قاضي)
١٦٧	طرابلس
	مخلد بن كيداد (صاحب)
١٦٨	الحمار
١٦٨	محمد بن عبيد الله المهدي

الصفحة	الموضوع
	امتناع أهل سببلة عن دفع
٥٩	الخراج لهرقل
٦١	مرور ابن حديج بسرت وطرابلس
٦٢	معاوية بن أبي سفيان هـ
٦٣	مرور بن حديج بطرابلس
٦٦	المستشرقون
٦٨	مسير عقبة إلى إفريقية
٦٨	مغمداس
٦٩	مسير عقبة إلى ودان
٦٩	مسير عقبة إلى جرمة
٦٩	مسير عقبة إلى كاوار (السودان)
٧٠	ماء الفرس
٧٤	معيشة سكان غدامس
٧٩	مقاومة الروم
٨٢	محاربة كسيلة لعقبة
٨٢	مسير زهير إلى برقة
٨٣	مسير زهير إلى إفريقية
٨٦	مسير حسان إلى إفريقية
٩٣	مدة حكم الكاهنة
	مقتل زهير بن قيس في سبعين
٩٥	رجلا من أصحابه
٩٩	المنذر الصمغاني
١٠٠	محمد بن يزيد القرشي
١٠١	موهب بن حي المعافري
١٠٦	المذهب الإباضي
١١٢	مقتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري
١١٣	معركة القرن
١١٣	مقتل عبد الواحد بن يزيد الصفرى
	معاوية بن صفوان عامل
١١٣	طرابلس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٥٤	محمد أبو الحداد	١٧٠	مدينة المنصورية
٢٥٨	منظمة فرسان القديس	١٧٠	المعز لدين الله
	موافقة منظمة الفرسان على	١٧٨	المنصور بن بلكين
٢٥٩	الوثيقة القيصرية	١٨٣	محاربة الحاكم لأبي ركة
٢٦٢	مجيء المدد لفرسان القديس	١٨٥	محمد بن حسن
٢٧١، ٢٦٣	مراد أغا	١٨٩	المنتصر بن خزرون
	ن	١٩٢	المعز بن باديس
		٢٠٣	محمد بن خزرون
١١	نفوسة	٢٠٤	الحجاعة في طرابلس
١٤	نظام الحكم في قرطاجنة	٢٠٧	موت رجار
٧٩	نظر البربر إلى فتح العرب	٢٠٩	محمد بن تومرت
	نجاة زناتة لعقبة وفك الحصار	٢١٤	محمد بن خطاب
٨١	عنه	٢١٥، ٢١٤	مرغم بن صابر
٩٨	نكبة الوليد لموسى بن نصير	٢١٨	محمد الناصر
	انتشار دعوة الخوارج في المغرب	٢١٩	مطاردة ابن غانية
١٠٤	والأندلس	٢٢١	محمد بن مسعود شيخ الداودة
	انتشار مذاهب الخوارج في	٢٢٥	مجريس
١٢٥	إفريقية	٢٢٥	محمد بن عيسى الهنتاتي
١٣٤	نصر بن حبيب المهلبى	٢٢٥	مناسبة
	نهاية حكم خلفاء الأمويين	٢٢٥	مرغم بن صابر يشتري زنزور
١٣٩	والعباسيين على إفريقية	٢٢٦	محمد بن يحيى
١٤١	نظام الحكم في دولة الأغالية	٢٢٨	المسيل يستولى على تونس
	انتصار المالكيين في مناظرة	٢٢٩	محمد بن الواثق
١٦٣	الشيعيين	٢٣١	محمد المزدورى هـ
٢٢٠	النالم		محمد بن زكريا اللحيايى (أبو
٢٢٩	نقل صاحب نزهة الأنظار	٢٣٣	ضربة)
٢٤٨	نزول الأسبان في طرابلس	٢٣٣	محمد بن أبي عمران
٢٥٩	نهاية حكم الأسبان في طرابلس	٢٣٧	محمد بن ثابت
٢٦٠	نزول برباروسا على تاجورة	٢٤١	محمد بن عبد العزيز

الصفحة	الموضوع
١٦٧	سوء معاملة عبيد الله المهدي
١٨٨	سعيد بن خزرون
٢١٧	سقوط طرابلس في يد ابن غانية
٢١٨	سقوط تونس في يد بن غانية
٢٢٠	سويقة ابن مذكور
٢٢٢	السيد إدريس بن يوسف
٢٧٠	سفر القرسان إلى مالطة

ع

١٧	عناية الروم بتعمير إفريقية
	عدد سكان إفريقية في عهد
١٧	الروم الثاني
١٨	عمران طرابلس
٢٤	عقبة بن نافع في زويلة
٧٣	عزل عقبة عن إفريقية
٩٦	عطية بن يربوع
١٠٠	عبد الله بن يزيد المعافري
١٠٠	عبد الله بن كريس
١٠١	عبد الرحمن بن رافع
١٠٧	عبد الرحمن بن رستم
١١٠	عبيدة بن عبد الرحمن
١١٠	عبيد الله بن الحبحاب
١١٤	عبد الرحمن بن حبيب
١١٥	عبد الجبار بن قيس الاباضي
١٢١	عبد الرحمن بن رستم هـ
١٢٢	عمرو أبو الأحوص العجلي
١٢٤	عبد الله بن حيان الاباضي
١٢٥	عيسى بن موسى الخراساني
١٢٧	عمر بن حفص بن قبيصة

الصفحة	الموضوع
٢٦٣	نصف قلعة خير الدين
٢٦٥	نقل مركز القرسان إلى طرابلس
٢٦٨	نزول سنان باشا على تاجورة
٢٧٠	النداء بالأمان لكل من ألقى سلاحه
٢٧٣	انتقال مراد أغا إلى تاجورة

س

٥	سكان ليبيا
١٦	سبب احتلال الوندال قرطاجنة
١٨	سبب سقوط قرطاجنة
١٩	سبب انهيار دولة الروم
	السبب في تخريب العرب أسوار
٢٢	المدن التي يحتلونها
٢٦	سرت القديمة
٢٦	سكان سرت القديمة
٤٠	سبب هدم سور طرابلس
٦٥	سياسة الغزو
٦٦	سرية عقبة
٧٣	سيداموس
٧٥	سكان فزان
٩٠	استيلاء الروم والبربر من أعمال الكاهنة
١٠١	سعيد بن مسعود التجيمي
	سلمة بن سعيد أول من أدخل
١٠٧	المذهب الاباضي إلى إفريقية
١٣١	سعيد بن شداد حاكم طرابلس
١٤٦، ١٤٤، ١٣٦	سفيران بن أبي المهاجر
١٤٨	سحنون بن سعيد (الفقيه) هـ

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٤٢	عبد الواحد بن حفص	عبد الوقائع بين عمر بن حفص	
٢٥٥	العهد الاسباني	والبربر	١٢٩
	عقد معاهدة بين فرسان	علي بن زياد العبسي	١٣٣
٢٦٠	القديس وأمير تونس	العلاء بن سعيد	١٣٥
٢٦٦	عبد القادر شوشانه	عبد الله بن الجارود	١٣٥
٢٧٠	العفو عن الفرسان	عبد الله بن ابراهيم الأغلب	١٤٤
		عبد الله بن محمد الأغلب عامل	
		طرابلس	١٤٩
	ف	العباس بن أحمد بن طولون	١٥١
		عبد الله بن ابراهيم الأغلب (الثاني)	١٥٧
		عبد من تولى الحكم من الأغلبة	١٥٨
١٢	الفينيقيون	عبيد الله المهدي	١٦٠
٢٠	فتح برقة	عداوة المالكيين للمهدي	١٦٢
٢٤	فتح زويلة	عوصلة بن بكار	١٧٧
٢٧	فتح مدينة سرت	عبد الله بن الحسن	١٨٧
٣٢	فتح لبدة	العودة للكلام على آل زيري هـ	١٩٢
٣٧	فتح طرابلس	علي بن يحيى	٢٠٣
٤٢	فتح صبراتة	عبد المؤمن بن علي	٢١٠
٤٨	فتح ودان	عثمان أبو دبوس	٢١٥
٤٩	الفتح الثاني (ابن أبي سرح)	عداوة	٢١٧
٥٥	الفتح الثالث (ابن أبي سرح)	عبد الله بن جامع	٢١٩
٦٠	الفتح الرابع (بن حديج)	عبد الواحد بن أبي حفص	٢٢١
٦٢	الفتح الخامس (بن حديج)	عبد الله بن عبد الواحد	٢٢٣
٦٤	فتح جلولا	عبد الله التيجاني هـ	٢٢٥
٦٤	فتح سوسة	عمر بن أبي زكريا	٢٢٨
٦٧	الفتح السادس (عقبة بن نافع)	عمر بن أبي بكر	٢٣٦
٧٠	فتح قصر جاوران	عبد الواحد اللحياني	٢٣٧
٧١	فتح غدامس	عبد الرحمن بن أحمد بن مكي	٢٣٩
٧٥	قران	عزوز هـ	٢٤٠
٧٨	الفتح السابع (دينار أبو المهاجر)	علي بن عمران بن محمد بن ثابت	٢٤٠

- ٨٤ قتل كسيلة
 قتل زهير (على إحدى
 الروايتين)
 ٨٥ القتال بين حسان والكاهنة
 ٨٩ قصر ألجم هـ
 ٩٢ قتل الكاهنة
 ٩٢ قتل يزيد بن أبي مسلم
 ١٠٣ قبول البربر لدعوة الخوارج
 ١٠٤ انقسام البربر إلى نكار ،
 وصفرية ، وأزارقة
 ١٠٤ قبيلة مضغرة أول من اعتنق
 بدعة الخوارج
 ١٠٥ قلة النشاط الحربي في إفريقية
 ١١١ قتل عبد الرحمن بن حبيب
 ١١٧ قتل إلياس بن حبيب
 ١١٨ قول الاباضية « لا حكم إلا لله »
 ١٢٠ قتال أبي الخطاب ورفجومة
 ١٢٠ قدوم أبي الأحوص إلى إفريقية
 ١٢٢ قدوم ابن الأشعث إلى إفريقية
 ١٢٣ قتل أبي الخطاب
 ١٢٣ قصة مهدي النفوسى هـ
 ١٤٥ قصر حاتم هـ
 ١٥٣ قصر مانو
 ١٥٤ قتل ابن الأغلب ٢٥ رجلاً
 وطبخ رؤوسهم
 ١٥٥ قتل ابن الأغلب إخوته وابنه
 صبراً بين يديه
 ١٥٦ قتل ابن الأغلب اثنتي عشرة
 بنتاً من بناته
 ١٥٦ قتل عبد الله الأغلب
 ١٥٧

- ٧٩ الفتح الثامن (عقبة بن نافع)
 ٨٦ الفتح التاسع (حسان بن النعمان)
 ٨٧ فتح قرطاجنة
 ٩٨ الفتح العاشر (موسى بن نصير)
 فتوح حسان مهدت لموسى بن نصير
 ٩٨ فتح ابن الأشعث زويلة وودان
 ١٢٤ الفضل بن روح بن حاتم
 ١٣٤ فتوح بن علي في طرابلس
 ١٨٠ فلفل بن سعيد يستقل بطرابلس
 ١٨١ فرار محمد بن خزرون
 ٢٠٥ فرح أوربا بسقوط طرابلس
 ٢٥٣ فرار الشيخ عبد الله شرف إلى تاجورة
 ٢٥٧ فرسان القديس في طرابلس
 ٢٦٠

ص

- صلبة الجرمستين بطرابلس ٣٣ ، ٣٤
 صبراتة ٤٠
 صفوان عامل طرابلس ١١١
 الصفيرية يستبيحون أموال أهل السنة ١١٣
 الصففاقيون في طرابلس ٢٧٤

ق

- قرطاجنة ١٣
 القتال بين العرب وجرجير ٥٣
 قبول ابن أبي سرح الصلح ٥٣
 قتل جرجير وأسر ابنته ٥٧
 قبر وريفع بن ثابت ٦٥
 قصر الأعراي ، أو العبادي ٦٨
 القيروان هـ ٧١
 قتال عقبة وأصحابه حتى استشهدوا
 عن آخرهم ٨٢

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٤	رجوع حسان إلى القيروان	١٥٧	قتل إبراهيم الأغلب أسرى نفوسة
٩٤	رجوع حسان إلى المشرق	١٥٨	انقراض دولة الأغالبة
١٠٢	رسالة الفقهاء العشرة	١٦٢	قتل الداعي (الشيعي)
١٣٣	روح بن حاتم	١٦٢	قبيلة كتامة أول من ناصر المهدي
١٥٣	رد إلياس أبي منصور على ابن طولون	١٧٦	قلعة بني حماد هـ
١٥٩	رأى علماء المسلمين في الدولة العبيدية	١٨٥	قصر فلفل هـ
١٧٢	رحلة المعز لدين الله	١٩٧	قبائل العرب هـ
١٩٥	رفض المعز وأمر العبيديين	٢٠٨	القائمون بدعوة العبيديين
٢٠٥، ٢٠٤	رجار يهاجم طرابلس	٢١٤	قراقش في طرابلس
٢٣٢	رجوع اللحياني إلى طرابلس	٢١٤	قراقش في جبل نفوسة
ش	ش	٢١٦	قراقش يغير على قابس
٤٤	شروس	٢١٦	قراقش يقتل مشايخ العرب
١٤٣	شروط ابن الأغلب على الرشيد	٢٢٢	قتل قراقش في ودان
	شعور المهدي بأن دولته لا	٢٢٣	قتل يحيى بن غانية
١٦٣	تستقر في إفريقية	٢٣٢	قصر الطارمة
١٦٣	اشتداد الفتنة على الشيعة	٢٥٠	قصة عجيبة
١٧٣	شعر ابن هاني	٢٥٩	قبول رئيس الفرسان شروط فليب
١٩٠	شاه ملك	٢٧٢	قدوم طورغود إلى طرابلس
٢١٣	شرف الدين قراقش	ر	
٢١٨	الشكوى من أعمال ابن غانية	١٠	ردة البربر
٢٤٤	الشيخ منصور	١٤	الروم
٢٥٩	شروط فيليب على رئيس الفرسان	١٧	الروم في قرطاجنة مرة ثانية
ت	ت		رجوع ابن أبي سرح إلى المشرق
١	التعريف بلوبيا	٥٨	رجوع ابن أبي سرح إلى المشرق
٤	تقسيم ليبيا	٦٤	رويفع بن ثابت
٩	تفسير كلمة « فرنجة »	٧١	رجوع عقبة إلى مغملاس
١١	تعصب هواة للخوارج	٨١	ردة كسيلة
١١	تغلب العرب على البربر	٨٢	رجوع زهير إلى القيروان
١٥	تخريب الروم قرطاجنة	٨٤	رجوع زهير إلى المشرق
		٨٩	رجوع حسان إلى سرت

الصفحة	الموضوع
٢٥٦	تحول في السياسة الأسبانية
	تعصب فرسان القديس ضد
٢٥٨	الإسلام
٢٦٣	الترك في طرابلس
٢٧٠	تسليم جنود الفرسان وفتح الأبواب
	اتفاق الأسبان وفرسان القديس
٢٧٥	على أخذ إفريقية
	ث
	ثلاث حروب بين الروم وقرطاجنة ١٥
١١٢	ثورة عكاشة الفزاري على مسلمة
١٣٢، ١١٥	ثورة الاباضية
١١٨	ثورة ورفجومة
١٢٥	ثورة موسى بن عجلان
	ثورة الحسن الكندي على ابن
١٢٦	الأغلب
١٢٧	ثورة يعقوب الاباضي (أبو حاتم)
١٣١	ثورة أبي يحيى (ابن قرياس)
١٣٥	ثورة ابن الجارود
١٣٧	ثورة تمام بن تميم
	ثورة عياض بن وهب
١٣٧	(الاباضي)
١٤٥	ثورة هواره على عامل طرابلس
١٤٩	ثورة البربر على أحمد بن الأغلب
١٥٤	ثورة البربر على ابن قهر
١٦٧	ثورة أهل برقة
١٨٣	ثورة في برقة
	الثورة على مذهب الشيعة في
١٨٩	طرابلس

الصفحة	الموضوع
١٨	تبعية طرابلس لقرطاجنة
٥١	تراجم بعض العبادلة ه
٧٢	تأسيس مدينة القيروان
٧٩	تعليق موقف البربر من الروم
٩٠	تبنى الكاهنة لخالد بن يزيد
٩٢	تكهن الكاهنة بقتلها
٩٣	تدوين حسان الدواوين
	تولية ابراهيم بن النصراني على
٩٤	خراج برقة
٩٦	ترجيح إحدى روايتي قتل زهير
١٠٥	تسرب دعوة الخوارج إلى إفريقية
١١٤	تخلي حنظلة عن القيروان
	تغلب الاباضية على البلاد
١١٦	الطرابلسية
١٢٦	تأثر البربر بعامل العنصرية
١٢٨	تألب البربر على العرب
١٢٨	تحايل عمر لتفريق جيوش البربر
١٣٧	تغلب عياض الاباضي على هرثمة
	تعدي جيش ابن طولون على
١٥٣	سكان البادية
	تعفف البربر عن أخذ أموال
١٥٣	ابن طولون
	ترك الجمعة كراهة في مذهب
١٩٥	العبيدين
١٩٩	تغلب العرب على ابن باديس
٢٠٠	تميم بن المعز
	تكالب الأسبان على احتلال
٢٤٦	إفريقية
٢٥١	تفكير الأسبان في احتلال طرابلس

الصفحة	الموضوع
٢٣١	خالد بن أبي زكريا
٢٧٦	الختامة
	ذ
٢٣٣	ذهاب اللحياني إلى مصر
	ض
٢٠	ضبط كلمة برقة
٨٤	اضمحلال شأن البربر
٩٢	ضخامة جسم الكاهنة ه
	ظ
١٠٣	ظهور دعوة الخوارج
٢٤٦	ظهور العثمانيين في البحر الأبيض
	غ
٢٩	غارات الجرمانيين على لبدة
٥١	غزوة العبادلة
٦٥	غرض العرب من غزو إفريقية
٧٣	غدامس
٨٧	غزو حسان قرطاجنة
٩١	غرض الكاهنة من تخريب إفريقية
٢٠٧	غاليام (رجار الثاني)
٢١٢	غانية

الصفحة	الموضوع
١٩٣	الثورة على الشيعة وقتلهم
٢٠٧	الثورة على غاليام
٢٠٨	ثورة رافع بن مطروح
	ثورة أهل طرابلس على ابن
٢١٨	غانية
٢٣٥	ثابت بن محمد بن ثابت
٢٣٧	ثابت بن محمد بن ثابت (الثاني)
٢٤٤	ثورة بني غراب
	خ
	اختلاف المؤرخين في غزوات
٥٥	ابن أبي سرح ه
	اختلاف المؤرخين في غزوات
٦٠	ابن حديج
٧١	خطاب عقبة للوحوش في القيروان
٨٤	خروج كسيلة من القيروان
٨٩	خالد بن يزيد
٩٠	خراب إفريقية
١٠٣	الخوارج
١٣٠	خرافة
١٦٥	خليل بن إسحاق
١٨٧	خليفة بن ورو
١٨٩	خزرون بن خليفة
١٩٠	خليفة بن خزرون

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 071969966